اقرأ

د. جمال مرسى بدر

مختارات أدبية وتاريخية



89



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: أنيس منصور





دكتور جمال مرسى بدر

مختارات أدبية وتاريخية

اقرأ ٤٣٠
دار المعارف

(إقرأ ٤٣٠)
ديسمبر ١٩٧٧

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

أدب

خواطر مسافر

أخى العزيز . . .

تحية الظاعن المشوق إلى المقيم السالى ، وبعد . . .

أكتب إليك من « لوزان » التى أقضى فيها النهار فى بعض الأيام ، وتقع على مسيرة نصف ساعة بالقطار من مكان إقامتى فى الجبل ، وهى - كما قد تعلم - من كبريات مدن سويسرا ، ولها الشاطئ المشهور على بحيرة « ليمان » المسمى « أوشى » وأنا الآن أكتب إليك من هناك فى أحد المقاهى المنتشرة على ضفاف البحيرة وأمامى الماء والخضرة ، ولو كان الثالوث الذى خلده شاعرنا مكتملاً لما وجدتنى أكتب إليك ولكننى أريد تزجية الفراغ ، كما أريد أن أضع بعض مشاعرى فى هذه الرحلة على الورق حتى لا تتبخر جميعاً .

منذ أيام مضيت إلى نزهة فى غابة تقع على مقربة من « فيفيه » وقضيت ساعتين أتجول خلال تلك الغابة التى هى مظهر من مظاهر الطبيعة لا نجده فى بلادنا . والواقع أن الغابة تكاد تكون مخلوقاً له حسّ وشعور ، ووجودك فيها يجعلك تتشرب فى أعماق إحساسك السكون الغريب الذى يسود الطبيعة : سكون فى الطبيعة يبعث سكينة فى النفس تنسى معها نسبيات الحياة وتقترب - بقدر ما فى روحك من استعداد - من المطلق الكلى ، وتتصاغر فى نفسك فى تلك السكينة الروحية جميع المعلومات الدنيوية ،

وترتفع بمشاعرك نحو العلّة الكبرى ، شعور يشبه ما يحكيه الصوفية عن ساعات تجلّيهم . وتمشى فى طرقات الغابة الملتوية – وبعضها قلما تطؤه قدم – تحوطك أشجارها الباسقة التى تزين أغصانها الأفقية أوراق زمردية تتخللها أحياناً أشعة الشمس فتكسبها إشعاعاً أخضر عجيباً تحب أن تملأ عينيك منه فلا تمتلئان ، لأن العين لا تمتلئ إلا إذا ملئت ، وهذه الخضرة المشعة الزاهية لا يمكن أن يملها الإنسان . وتنعطف فى منحنى يصادفك وبعد خطوات تختفى أشعة الشمس وتجدك فى ظل كثيف يزيد شعورك بالسكون المطلق الذى يسود الغابة . وتمشى ثم تمشى لاتحس كللا ولا سآمة ، وموطئ قدميك ليس بالطين ولا بالتراب ، بل بساط ممتد من أوراق الشجر المتساقط بعضها فوق بعض ، تغوص فيه قدماك غوصاً رفيقاً كأنما تمشى على بعض البسط العجمية الثمينة .

* * *

وأمس اصطحبنى صديق من أهل هذه البلاد فى سيارته إلى قمة عالية من قمم سويسرة الشهيرة اسمها « ساز – فيه » تقع على بعد ساعتين بالسيارة من حيث أقيم والطريق إليها يقطع نصفه وادى نهر الرون الممتد فى انبساط بين الجبال التى تحوطه ويقع النصف الآخر من الطريق فى الجبال والمرتفعات وهو طريق صعب ولكنه جميل (قليلة فى هذه الدنيا الأشياء التى تجمع بين براعة الجمال وسهولة المتناول !) وعند انتهاء الطريق تصعد إلى تلك القمة (٢٩٠٠ متر فوق سطح البحر) بالعربة المعلقة التى يراد إحداث مثلها بين القاهرة والمقطم ، وهناك تمتد أمامك الثلوج حيثما أدرت بصرك ، وتشعر حقيقة بالبرد فى إبان الصيف برغم اللباس الثقيل . وترى نهرين من أنهار

الجليد الضخمة التي لا تذوب فى صيف ولا فى شتاء وإنما ينساب الماء – فى مثل وقتنا هذا من السنة – من نهايتها فى مجارٍ دقيقة يتجمع بعضها إلى بعض بعد قليل ثم تتجمع مرة أخرى فى هبوطها إلى السفح وكلما تجمعت كبرت وازداد اتساعها حتى تصل إلى الوادى نهراً صغيراً يجرى فى سرعة ، وترفده فى جريه الروافد فلا يلبث أن يغدو بعد قليل نهراً كبيراً يحيى الأرض وينفع الناس . وقد سرّنى حقاً أنى شاهدت بعينى كيف تنبع الأنهار فكل أنهار الدنيا – أو معظمها – تنبع هكذا من أعالى الجبال ، والنيل العظيم نفسه تقع منابعه الأولى فيما وراء البحيرات الكبرى فى القمم الثلجية لجبال إفريقية الوسطى التى تنساب جداولها الذائبة حتى تصب فى البحيرات ثم يخرج منها النيل كما نعرفه حاملاً معه مياه الأمطار الاستوائية بجانب المياه الناتجة من ذوبان الثلوج . ولقد مشيت فى تلك القمة الشاهقة على الثلج الذى تغوص فيه القدم كما مشيت على نهر الجليد الصلب الشديد ، ووجودك فى ذلك المكان يبعث فى نفسك شعوراً لا يشبه شعورك بين أحضان الغابة ، ففى ذلك الارتفاع الشاهق وأمام تلك الضخامة وذلك الاتساع ، يسبق إلى النفس الشعور بضآلة الإنسان وتفاهته ، وبقوة الطبيعة وجبروتها ، ويوحى ذلك إلى نفسك شيئاً كأنه القلق : شعور لعله قريب من شعور المنفرد فى الصحراء .

وكم كنت أود أن تكون معى فى هذه النزهة – وإن كنت لا أجد بالطبع ما أشكوه من رفيقى فيها – وذلك لأن المشاركة الوجدانية مع صاحب قديم وأخ عزيز هى غير مشاركتك مشاعرك وانطباعاتك مع مثل ذلك الرفيق كائناً من كان .

* * *

منذ يومين قضيت سحابة النهار فى جنيف وهى مدينة عمل ولهو تكاد – لكثرة ما تحتويه من الأجناس والملل – أن تكون فقدت طابع المدن السويسرية الأصيلة وأصبحت مدينة دولية تتلاطم فيها المصالح والأهواء . وأنا كلما هبطت إلى جنيف لا أستطيع أن أنزع من فكرى أنها مدينة الظلم ، أو هى « قرية ظالمة » كما نعت أستاذنا محمد كامل حسين مدينة القدس على زمن المسيح .

وللظلم الذى همت به أورشليم – فارتكبته بالنية – منذ عشرين قرناً قصة مشهورة ، أما الظلم الذى ارتكبته جنيف بالفعل فأمره يكاد أن يكون مغموراً وهو يرجع إلى زمن « كالفن » فى القرن السادس عشر حين أحرق « ميشيل سرفيه » حياً بعد عذاب طويل لا لشىء إلا لأن له فى الذات الإلهية رأياً يخالف رأى الكنيسة ، ولذا فإن « سرفيه » فى نظرى لم يحتل مكانه الحقيق به ، فهو شهيد عقيدته ، وفى حياته وموته أكثر من عبرة ، وموضوعه موضوع طريف لم يكتب فيه أحد بالعربية فيما أعلم ، ومراجعه فى اللغات الأوربية نفسها ليست كثيرة ولا هى قريبة المنال ، ولعلى مستطيع أن أكتبه فى يوم من الأيام ، فهو موضوع شيق فضلاً عن أهميته فى تاريخ العقائد والأديان [1] .

غادرت جنيف بعد الظهر بالباخرة التى تربط بين المدن الواقعة على شاطئ بحيرة « ليمان » سواء منها التى تقع فى سويسرة والتى تقع فى فرنسا ، ولئن كانت لشوقى قصيدة عنوانها « البسفور كأنك تراه » فإنك تستطيع

(١) انظر الفصل المعنون « من شهداء العقيدة : ميشيل سرفيه » فى هذا الكتاب .

أن تسمى خطابى هذا « بحيرة ليمان كأنك تراها » ، ليس رأى العين بقدر ما هو رأى الإحساس والشعور ، فإنى أريد أن أنقل إليك صورة ليست من عمل آلة التصوير ولكنها من قبيل لوحات المدرسة الانطباعية فى الفن التى تنقل إليك انفعال الفنان بالمنظر أكثر من نقل المنظر فى ذاته إليك .

أبحرت الباخرة من جنيف مارة بجوار نافورة الماء الشهيرة — التى لدينا مثلها على النيل عند الجزيرة — ويصل ارتفاع رشاش الماء فيها إلى ١٣٠ متراً وكانت أشعة الشمس تخترقه فتنكسر خلال قطرات الماء المتساقطة إلى ألوان قوس قزح تتوالى من أعلى النافورة إلى أسفلها فى جمال رائع يزيده منظر المدينة والتلال الخضر التى تحوطها بهاء وروعة ، وفى الأفق عبر تلك التلال الزاهية الجبل الأبيض (مون بلان) الضخم بثلوجه الدائمة يكلل التلال كأنه تاج من الفضة على مفرق هذا المنظر البديع .

وتمضى الباخرة تمخر عباب الماء الأزرق الصافى فى سرعة لم أكن أعهدها فى سفن البحيرات ذات الدواليب الجانبية من الطراز القديم . وتتوجه إلى مقدم السفينة لتطل على الماء وهو ينشق أمامها فى خط منتظم لا ينقطع ، مكون من عدد لا ينحصر من الموجات الصغيرة والزبد العائم لا تكاد تنشأ مويجة أو فقاعة منها حتى تنقضى ، ولكن تتابعها وتواليها يصور لك خطًّا متصلًا مستمرًّا .

ما أشبه هذه بحياة البشر على الأرض ، فالحياة الإنسانية فى ذاتها خطٌ متصل ، ولكننا نحن أفراد البشر لا نعدو أن نكون فقاعات أو مويجات ، قيمتنا ليست فى أنفسنا بقدر ما هى فى مساهمتنا فى خلق ذلك الاتصال والاستمرار الذى تتسم به الحياة . وخط الحياة البشرية هو الذى يحمل

الأمانة التي ينوء بها البشر « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان » فالفرد الواحد منا كائناً من كان ليس بمستطيع تأدية تلك الأمانة التي تحملها البشرية جمعاء وإنما حملتها البشرية دون سائر مخلوقات الله لأن الإنسان دون غيره يتمكن من الربط بين ظواهر الكون بالعقل ، ويستطيع أن يميز الخير من الشر بالضمير ، وبهذين الجناحين من عقل وضمير يستطيع الإنسان أن يحلّق مرتفعاً عن الطين الذي قدر عليه أن يخلق منه متجهاً إلى النور الذي يراد له أن يصير إليه ، وبقدر ما يبلغ الإنسان في تحليقه ذاك بقدر ما يحمل رسالة الحياة ويؤدي أمانة الله .

وبينما أنظر إلى انحسار الماء يميناً وشمالاً أمام السفينة ذكرت قول طرفة يصف سفينة مثلها قبل خمسة عشر قرناً من الزمان :

عدولية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طوراً ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها ... كما قسم الترب المفايل باليد

وهنا عرتني رعدة لا أدري أهي من البرد الذي يحمله نسيم البحيرة والباخرة تسير سيرها الحثيث أم هي من الطرب لهذا الشعر الذي لا يزال منذ ألف وخمسمائة عام – أو يزيد – يثير إعجاب كل سامع أو قارئ يستشعر جمال الكلمة ؟ إنه روعة هذا الفن (الشعر) وخلود هذه اللغة (العربية) .

وقصيدة طرفة هذه هي التي يقول منها :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عوّدي
فمنهن سبق العاذلات بشربة ... كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكرى إذا نادى المضــاف محنبا كسيد الغضا – نبهته – المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهنكة تحت الخباء المعمـــد

يقول : لـولا ثلاثة أشياء لم يهمه أيعيش أم يقوم عنه من يعودونه فى مرضه يائسين ، هذه الثلاثة هى شرب الخمر ونجدة المظلوم وقضاء أيام الغيم فى خيمة ذات عمد مع حسناء ناعمة .

وأنا أترك لطرفة أولى الثلاثة مكتفياً لنفسى بالاثنتين ! !

لقد اعتدت أن أصطحب معى فى مثل هذه الرحلة مجموعة المعلقات أوديوان أحد شعرائنا الفحول كالمتنبي أو أبى تمام ولكنى فى هذه المرة أعجلتنى الظروف عـن ذلك ، فليس معى فى هذه الرحـلة من الشعر إلا بقية مما تعيه الذاكرة وثمالة مما تجيش به النفس ولم يعد لى – وا أسفاه – من هذا وذاك إلا القليل ، وذلك مصداق قولى الذى لعلك تذكره :

راح الصبا ومضى عهد الشباب بما كانت تحركه العشرون من وتر
قيثـــارة الروح قد أمست بلا نغم وهـل يهز شعور كتلة الصخر
قد استعضنا عن الإحساس منطلقا بالعقل معتقلا فى قبضة الفكر
إلا بقيـــة أشــواق مسهَّــدة كما نعلِّل بعد العين بالأثر
وبضعة من تهاويل الصبا نصلت ألوانهـا وصبابات من الذكر

ومن الشعر القديم الذى يتردد على خاطرى هذه الأيام بيت الأعشى الكبير :

إذا كان« هادى »الفتى فى البــلا د صــدر القناة أطاع الأميرا

ولا أدرى لماذا يلح علىَّ هذا البيت ، ولعلها الموسيقى الداخلية التى يحملها فضلًا عن موسيقى الوزن والقافية ، وذلك إذ تتكرر فى هذا البيت

نغمة معينة كما فى « هادى » — و « بلاد » و « قناة » وتكرار هذه النغمة على فترات متساوية يخلق موسيقى داخلية تضيف جمالاً إلى جمال الوزن والروىّ .

وتصل الباخرة إلى « أفيان » البلدة الفرنسية المشهورة بمياهها المعدنية ، كما هى مشهورة باللهو والقمار وبخاصة فى « الكازينو » المعروف الذى يتميز بموقعه وبضخامة قبته عن كل ما حوله من المبانى ، وتستأنف الباخرة سيرها بعد أن يغادرها قوم ويصعد إليها آخرون ، وتمضى إلى « لوزان » قاطعة عرض البحيرة فى خط مستقيم وقد غابت الشمس ، فصبغت الأفق الغربى حمرة قانية تنعكس على الماء فيبدو المنظر كأنه لوحة ضخمة أراد الفنان أن يجعل طابعها اللون الأحمر القانى . أما الأفق الشرقى فيصعد فيه القمر فى الثلث الأول ويظل الشفق فى الأفق الغربى زمناً طويلًا (فالشفق هنا ليس سريع الزوال كما هو فى بلادنا) ويعارضه القمر فى الأفق الشرقى كل منهما لا يريد أن يريم وكأنك أمام صراع بين ندين لا يكاد النصر فيه أن يستقر لأحدهما .

ومهما يكن من جمال الغروب على ضفاف « ليمان » فإنى لا أعدل شيئاً بمنظر الغروب على شاطئ الإسكندرية ، وبخاصة فى يوم سحاب وأنا فى هذا أخالك شوقياً الذى قال فى وصف غروب الشمس وشروقها فى هذه الربوع ذاتها :

إن أشرقت زهراء تسمو للضحى وإذا هوت حمراء فى تلك الذرى
فشروقها منها أتم معانيا وغروبها أجلى وأكمل منظرا

فأنا لا أرى شروق الشمس فى ذرى جبال سويسرا أو غروبها فيها

أتم معانى ولا أجلى منظراً من شروقها أو غروبها فى بلدى ورحم الله مطران الذى وصف غروب الشمس على شاطئ الإسكندرية فى رائعة من روائعه التى أذكر منها الآن بيتين ثانيهما من فرائد الشعر :

والشمس فى شفق يسيل نضاره فوق العقيق على ذرى سوداء
مـرت خـلال غمامتين تحدرا وتقطـرت كالدمعـة الحمـراء

ولعلك تتساءل : ما الذى أذكرنى الإسكندرية وأنا بعيد عنها هذا البعد وما الذى جعلنى أحن إليها وحولى هنا كل هذا الجمال ؟ فإذا فعلت فإنى أحيلك إلى قول الشاعر القديم :

وحبّب أوطـان الرجـال إليهم مآرب قضّاها الشباب هنالكا
إذا ذكـروا أوطانهم ذكّـرتهم زمـان الصبا فيهـا فحنوا لذلكا

ولا يطول تعارض الشفق المتشبث بالأفق الغربى والقمر الطالع فى الأفق الشرقى أكثر مما يسوغ له أن يطول فى سنن الكون ونواميس الطبيعة ، إذْ لا بد مما ليس منه بد ، فلا يلبث الشفق أن يختفى ، ويرتفع القمر فيتوسط السماء وتنعكس صورته على صفحة الماء ، وتحل محل الحمرة التى كانت تشيع فى المنظر زرقة لا تعتم بدورها أن تخلى مكانها لظلام الليل يهبط على الكون رويداً رويداً وتتلألأ فيه أنوار المدن والبلدان على شواطئ البحيرة متراصة كأنها عقد من اللؤلؤ (تشبيه قديم ولكنى لا أجد أدل منه على أثر المنظر فى النفس) وتصل الباخرة إلى « لوزان » وهى خاتمة مطافها بعد ساعات ثلاث من إقلاعها من جنيف : زمن قصير ولكنه غنى بالإيحاءات ملىء بالأحاسيس التى تجعل لمطلق الزمن قيمة أخرى لدى الإنسان .

زلة شوقية

لشوقى فى الشعر العربى الحديث مكانة شامخة ، أهله لها تمكنه من اللغة وتصرفه فى البيان ، وكفلها له إسباغه على الشعر برود الأوائل التى كان قد عدا عليها الزمان ، حتى إننا لنشم فى شعره ريح أبى تمام ونلمس رقيق حاشية البحترى وتبهرنا روائع أبى الطيب ، بعد أن كان قد أتى على الشعر العربى حين من الدهر طويل ، هبط فيه من سماء الوحى والإبداع إلى أرض الصناعة اللفظية الرخيصة حتى أخذ بيده من تلك الوهدة البارودى وقفاه شوقى فزاد عليه وأتى بالبديع المعجب وحلّق بأجنحة الوحى فى أجواء الشعر العالية فلقب من أجل ذلك بأمير الشعراء – على إساغة أن تكون للشعر إمارة وأن يكون على الشعراء أمير .

تلك مكانة استقرت فى التاريخ الأدبى ليس لهذه الكلمة ولا لهذا الكاتب مناقشتها ، وبعيد عنهما قصد الغض منها أو التشكيك فيها .

ولشوقى قصائد وطنية ذائعة كان فيها لسان الشعب وبوق الأمة فيما مر بمصر والشرق على عهده من أحداث جسام ، ووطنياته تلك – سواء منها المصرية أو العربية الإسلامية – مبذولة فى ديوانه لكل قارئ ومنها ما يصدح به المغنون وتردده معهم الألسنة فى كل بلد يتكلم العربية .

على أن الناظر الفاحص فى ديوان شوقى لا يلبث أن يستوقفه بين حين وآخر البيت أو الأبيات يجدها غير صادرة من نبع الوطنية الذى يغذى

سائر شعره ولا متسقة مع الشعور الوطنى العام فى حكمها على الوقائع وتقديرها للأحداث .

ولئن كان غالب ذلك من الهنات التى يصح أن ينتحل لها العذر أو يتأول لها الوجه فإن منها أبياتاً تبرر ما اخترناه لهذه الكلمة . إذ نرى شوقيا فيها يخالف إجماع الشعب فى الرأى بل يذهب إلى حد إزجاء المديح للعدو ، وما كان أغناه عن ذلك فالقصيدة موفية لغرضها مؤدية قصد الشاعر منها بغير تلك الأبيات !

نريد بذلك قصيدته اللامية فى تهنئة السلطان حسين كامل باعتلائه عرش مصر (الشوقيات جـ ١ ص ٢١٤ وما بعدها) وغنى عن الذكر أنه إنما تولى العرش بسلطان الإنجليز وفى أعقاب إعلان الحماية البريطانية على مصر ، وفى هذه القصيدة يقول شوقى عن الإنجليز :

لله أدركه بكم وبأمة ... كالمسلمين الأولين عقولا
حلفاؤنا الأحرار إلا أنهم ... أرقى الشعوب عواطفاً وميولا
أعلى من الرومان ذكرا فى الورى ... وأعز سلطاناً وأمنع غيلا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم ... ساروا سماحاً فى البلاد عدولا
وأتوا بكابرها وشيخ ملوكها ... ملكاً عليها صالحاً مأمولا

فشوقى هنا يرى الإنجليز « كالمسلمين الأولين » ويعتبرهم « حلفاءنا الأحرار » ويطريهم بأنهم أعز من الرومان وأعلى ذكراً . ثم يرى من أياديهم البيضاء على مصر أنهم بعد أن ساروا فى حكمها سماحاً عدولا أتوا بحسين كامل وولوه عرشها « ملكاً عليها صالحاً مأمولاً » !

هذه نظرة شوقى إلى تولية حسين كامل عرش مصر أما النظرة الوطنية

الصحيحة إلى تلك الواقعة فيعبّر عنها مؤرخ الحركة القومية الأستاذ الرافعي بقوله :

« وغنى عن البيان أن هذا التبليغ (البريطانى للسلطان حسين كامل) قد قوبل من الشعب بالسخط والألم كما قوبل اعتلاء السلطان حسين كامل عرش مصر على أساس هذا التبليغ بالدهشة والمرارة إذ رأى الشعب فى تنصيبــه سلطاناً على مصر بخطاب موجَّه إليه من المعتمد البريطانى أول مظهر للحماية وضياع الاستقلال وأدرك بفطرته السليمة أن السلطان الذى تعينه إنجلترا لا يمثل سيادة مصر بل يمثل سيادة الدولة الحامية » [1] .

فى هذه الحادثة إذن نظم شوقى أبياته المتقدمة ، وهى زلة تجعلنا تراجع الأستاذ محمود محمد شاكر فيما أبداه من رأى فى معرض كلامه عن وطنيات شوقى وحافظ [2] إذ قال : « أما شوقى فقد . . خلا شعره مما يقدح فى وطنية الشاعر ومن طعن على بلاده وأوطان قومه إلا أن تكون فلتة ، ومن كل ملق لا خير فيه يتملق به الغزاة البريطانيين » .

ولعمرى لئن لم تكن الأبيات التى استشهدنا بها ملقاً للبريطانيين فلا ندرى أى شىء تكون ! ومما يدخل كذلك فى باب الملق للمحتلين ما جاء فى مطلع همزية شوقى فى شكسبير .

أعلى الممالك ما كرسيه الماء ... وما دعامته بالحق شماء

يا جيرة « المنش » حلاكم أبوتكم ... ما لم يطوق به الأبناء آباء

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : « ثورة سنة ١٩١٩ » جـ ١ ص ٢٠ .

(٢) مجلة الكاتب عدد أكتوبر ١٩٤٧ ص ١٩٧٣ .

ملك يطاول عز الشمس عزته في الغرب باذخة فى الشرق قعساء
ودولة لا يراها الظن من سعة ولا وراء مداها فيه عليـــاء
وكان ودهم الصــافى ونصرتهم للمسلمين وراعيهم كما شاءوا

حقاً لقد كان شوقى شاعر القصر ، وكان عليه بهذه المثابة أن ينظم الشعر فى مناسبات القصر والأسرة المالكة ، وليس من تلك المناسبات ما هو أهم من تولية سلطان جديد . لكنـا لا نأخذ على شوقى مدحه السلطان حسينا ولا تهنئته إياه بالعرش ، وإنما نأخذ عليه تطوعه بمديح الإنجليز فى غير حاجة إلى ذلك المديح ولا ضرورة تلجئ إليه ، اللهم إلا أن يكون قد استقر فى ذهن الشاعر أن الصلة بين إعلان الحماية وبين تنصيب حسين كامل — وهى صلة لم تخف عن الشعب الذى استقبل السلطان الجديد بما لا يحب — من شأنها ألا يتم مدح السلطان إلا بمدح من ولوه !

هذا ويتجلى فى أكثر من موضع من شعر شوقى أثر صلته بالقصر إذ كان شوقى يعتبر نفسه « شاعر الأمير » ويعتز بمولده « بباب إسماعيل » ، فمن أثر تلك الصلة نظرة شوقى الخاصة إلى الحركة العرابية ورجالها وهى نظرة تبدو فى شعره سلباً أكثر مما تبدو إيجاباً ، فشوقى لم يتناول الحركة العرابية فى شعره بوجه خاص ولم ينظم فى أحد من رجالها شعراً ذا بال ، وإن اضطر إلى الإشارة إلى الحركة ورجالها ، فهم فى نظره « العصاة » وفشل الحركة فى تقديره « نصر من الله » .

يقول شوقى فى قصيدة « كبار الحوادث فى وادى النيل » — وهى افتتاحية الجزء الأول من الشوقيات — إذ يصل إلى ذكر عهد توفيق والاحتلال الإنجليزى :

وغزير الهدى من الحمد والتو (م) فيق صيغت لذاته الأسماء

بنت العدل راحتاه وعزت ... فى حماه العلوم والعلماء

إن أتاها فليس فيها بباد ... أو جناها فذا الورى شركاء

لا يلم بعضكم على الخطب بعضاً ... أيها القوم كلكم أبرياء

ضلة زانها الشقاء لمصر ... ومن الذنب ما يجىء الشقاء

وقضى الله للعزيز بنصر ... فأتى نصره وكان القضاء

ويقول فى رثاء رياض باشا مشيراً إلى موقفه من الثورة العرابية (والخطاب للمرثى والضمير لمصر) :

قضيت لها الحقوق فتًى وكهلًا ... ويوم كبرت وانحنت القناة

ويوم النهى للأمراء فيها ... ويوم الآمرون بها العصاة

ولئن رثا شوقى رياضاً ومصطفى فهمى وغيرهما فإنه لم يرث من « العصاة » أحداً حتى البارودى برغم ما بينهما من جامعة الشعر الذى راد طريق نهضته البارودى ومات عنه واضح الصوى بين المعالم . ولم يفز الإمام محمد عبده – لصلته بالعرابيين – بأكثر من أبيات ثلاثة هى الواردة بالجزء الثالث من الشوقيات (ص ٤٥) وهو الجزء الحافل بمراثى كثير من الرجال منهم العمالقة ومنهم الأقزام الذين لا يصلون إلى مواطىء أقدام محمد عبده.

ولئن ذكر ذاكر قصائد شوقى المشهورة فى مصطفى كامل فينبغى أن نذكر إلى جانب ذلك أن ما بين الخديو عباس حلمى وبين مصطفى كامل كان عامراً ولهذا لم يجد الشاعر ما يحمله على التنكر لعواطفه الوطنية مراعاة لجانب صلته بالقصر إذ كان رب القصر على حسن علاقة بالزعيم الوطنى ، وقد حرص شوقى على إبراز هذا المعنى فنراه يقول من قصيدة « شهيد

الحق » (الشوقيات حـ ١ ص ٢٧٨) :

وعنـــدك للملوك بنى عـــلى منـــازل فى الـكرامة لا تسامى
جمعت الناس حول العرش علماً بأن لمصر فى العرش اعتصاما
إذا طـافوا ببيت الملك يوماً سبقتهم إلى الـركن استـلاما
تضائل شخصك الضاحى وقارا وتخفض رأسك العالى احتشاما
وكان العرش هامة كل قـــوم وإن كانـوا أجـل النـاس هاما

وعلم الله أن مصطفى كامل لم يكن يضائل شخصه أو يخفض رأسه ، ولكنه المعنى الذى أراد الشاعر أن يبرزه لينفى ما فى مدح الزعيم الوطنى من مظنة الخروج عن الولاء لأميره .

على أن المتتبع لشعر شوقى السياسى بعد الحرب العظمى الأولى يلاحظ تحولاً واضحاً فى اتجاهاته الوطنية ؛ فشعر شوقى منذ ذلك الحين إلى أن قضى نحبه يسير فى نسق واحد مع شعور الشعب الوطنى ، وإلى هذه الفترة ترجع وطنياته المشهورة ، وعلة هذا التحول عاملان :

الأول : أن ولاء شوقى إنما كان فى الدرجة الأولى لإسماعيل ثم لتوفيق ثم لعباس حلمى ، فلما أطاحت الأحداث بهذا الأخير عن عرش مصر وطوحت الأحداث نفسها بشوقى إلى المنفى فترت صلته بالقصر فتوراً ملحوظاً ولم يتصل بعد رجوعه إلى مصر ما كان قد انفصم من تلك الصلة وبذلك تخلص شوقى من سجن الولاء لشخص « ولى الأمر » واستعاض عنه الولاء لمصر ولشعبها .

والعامل الثانى : أن الشعور الوطنى كان قد بلغ من القوة والانتشار حدًّا بعيداً جعل القصر نفسه لا يجرؤ على المجاهرة بما يجبه ذلك الشعور

فكان القصر والشعب فى الظاهر على الأقل – صفاً واحداً بحيث لم يعد ثمة ما يحمل الشاعر على الحيرة بين ولاءين ، ولا على كبت شعوره الوطنى تحاشياً لإغضاب القصر وأربابه .

إن هذه الناحية من نواحى شوقى – ناحية التضارب بين عاطفته الوطنية وبين واجبه كشاعر للقصر – لم تحظ إلى الآن بما هى أهل له من التفات النقاد ، وعندى أنها مما يجدر بمؤرخى شوقى ودارسيه – وخاصة فى جامعاتنا المصرية – أن يولوه شيئاً من البحث والدراسة حتى يتجلى عن تاريخ شوقى الأدبى كل غموض وإبهام ، وحتى يلقى الضوء ساطعاً على جميع نواحى ذلك الشاعر الخالد .

الرثاء

فى شعر حافظ إبراهيم

للرثاء من بين فنون الشعر المختلفة مكان خاص عند حافظ إبراهيم فلقد أكثر شاعر النيل من المراثي التى انفردت من صفحات ديوانه بجانب ضخم ، كما امتاز الرثاء عنده بميزة أخرى هي أنه من أكثر الفنون التى نظم فيها حافظ دلالة على شخصيته وتصويراً لما يتميز به شعر حافظ من مميزات فنية تدل على الشاعر وتكشف عن منزعه فى الفن الشعرى . .

ولعل لهذا الطابع الذى اتسم به رثاء حافظ إبراهيم ولهذه الأهمية التى انفرد بها بين أغراضه أصولا بعيدة فى حياة الشاعر . فقد انتاب حافظ كثير من الشدائد منذ حداثته ، إذ مات أبوه وهو صغير ولم يترك له ثروة ، وكان حافظ الطفل ثم الصبي بائساً فى بيت خاله الذى كفله بعد وفاة أبيه ، فلما لم يأنس منه اجتهاداً فى الدرس ولا اشتغالاً بعمل نافع كان لا يتردد فى أن يشعره بعدم رضاه عن تلك الحال فكان موقف حافظ فى بيت خاله موقفاً أليماً يذكره دائماً بيتمه وفقره ، ويصور له دائماً بؤسه وشقاءه ، فتولدت فى نفس حافظ منذ الصبا الباكر عاطفة حزينة لم يخففها ما لقى من دهره فى قابل الأيام ، فلقد أراد شاعرنا من بعد أن يشتغل بالمحاماة فى طنطا — وقت أن لم يكن الاشتغال بها يتطلب مؤهلاً علمياً خاصاً — ففشل فى أن يكون محامياً ، ثم دخل المدرسة الحربية وتخرج فيها ضابطاً ولكن

سرعان ما أصيب فى منصبه ، فأحيل إلى الاستيداع ثم إلى المعاش وهو فى مقتبل عمره . فلا غرو أن كان لكل هذا أثره فى تلك النفس الشاعرة ، وذلك الحس المرهف . وما أثر تلك الصدمات المتوالية إلا الحزن الذى يرسب فى أعماق النفس وإلا سوء الظن بالزمان والإشفاق على نفسه وعلى الناس من فوارع الحدثان .

وإلى هذا كله كان حافظ شديد الخوف من الموت – كما يقول الأستاذ أحمد أمين فى مقدمته لديوانه – ودعاه خوفه من الموت إلى أن ينعى نفسه ، ويتألم كثيراً لشيخوخته ، ويتوهم المرض فى كل عضو من أعضائه ، فإذا مات قرين له أو صديق أو نديم راعه ذلك لأن موته إنذار بموت حافظ . فكانت هذه المشاعر كلها تتمثل فى رثاء صادق يقطع الأحشاء ويذيب لفائف القلب ولولا هذه العوامل مجتمعة لما بلغ حافظ فى الرثاء ما بلغ .

ولا ينال من هذا التأصيل لأسباب الإجادة فى الرثاء عند حافظ ما كان معروفاً عن شاعر النيل من ميل إلى الفكاهة فى مجالسه ، واشتهار بالدعابة بين إخوانه ، فإن طبيعة حافظ الباطنة كانت – على ما يبدو – مخالفة تمام المخالفة لمظهره الخارجى ، فكان مظهره ضحوكاً مرحاً ومخبره حزيناً كئيباً ، وهذا ما يعلل ضعف الفكاهة فى شعره وقوتها فى مجلسه ، وهذا ما يعلل أيضاً أن نصف شعره رثاء كما قال هو نفسه :

إنى مللت وقوفى كل آونة ... أبكى وأنظم أحزاناً بأحزان

إذا تصفحت ديوانى لتقرأنى ... وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

وهكذا كانت دعابة حافظ ومرحه الظاهران ستار يخفى وراءه حزنه

واكتئابه المنطبعين فى نفسه انطباعاً جعله يجيد فى شعره الاجتماعى والسياسى فى معانى التشاؤم والترهيب والتقريع أكثر مما أجاد فى معانى التفاؤل والترغيب والتشجيع ، لأن الضرب الأول أنسب لحزنه وأقرب إلى نفسه ، ولذا كان خير شعر حافظ ما اتصــل بعاطفته الحزينة ، وأكثر فنون الشعر اتصالا بالحزن – الرثاء .

وإذا نظرنا فى رثاء حافظ من الوجهة الفنية وجدناه يتّسم بطابع ذاتى فردى ظاهر ، فحافظ فى مراثيه إنسان حزين باك يذكر المرثى فى علاقته الشخصية به ، ثم يمس النواحى العامة من حياته مسًّا لا يخرج به من البكاء عليه إلى تناول المسائل الاجتماعية أو السياسية لذاتها ، فالرثاء عند حافظ غرض مستقل من أغراض الشعر وليس سلماً لغيره من الأغراض وهو بهذه المثابة رثاء شخصى عاطفى يرسل فيه الشاعر نفسه الحزينة على سجيتها ، ويبكى الميت بدمع الشعر ، كما قد يبكيه غيره بدمع العينين . اسمعه يذكر صفييه محمداً البابلى ومحمداً المويلحى فيقول :

قــد أثـار المحمــدان دفينــاً   فى فؤادى وقد أطارا صوابى
خلفــانى بين الرفـاق وحيداً   مستكينًا وأمعنـــا فى الغيـــاب

فهذا رثاء بالغ البساطة ساذج فى صدقه لم يذهب قائله مذهب الإجادة فى صنعة الشعر أو التفنن فى أغراضه بل هو رثاء صادر من نفس ملتاعة وفؤاد حزين كل غرضه أن يعبر عن ذلك الحزن وأن يبكى الأحباء الراحلين ، وقد يخلط بكاءه عليهم ببكائه على نفسه :

وقف الخمسة قبلى فمضـــوا   هـكذا قبلى وأنى عن قـريب
وردوا الحـوض تباعاً فقفـــوا   باتفــاق فى منــاياهم عجيب

أنا مذ بانوا وولى عهدهم حاضر اللوعة موصول النحيب

ومراثى حافظ ليست مجرد مديح يزجيه إلى الموتى ، بل هى شىء غير ذلك وفوق ذلك . وكثير من مراثى الشعراء إذا حذفت من إحداها البيتين أو الثلاثة وجردتها من الفعل الماضى ثم نقلتها إلى باب المديح لجاز أن تنسب إلى ذلك الباب ، وليست كذلك مراثى حافظ إبراهيم . هذا ويتجلى فى مراثى حافظ من اللفتات الشخصية والنغمات العاطفية مالا يتجلى بهذا القدر فى مراثى غيره من الشعراء . فحافظ هو القائل :

درج الأحبة بعدما تركوا الأسى والحزن لى
لم يحل لى عن بعدهم عيش ولم أتعلل
لى كل يوم وقفة حسرى على مترحل
أبكى بكاء الشاكلات وأصطلى ما أصطلى

ثم هو يقول :

أفى كل يوم يضيع الحزن بضعة من القلب أنى قد فقدت جنانى
كفانى ما لقيت من لوعة الأسى وما نابنى يوم « الإمام » كفانى
تفرق أحبابى وأهلى وأخرت يد الله يومى فانتظرت أوانى

هذا المذهب الشخصى العاطفى فى الرثاء يميز مراثى حافظ إبراهيم عن مراثى معاصريه من الشعراء وإذا ذكر معاصرو حافظ فلا بد أن يذكر شوقى ، وفى مقارنة مراثى الشاعرين ما يلقى على السمة الخاصة التى تميز الرثاء عند حافظ ضوء ساطع . فشوقى فى رثائه ينحو نحواً عقلياً فلسفياً يختلف كل الاختلاف عن مذهب حافظ الشخصى العاطفى ، فمراثى شوقى ليست بكاء خالصاً على من يرثيهم وإنما الرثاء عنده منبر يعتليه ليصور منه الحياة

الدنيا وما فيها من عبر ، والموت وما ينطوى عليه من فلسفة ، وليضرب بعد ذلك بسهم فى أغراض من الشعر ليست بينها وبين الرثاء إلا وشيجة ضعيفة يتصيدها شوقى من موقف فى حياة المرثى ، أو من حادثة عامة عاصرت وفاته أو غير ذلك ، بل قد يندفع شوقى فى أعراض من الشعر غير الرثاء بلا أدنى رابطة أو اتصال ، إذ جل غرضه أن يلقى الحكمة عالية ، وبأن يرسل المثل سائراً ، ثم إنك لا تجد فى مراثى شوقى ذلك الحزن اللاذع وذلك الجزع على المرثى وعلى نفس الشاعر كما تجده عند حافظ ، فالموت لم يكن يتصور لشوقى كما كان يتصور لحافظ ، وشوقى فى حياته المرفهة ونعمته الجزيلة لم يلق من الأيام ما لقى حافظ من شظف وبؤس ، ولذا كان شوقى لا يستشعر الحزن فى عمق ، وكان يستزيد من حياته الطيبة التى كان يحياها فيكاد ينسى أنه لاحق فى أثر السابقين ممن كان يرثيهم ، ولذا لا تجد عنده ما تجد عند حافظ من الالتفاتات الشخصية والجزع الظاهر من الموت ، بل لعلك تجد العكس . إلا يستشف فى رثائه فرحاً خفيًّا بالسلامة ، وسرورا بأنه ما زال متمتعاً بأطايب الحياة أليس هو القائل فى حافظ :

قد كنت أرجو أن تقول رثائى	يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة	قدر وكل منية بقضاء

ألا تكاد تستبين فى هذا البيت الأخير سروراً بطول السلامة التى كتبها له القدر واغتباطاً بأن قضاء المنية قد اختار أن يرجئه ويعجل بغيره ؟ ؟

ومهما يكن من أمر فبين حافظ وشوقى فى الرثاء بون بعيد : الأول نائح باك ، والثانى ناصح حكيم ، الأول يطلق عاطفته الحزينة على هواها ، والثانى يصرف القول فى أغراض من الشعر بعقله الواعى وشاعريته المستوعبة .

وكلما قرأت لشوقى ثم لحافظ فى الرثاء اتجه بى الفكر إلى المقارنة بين مراثى المتنبى ومراثى أبى تمام ، فالمتنبى فى رثائه فيلسوف حكيم لا يستسلم للحزن بل لعله لا يستشعره فى صدق وقوة . ورثاؤه من هذه الوجهة عقلى النزعة كرثاء شوقى ، أما أبو تمام فله فى الرثاء العاطفى الصادق روائع تكاد تستنزل الدموع من المآقى على بعد شقة الزمن بيننا وبين من رثاهم من الرجال ، وحسبك همزيته فى خالد بن يزيد بن مزيد التى مطلعها :

نعـــائى إلى كل حى نعـــائى فتى العرب اختط ربع الغنـــاء

أو حسبك مراثيه المتعددة فى بنى حميد الطوسى وأشهرها الرائية :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عـذر

والأخرى التى على العين :

أى القلوب عليكم ليس ينصدع وأى نوم عليكم ليس يمتنع

ولا ننسى داليته فى رثاء عمير بن الوليد :

أعيدى النوح معولة أعيدى وزيدى من بـكائك ثم زيدى

وكل من يطالع هذه المراثى الخالدة لأبى تمام تجيش نفسه بانفعالات من الحزن والأسى شبيهة بما تبعثه فى النفس مراثى حافظ .

فرثاء حافظ إبراهيم من هذا النبع العاطفى يستمد ، وإلى هذا المذهب الذاتى ينتمى . وإذا كان لا بد من تشبيه شاعر بشاعر فشوقى فى الرثاء أشبه بالمتنبى ، وحافظ إبراهيم أشبه بأبى تمام .

دور البارودى
فى الثورة العرابية

فى الفترة الدقيقة من تاريخ مصر بين نهاية عهد إسماعيل وبداية عهد توفيق كانت تعتمل فى البلاد مشاعر وطنية جياشة ، ترتسم من خلال تفصيلاتها صورة واضحة ذات اتجاهين :

١ - اتجاه إلى تثبيت دعائم الحكم الدستورى .

٢ - واتجاه آخر إلى التخلص من رقابة الدول الأجنبية وسيطرتها على جهاز الحكم المصرى وبخاصة إنجلترا وفرنسا .

وكان هذان الاتجاهان مترابطين ترابطاً وثيقاً ، لأن إطلاق يد الخديوى فى الحكم بغير التزام القيود الدستورية هو الذى أدى إلى الإفراط فى الاستدانة ، مما جعل للدولتين ذريعة يتدخلان بها فى شئون البلاد ، ويفرضان رقابتهما عليها . وكنتيجة للأحداث التى أطاحت بإسماعيل من العرش كان الشعب بجميع طوائفه من مدنيين وعسكريين مطبقاً على مطلبيه هذين وهما : الحكم الدستورى فى الداخل ، والتحرر من السيطرة الآتية من الخارج .

وكان البارودى فى هذه الفترة الحرجة من كبار ضباط الجيش ، ثم من كبار موظفى الحكومة المدنيين . وشغل فى أول عهد توفيق منصب وزير الأوقاف ، ولم يكن للبارودى – بصرف النظر عن مناصبه الرسمية – مناص من أن يسهم فى الحركة الوطنية التى كانت عواملها تتجمع فى الأفق . فإن من كان مثله ذا روح عالية ونفس وثابة لا يسعه أن يقف

من قضايا الوطن موقفاً سلبيًّا ، ولا يجوز عليه أن ينضم إلى معسكر غير معسكر الوطنيين طلاب الإصلاح ودعاة الحرية .

ولا يخلو شعر البارودى من آثار تفكيره فى تلك الفترة . إذ نجد فى شعره تعبيراً عن ثورته على الأوضاع الفاسدة فى الداخل ، وسخطه على الأحوال السيئة فى الخارج ، ودعوته إلى الخلاص من الفساد الداخلى والسيطرة الخارجية ولو بالقوة عن طريق الثورة التى تطيح بالمفسدين وترد كيد الطامعين .

ويقول البارودى :

وأقتل داءٍ رؤية العين ظالماً ... يسىء ويتلى فى المحافل حمده
عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش ... بها بطلاً يحمى الحقيقة شده
من العار أن يرضى الفتى بمذلة ... وفى السيف ما يكفى لأمر يعده
ولابد من يوم تلاعب بالقنا ... أسود الوغى فيه وتمرح جرده
قلوب الرِّجال المستبدَّة أكله ... وفيض الدماء المستهلَّةِ ورده
فإما حياة مثلما تشتهى العلى ... وإما ردى يشفى من الداء وفده

أبيات نشم فيها ريح المتنبي فى فخره وتشدقه بالطعن والضرب ، ولكنها شىء على أية حال عمّا كان يجيش به فؤاد شاعرنا من عواطف إزاء حالة وطنه المؤسفة ، وعن رأيه فيما ينبغى للمخلصين من أبناء الوطن أن يصطنعوه لتخليصه مما هو فيه .

ويقول البارودى من قصيدة أخرى :

تنكرت مصر بعد الحرب واضطربت ... قواعد الملك حتى ريع طائره

فأهمل الأرض جرَّ المظلم حارثها
واسترجع المال خوف العدم تاجره

ويلمه سكنا لولا الدفين به
من المآثر ما كنا نجاوره

يا نفس لا تجزعي فالخير منتظر
وصاحب الصبر لا تبلى مرائره

لعل بلجة نور يستضاء بها
بعد الظلام الذى عمت دياجره

إني أرى أنفساً ضاقت بما حملت
وسوف يشهر حد السيف شاهره

شهران أو بعض شهر إن هى احتدمت
وفى الجديدين ما تغنى فواقره

فإن أصبت فعن رأى ملكت به
علم الغيوب ورأى المرء ناظره

ألا تراه فى هذه الأبيات ينادى بالثورة على رؤوس الأشهاد ، بل يتنبأ بموعدها بعد « شهرين أو بعض شهر » . ولعلها لم تكن مجرد نبوءة وإنما كان علماً بناه على صلته بالثائرين ، واشتراكه معهم فيما يدبرون وما يرسمون .

ثم نسمع شاعرنا يقول :

نامت به من رجال السوء طائفة
أدعى على النفس من بؤس على ثكل

من كل وغد يكاد الدست يدفعه
بغضاً ويلفظه الديوان من ملل

ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت
قواعد الملك حتى ظل فى خلل

وأصبحت دولة الفسطاط خاضعة
بعد الإباء وكانت زهرة الدول

وأصبح النَّاس فى عمياء مظلمة
لم يخط فيها امرؤ إلا على زلل

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا
شكالة الريث فالدنيا مع العجل

وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة
يكون ردءًا لكم فى الحادث الجلل

ماضى البصيرة غلاب إذا اشتبهت
مسالك الرأى صاد الباز بالحجل

إن قال بر ، وإن ناداه منتصر
لبى وإن همَّ لم يرجع بلا نفل

وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً
لكل منتزعٍ سهماً ومختتل

ولا تخافوا نكالاً فيه منشأكم
فالحوت فى اليم لا يخشى من البلل

فهذه دعوة صريحة إلى الثورة بلا نظر إلى العواقب ، ونداء « بشهم

أخى ثقة » يقلده المصريون أمرهم ولا ندرى من كان البارودى يعنى بذلك أكان يعنى أحمد عرابى أم كان يعنى نفسه ، ولكلا الاحتمالين أساس مما ينقله لنا التاريخ .

يحدثنا عرابى فى مذكراته فيقول :

« فى أوائل شهر يناير سنة ١٨٨١ خلوت بالمغفور له محمود باشا سامى ناظر الجهادية ، فأطنب فى الثناء علىَّ لقيامى بنشر راية الحرية فى مصر وملحقاتها من بعد مضى خمسة آلاف سنة على المصريين وهم يرسفون فى قيود الاستبداد والاستعباد ، ثم أقسم أنه مستعد لأن يضحى بحياته ويجود بآخر نقطة من دمه فى تنفيذ رغبتى ، ويجرد حسامه وينادى باسمى خديوياً لمصر إذا رغبت فى ذلك ، فقلت له : لا يا محمود باشا فإنى لا أريد إلا تحرير بلادى ، وليس لى مطمع أصلا فى الاستئثار بالمنافع الشخصية » .

ومن جهة أخرى فإن من المؤرخين من ينسب إلى البارودى الطمع فى عرش مصر ، ويرجعون مساهمته الكبيرة فى الثورة العرابية إلى طموحه الشخصى إلى السلطة والجاه ، ولا ندرى مقدار نصيب هذا القول من الصحة ، على أن البارودى كان كبير النفس ، بعيد الهمة ، وليس من المستبعد أن تكون قد ساورته آمال من هذا النوع ، بخاصة وقد كان عصره عصر قلاقل واضطراب ، وفى أمثال تلك الظروف تشرئب أعناق ذوى الطموح إلى الغايات البعيدة .

ومهما يكن من أمر فقد أسهم البارودى فى الثورة العرابية بسهم كبير ، وكان له فيها دور هام لا يعدوه فى الأهمية سوى دور أحمد عرابى نفسه .

ويكفينا ما تقدم من الاستشهاد بشعر البارودى فى هذا المجال ، فإن الدور الذى قام به فى الثورة لم يكن دور شاعر الثورة أو خطيبها أو داعيتها وإنما كان دوره دور « رجل الدولة » بين الثوار ، ورئيس وزارة الثورة حين ألقيت أزمة الأمور فى وقت ما إلى رجال الثورة .

قلنا إن البارودى كان وزير الأوقاف فى أوائل عهد توفيق ، ولا بد أنه كان فى ذلك الوقت على صلة ما بضباط الجيش الأحرار الذين كانت تحركهم الرغبة فى إصلاح الأحوال الداخلية عن طريق الحكم الدستورى النيابى ، كما كانوا ساخطين على أوضاع الجيش وامتيازات الضباط الشراكسة فيه ، فما إن وقعت واقعة قصر النيل الشهيرة واضطرت الحكومة إلى استرضاء الضباط الوطنيين بإبعاد وزير الحربية الشركسى عثمان رفقى حتى طلب الخديوى من أبطال حادثة قصر النيل الثلاثة (عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى) ومن كان يظاهرهم من الثوار أن يختاروا وزيراً للحربية يرتضونه فلم يقع اختيارهم إلا على البارودى ، وبذلك أضيفت إليه وزارة الحربية ، وكان له فيها السعى الحميد فى تنظيم أمور الجيش وإحقاق حقوق الضباط المصريين .

ثم كان يوم عابدين المشهود فى سبتمبر سنة ١٨٨١ بزعامة عرابى ، ونتج عنه سقوط وزارة رياض وتشكيل وزارة شريف التى ظل فيها البارودى متولياً وزارة الخارجية ، وبعد قليل من تشكيل الوزارة استدعى عرابى من عزلته فى مركز قيادته فى رأس الوادى ليعين وكيلا لوزارة الحربية .

وشرعت وزارة شريف فى إعداد الدستور والتمهيد لإصلاح نظام الحكم على الأساس النيابى ، ولكن الدولتين الاستعماريتين كانتا لمصر

بالمرصاد ، إذ لم يرضهما أن يرتفع تحت سماء النيل علم الحرية ، وأن يصبح أمر الحكم فيها بيد أبنائها ، فانتهزت الدولتان فرصة إعداد مشروع الدستور ، واعترضتا على حق مجلس النواب فى إقرار الميزانية ، وذريعتهما فى ذلك هى ديونهما التى كبلا بأصفادها مصائر البلاد ، فكان أن تقدمت إنجلترا وفرنسا إلى وزارة شريف بالمذكرة المشتركة التى تتضمن الاعتراض على حق النواب فى نظر الميزانية وإقرارها كما تحوى تأكيد رغبة الدولتين فى تثبيت عرش الخديو ، وهى الحجة التقليدية التى كانت بعد ذلك بقليل سبيلاً لإنجلترا إلى الاحتلال .

ولما زاد ضغط الدولتين على الوجه المتقدم ، كان من رأى شريف إرجاء مادة الدستور الخاصة بالميزانية كسباً للوقت وتحاشياً للأزمة ، على أن أغلبية النواب كانت مصرّة على إقرار حق المجلس فى نظر الميزانية ، وكان البارودى يظاهر المجلس فى موقفه الوطنى المشرف ، وإن كان بعض المؤرخين يتهمه بأنه كان يظاهر النواب لا لشىء إلا لإحراج شريف حتى تسقط وزارته فيخلفه هو فى الرئاسة ، وهى تهمة لا نجد فى أحداث تلك الفترة سنداً كافياً لها .

ومهما يكن من أمر فقد استقالت وزارة شريف بعد رفضها المذكرة المشتركة الإنجليزية الفرنسية ، وكانت القوة السياسية فى داخل مجلس النواب وفى خارجه بين طبقات الشعب وفى صفوف الجيش هى فى يد « الحزب الوطنى » كما كان الوطنيون يسمون أنفسهم أو « العرابيين » كما كان يسميهم خصومهم ، فكان لا مناص أمام الخديوى من أن تخلف وزارة شريف وزارة من الوطنيين .

ولما كان البارودى حتى ذلك الوقت هو الوحيد من زعماء الحزب لوطنى الذى سبق له التمرس بالمناصب الوزارية فقد أسندت إليه رئاسة لوزارة . وكانت وزارة البارودى بحق وزارة الثورة ، ففيها ثلاثة من كبار عمائها هم : عرابى ، والبارودى ، ومحمود فهمى . وكان أهم ما فعلته لوزارة إعلان دستور سنة ١٨٨٢ حاوياً حق مجلس النواب فى إقرار لميزانية عدا استثناءات ضئيلة .

ولكن ما كانت الدولتان الاستعماريتان المتربصتان بمصر وبشعبها لترضيان بقاء هذه الحكومة الوطنية فى الحكم ، فسرعان ما احتشد أسطولاهما أمام الإسكندرية ووجها مذكرة ثانية عرفت فى اصطلاح ذلك العصر باسم « اللائحة » ، طلبا فيها إسقاط وزارة البارودى ، وإبعاد عرابى إلى خارج مصر ، وإرسال على فهمى وعبد العال حلمى إلى داخل البلاد ، فلم يسع الوزارة والنواب إلا الوقوف صفًا واحدًا ضد هذا التدخل السافر فى شئون البلاد الداخلية ، وساندهم فى هذا الموقف الشعب الذى تدفقت على الوزارة علامات تأييده ، وسارت جموعه فى الشوارع تهتف « اللائحة . . مرفوضة مرفوضة » ، وهكذا أصبحت البلاد على قلب رجل واحد فى عدم السماح للدولتين العاتيتين بالتدخل فى أخص خصائص الحكم المصرى تحت ضغط التهديد بقوة الأساطيل الحربية .

على أن الشعب كان فى وادٍ والخديوى فى وادٍ آخر ، فإن توفيق سرعان ما أعلن قبوله طلبات الدولتين فانكشف الخلاف الجوهرى بينه وبين حكومته التى يرأسها البارودى ، فرأت الحكومة دعوة مجلس النواب إلى الانعقاد لكى يكون قراره هو الحاسم فيما بين الخديوى والوزارة من خلاف

١٩ سبتمبر ٩١

صديقي الاكرم وعزيزي المحترم دام مجده

انى بادرت بتقديم هذا الرقيم للسؤال عن الخاطر الكريم ثم اخبركم انى بخير وعافية وقد احيانى الله حياة ثانية فارجوكم ان لا تحرمونى من اهداء جريدتكم الغراء وانى اشكركم على ما حررتموه بشأنى لدلالته على حسن الوداد فاقبلوا مزيد سلامى وفائق احترامى ودمتم ود

الداعي محمود سامى

(مرسل من Kandy)

نموذج من خط البارودى فى رسالة من منفاه فى سيلان
إلى يعقوب صنوع « أبى نظارة » فى باريس
(من مجموعة رسائل لم تنشر من أحمد عرابى ومن البارودى إلى
يعقوب صنوع يحتفظ بها الصديق الكريم الدكتور السيد عطيه أبو النجا)

فى شأن مذكرة الدولتين ، على أن المجلس لم ينعقد لافتراق كلمة النواب بعد اجتماعها وذلك بتأثير رئيسهم سلطان الذى كان يناوئ الحركة الوطنية ، وتدل الدلائل على أنه كان من وراء مذكرة الدولتين . وشأنه مع الاحتلال الإنجليزى بعد ذلك معروف .

إذ ذاك استقال البارودى فى ٢٦ مايو ١٨٨٢ احتجاجاً على قبول الخديوى للتدخل الأجنبى فى شئون البلاد ، ويرى فريق من المؤرخين أن هذه الاستقالة غلطة سياسية من البارودى ، وأنه كان الأولى به والأحرى ألا يستقيل ، بل يصر على عرض الأمر على مجلس النواب وإلا فإن الإقالة خير من الاستقالة ، ومهما يكن من أمر تقدير هذه الخطوة بموازين السياسة فالأمر الواقع أن الوزارة البارودية — وزارة الثورة — قدمت استقالتها فقبلها الخديوى فوراً ، وتشكلت بعدها وزارة راغب باشا التى ظل عرابى فيها وزيراً للحربية .

وبعد قليل وقعت الواقعة ، وهاجمت إنجلترا مصر — بعد أن انفردت بالتصرف دون شريكتها فرنسا — وسقطت الإسكندرية ، ثم صمدت جبهة كفر الدوار ، فانتقل القتال إلى الجبهة الشرقية التى سرعان ما انهارت للأسباب المعروفة ، وبدأت بذلك الصحيفة السوداء للاحتلال الإنجليزى لمصر .

وكان للبارودى دوره كقائد عسكرى فى عمليات الدفاع وبخاصة فى الجبهة الشرقية ، على أن الأمر كان قد خرج من أيدى الوطنيين ، إذ تضافرت عليهم القوة الغاشمة من الخارج والخيانة الغادرة من الداخل فأسلمتا مصر للإنجليز ، ودخل العدو القاهرة فى سبتمبر ١٨٨٢ — بعد

يوم عابدين بسنة واحدة ! !

وجاء بعد ذلك دور المحاكمات التى أقيمت لزعماء الثورة ، بل لجميع رجالها ، وكان موقف البارودى خلال التحقيق والمحاكمة مدعاة لحملة البعض عليه ، حتى لقد قال مؤرخ الحركة القومية الأستاذ الرافعى : إنَّ موقف البارودى فى المحاكمة لا يتفق وشجاعة زعيم الثورة ورئيس وزارتها ، إذ تنصل من التبعات فكان موقفه خذلاناً للثورة والكرامة . على أن هذا القول يبدو لنا شديد القسوة على البارودى ، ولعلَّ حكمنا على أقواله فى التحقيق يكون أكثر تسامحاً إذا ذكرنا أنها أقوال رجل أعزل أمام محكمة يخشى بطشها ولا يعترف بشرعيتها ، وفى مثل هذه الأحوال تعمل خشية البطش على إبراز غريزة المحافظة على النفس ، كما يخمد إنكار الشرعية صوت الضمير الثائر . وليس بغريب فى أحداث التاريخ مثل موقف البارودى فى مثل تلك الظروف حين تحيط بزعماء الثورات الذين قعد بهم الزمن دون غاياتهم ، ومهما يكن من أمر فإن روح البارودى الثائرة ونفسه العالية كانت تبدو بين الحين والحين من خلال ستار الحيطة والحذر الذى ضربه حول نفسه أثناء التحقيق ، فمن ذلك القبيل هذا الحوار الطريف الذى دار بين لجنة التحقيق وبينه :

سئل : هل كنت تستحسن ترقية (الضباط الوطنيين) مع كونه فيهم الميرالايات الذين كانوا هجموا على عابدين ؟

فأجاب بسؤال آخر : هل لما تقدمت عرائض رتبهم للحضرة الخديوية استحسنت أم لا ؟

فأعيد عليه السؤال : القصد أنك تفيد عن استحسانك بحسب ضميرك

فكان رده :

– لا لزوم للاستفهام عن الضمائر .

وتلح عليه اللجنة قائلة – لزوم ذلك هو لأجل أن يعلم المجلس سيرك وضمائرك .

فيجيب فى إباء وشمم :

– أنا فى مصر من مدة ولست حادث الوجود فيها وسيرى واستقامتى معلومان !

وفى موضع آخر تسأله لجنة التحقيق هذا السؤال الغريب :

« حيث علم لك أن الخديوى قبل اللائحة (أى مذكرة الدولتين) فلماذا لم تجمع النظار وتقبلوها أنتم أيضاً ؟ »

فيجيب : « كل إنسان حر فى أفكاره فإنى إن لم أقبلها ما علىّ سوى الاستعفاء ، ومتى تشكلت هيئة أخرى تقبلها » .

وعلى الجملة، فإن فى رأى الرافعى عن موقف البارودى من المحاكمة مغالاة تحمد بميزان الوطنية وإن تكن قاسية بميزان الطبيعة البشرية ، وكأنى بلسان حال البارودى فى هذا الشأن يردد .

أيذهب يوم واحد إن أسأته   بسالف أيامى وحسن بلائيا ؟

وبعد فهذا هو دور البارودى فى الثورة العرابية : كان من بين أقطابها « رجل الدولة » ، وكان من زعمائها بمثابة الرأس المفكر ، وكان فى قمة نجاح الثورة رئيس وزارتها المنفذ لسياستها .

ولقد كانت الثورة بالنسبة إلى البارودى مجالا تحقق فيه نفسه العالية فى دنيا الواقع بعض ما كانت تجيش به روحه الشاعرة من معانى المجد والبطولة فى دنيا الخيال .

مسرحية « محمد »

لڤولتير

كان للفيلسوف الساخر فولتير اهتمام كبير بالتأليف للمسرح ، فقد كتب فى حياته الطويلة نحوا من خمسين مسرحية بين مأساة وملهاة ، ومن بين هذه المسرحيات مأساة تستحق منا اهتماماً خاصاً لأن موضوعها عن نبى الإسلام وعنوانها « محمد » .

كتب فولتير مسرحية « محمد » فيما بين سنتى ١٧٣٩ و ١٧٤١ ، وهى مأساة من خمسة فصول تدور حوادثها فى مكة . واشخاصها لا يتجاوزون ستة هم :

محمد وزبير « الذى يصفه المؤلف بأنه شريف مكة » وعمر « ويصفه فولتير بأنه نائب محمد أو وكيله » و « سعيد » و « بالمير » وهما عبدان ثم « فانور » وهو من شيوخ مكة ويضاف إلى هذه الأشخاص جموع من أهل مكة وجموع من المسلمين .

مثلت مسرحية محمد أول ما مثلت على مسرح مدينة ليل فى أبريل سنة ١٧٤١ ، ولعل فولتير كان يستشعر ما ستثيره مسرحيته تلك من زوابع الانتقاد والمعارضة ، فأراد أن يجرب تمثيلها خارج العاصمة لينتقل بها بعد ذلك إلى باريس . وفى العام التالى أى فى أغسطس سنة ١٧٤٢ انتقلت مسرحية « محمد » بالفعل إلى باريس حيث لم يستمر تمثيلها أكثر من ثلاث ليال ، ثم صودرت ومنع تمثيلها استجابة لرجال الكنيسة ، وعلى

رأسهم الكاردينال دى فليرى ولغيرهم من ذوى النفوذ ممن ثاروا على تلك المسرحية مطالبين بحظر أدائها على المسارح .

وللمرء أن يتساءل : فيم كانت ثورة رجال الكنيسة على مسرحية « محمد » ؟ وهل كان ذلك لأن مؤلفها قد اتخذ مسرحيته تلك وسيلة لتمجيد الإسلام والإشادة بنبيه ؟ الواقع أن قارئ المسرحية يصدمه لأول وهلة التحامل الظاهر على الإسلام ، وعلى النبى الذى يرميه فولتير بالتعصب والجمود وضيق الأفق ، مع ما يتبع تلك النقائص الجوهرية من ذيول أهونها النفاق والغدر والظلم ، والمسرحية فى الحق شنيعة الظاهر فى حق النبي ودينه ، ولعل هذا هو سر إعراض أدبائنا عنها إذ لم يتناولها – فيما نعلم – أحد ممن كتب عن فولتير أو ترجم عنه إلى العربية .

على أن شيئاً من إمعان النظر فى هذه المسرحية على ضوء المعروف من أفكار فولتير الحرة ، وحياته التى كرسها لمناهضة التعصب الدينى الذميم يؤدى بنا إلى الجزم بأن لظاهر مسرحية « محمد » باطناً هو الذى قصد إليه فولتير : ويزداد الأمر وضوحاً إذا أضفنا إلى الدلالة المستمدة من محاربة رجال الكنيسة الكاثوليكية لهذه المسرحية .

إن خصومة فولتير للكنيسة بل مهاجمته للدين المسيحى أمر معروف فى كتاباته ومن سيرته فهو لم يقتصر على الحملة على رجال الدين وتعصبهم فى مؤلفاته وإنما كرس بالفعل حياته وجهوده لمحاربة نفوذ الكنيسة الكاثوليكية المتغلغل فى جميع نواحى الحياة الفرنسية فى عصره ، وليس يغيب عن الأذهان دفاعه عن نجان كولا ، وعن

لابار وغيرهما من ضحايا الاضطهاد الدينى الذى كانت تضطلع به الكنيسة . فقد انتصب فولتير فى هذه القضايا محامياً عن التسامح وعن حرية الفكر ، بما جلب عليه سخط رجال الكنيسة الكاثوليكية .

أما عن كتابات فولتير ضد الكنيسة بوصفها معقل التعصب الدينى الأعمى فلم يبق منها إلا بعضها ، ولم يصل إلينا جانب منها يبدو أنه كان أشد وأقصى مما نشره المؤلف ، أو أبقت عليه الأحداث ومن ذلك مسرحية ألفها فولتير سنة ١٧٢٢ أى وهو فى الثامنة والعشرين بعنوان « رسالة إلى جوليا » ، ولا نعرف اليوم عن هذه المسرحية إلا شهادة الشاعر جان بانست روسو الذى قرأ عليه فولتير المسرحية أثناء إقامتهما فى بروكسيل ، إذ يقول روسو : إن المؤلف قد تناول السيد المسيح فى تلك المسرحية بعبارات يشيب لها الولدان ، وبديهى أن فولتير لم يجرؤ على نشر تلك المسرحية الجريئة بل كتمها فيما كتم من آرائه ومؤلفاته .

هذا وإن « الرسائل الفلسفية » التى أصدرها فولتير سنة ١٧٣٤ صودرت باعتبارها باعثة على التحلل الدينى المنطوى على خطر يهدد النظام الاجتماعى ، وأحرقت السلطات نسخ ذلك الكتاب فى أحد ميادين باريس ، كما حبست ناشره فى الباستيل ، أما المؤلف فقد تمكن حينئذ من الهرب إلى اللورين .

ومؤلف هـذا شأنه ينبغى لنـا أن نستبعد عن مسرحيته « محمد » ظاهرها المريب فهو بحكم حرية فكره لا يعقـل أن يحمل على دين غير دينه تلك الحملات التى يطبعها فى الظاهر طابع التعصب المحض ، ثم هو فوق ذلك متهم عند رجال الكنيسة فى دينه ظنين فى ولائه ،

فلا يعقل أن ينساق وراءهم فى تحقير الإسلام ونبيه إرضاء لإحساس لا يحسه هو نفسه ، وإن أحسه فى نفوسهم رجال الكنيسة لذلك العهد وهو إحساس الكره الذى يبعثه التعصب فى نفوس المتعصبين .

ولو كان مقصود فولتير من مسرحية « محمد » هو معناها الظاهر لكان رجال الكنيسة الكاثوليكية أول من يهلل لها ويكبر ، ومن ثم فحملة رجال الدين على هذه المسرحية هى الدليل الكافى على أن فولتير إنما كان يهاجم فى مسرحية « محمد » الكثلكة لا الإسلام ، ويحمل على رجال الكنيسة الكاثوليكية لا على نبي الإسلام وأصحابه .

وليس غريبا عن الأدب الفرنسى فى تلك الفترة اتخاذ الرموز سبيلاً إلى انتقاد ما لم يكن يسع الكتاب انتقاده صراحة ، وهذه الظاهرة — ظاهرة الاحتماء بالرمز — نجدها فى أكثر من موضع عند فولتير نفسه وعند غير فولتير من كتاب القرن الثامن عشر فى فرنسا .

فنحن نجد مونتسكيو المعاصر لفولتير يصطنع الرموز ، إذ يريد انتقاد الحياة السياسية والاجتماعية لوطنه فيكتب مؤلفه المشهور « رسائل فارسية » فى شكل خطابات متبادلة بين اثنين من كبار الفرس ، تتضمن نقدات لاذعة لسياسة (فارس) ولنظمها الاجتماعية والدينية ، والمؤلف فى كل ذلك إنما يستعير (فارس) لفرنسا ويستتر خلف شخصيتيه الخياليتين ليتمكن من إبداء آرائه فى شئون وطنه وهو آمن من العقاب . وقد ذاع هذا الكتاب عقب صدوره سنة ١٧٢١ أيما ذيوع ، وتلقفه الفرنسيون فى شوق وإعجاب ، إذ لم يخف عليهم أن مونتسكيو إنما يعنى وطنهم وليس يعنى (فارس) ويعالج أدواء فرنسا السياسية والاجتماعية

والدينية تحت ستار الكتابة عن بلد شرقى ربما كان لا يعرف عنه الكثير .

وقد نسج فولتير على هذا المنوال نفسه فكتب فى سنة ١٧٤٧ قصته الشرقية المعروفة « زديج أو القدر » وقد ترجمها إلى العربية الدكتور طه حسين ونشرتها مجلة الكاتب المصرى فى عدد خاص فى أغسطس سنة ١٩٤٧ ولم يفت الأستاذ العميد أن ينوه فى مقدمته لرواية « زديج » بحقيقة مقصود فولتير من روايته تلك فيقول :

« . . وواضح جداً أن فولتير قد اتخذ قصته هذه كلها وسيلة إلى نقد الحياة الأوربية عامة ، والحياة الفرنسية خاصة . واتخذ مدينة بابل رمزاً لمدينة باريس ، وقصر بابل رمزاً لقصر باريس »[1]

ولنا على أساس ما تقدم كله أن نقول : إن فولتير فى مسرحية « محمد » قد اتخذ الإسلام رمزاً للمسيحية ، واتخذ النبى وأصحابه رموزاً لرجال الكنيسة الكاثوليكية ، فوجه إليهم مر الانتقاد ، وحمل عليهم أشد الحملات تحت ستار انتقاد الإسلام والحملة على رجاله .

على أن حقيقة قصد المؤلف لم تخف على رجال الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، فلم يلبثوا أن توصلوا إلى مصادرة المسرحية ومنع تمثيلها كما سبق لنا القول . وإذ ذاك عمد فولتير إلى حيلة بارعة فأهدى مسرحية « محمد » فى سنة ١٧٤٥ إلى البابا بنوا الرابع عشر متملقاً فيه حاسة أدبية لانشك فى أن ذلك البابا لم يكن يتمتع بها ، وقد نجحت الحيلة فقبل البابا بنوا الإهداء ورد على فولتير برسالة يشكره فيها ويبارك جهوده ، ولم يفطن البابا إلى الباطن المستور الذى يخفيه ظاهر مسرحية « محمد » ،

---

(١) الكاتب المصرى مجلد ٦ ص ٣٦٤ .

ولا غرو فهو رجل إيطالى يعيش فى روما ، فلم ينكشف له من مقاصد المؤلف ما انكشف لرجال كنيسة فرنسا الذين كان فولتير يقصدهم قبل غيرهم بالهجوم الخفى الذى تتضمنه مسرحية « محمد » .

وقد لفت هذا الإهداء أنظار مؤرخى فولتير بوصفه عملاً لا يتفق ومواقف فولتير من الكنيسة الكاثوليكية ، ولم يفت أحدهم — وهو جوستاف لانسون — أن يسجل أن إهداء هذه المسرحية إلى رأس الكنيسة الكاثوليكية إنما رمى به فولتير إلى أن يبعد عن الأذهان التفسيرات الجارحة والصحيحة فى واقع الأمر التى تحتملها المسرحية .

وهكذا كان إهداء المسرحية إلى الرئيس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية وقبول البابا بنوا الرابع عشر لهذا الإهداء جواز المرور لمسرحية « محمد » إلى مسارح باريس ، فلم تلبث السلطات الفرنسية أن أعادت النظر فى قرار المنع فأباحت تمثيل المسرحية وابتدأ تمثيلها بالفعل فى باريس منذ سنة ١٧٥١ .

تاریخ

أمير الشرق

كانت تدمر واحة صغيرة معزولة وسط الصحراء السورية ، تنزل بها بعض القبائل العربية ، ولكن موقعها عند تلاقى طرق التجارة العالمية جعل منها عاصمة خطيرة الشأن ، إذ كانت الممر الذى تعبره بضائع الشرق إلى الغرب ، من موانئ الخليج الفارسى إلى الموانئ الفينيقية ، كما كانت أيضًا محط رجال القوافل القادمة من اليمن إلى موانئ الشام ، حاملة منتجات بلاد العرب الجنوبية . وقد برع أهلها فى الاستفادة من مركزها الممتاز ، فلم تلبث مدينتهم أن ازدهرت بما كانت تجبيه من رسوم ، وما كانت تفيده من أرباح الوساطة فى البيع والشراء ، ومن أجور حراسة القوافل ، فتحولت من واحة صغيرة إلى مدينة كبيرة رائعة العمران ، حيرت آثارها من بعد عقول الناس فنسبوا بناءها إلى الجن وإلى سليمان كما قال نابغة بنى ذبيان :

إلا سليمان إذ قال الإله له   قم فى البرية فاحددها عن الفند
وخيِّسْ الجن إنى قد أمرتهمُ   يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وهكذا غدت تدمر عاصمة دولة وقفت على قدميها بين القوتين العالميتين الكبيرتين حينذاك : فارس وروما .

* * *

ذلك أنه فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد امتدت الإمبراطورية

الفارسية شرقاً إلى الفرات ، وبعد ذلك بأقل من قرن زحف الرومان على سورية فضموها إلى إمبراطوريتهم ، وبذلك التقت القوتان العالميتان وجهاً لوجه فى الشرق الأدنى – وكم يعيد التاريخ نفسه !

غير أن تدمر لتطرفها فى الصحراء السورية ظلت بمنجاة من جيوش الفرس ومن فيالق الرومان ، وبقيت متمتعة بما كانت التجارة بين الشرق والغرب تحققه لها من خيرات ، بل حاول التدمريون أن يستفيدوا سياسياً من التنافس الحاد بين فارس وروما ، فلزموا الحياد فى عراك الإمبراطوريتين الكبيرتين ، ساعين إلى تحقيق مصالحهم مع هذه أو تلك على مقتضى الأحوال . .

على أنه كان من العسير على تدمر – فى وضعها الجغرافى وبالنظر إلى ميزان القوى العالمى فى ذلك الحين – أن تظل على حيادها ذاك ما شاءت أن تظل ، وإذ كانت فارس – لقرب عاصمتها ومركز قوتها من تدمر – تمثل فى نظر التدمريين خطراً أكبر ، فقد اختاروا الانحياز إلى جانب روما محتفظين فى الوقت نفسه باستقلالهم الداخلى ، وبذلك طلع العصر المسيحى على الشرق وتدمر داخلة فى دائرة النفوذ الرومانى ، كما دخلت بعد ذلك – فى القرن الرابع الميلادى – دولة عربية أخرى هى الحيرة فى دائرة النفوذ الفارسى ، فأصبحنا نجد فى كتابات مؤرخى الرومان إشارات إلى « عرب الرومان » و « عرب فارس »

* * *

فى هذا الوضع الذى فرضته الظروف على تدمر ، برزت فيها أسرة تولت الحكم والمشيخة جيلاً بعد جيل منذ أواسط القرن الثالث

الميلادى ، وحصلت بفضل تأييدها للرومان على مركز مرموق لدى أباطرة روما ، فمن أفرادها من نال لقب « رأس تدمر » ومنهم من كان عضوا فى مجلس الشيوخ الرومانى ، وإلى هذه الأسرة ينتمى بطلنا « أذينة » ويطلق الإخباريون العرب على أسرته اسم « بنى السميدع » ، ولا يبعد أن يكون هذا الاسم تحويراً للاسم الرومانى الذى اتخذه لأنفسهم هؤلاء الرؤساء التدمريون كمظهر من مظاهر الاصطباغ بالصبغة الرومانية وكان كل منهم يقرنه باسمه العربى ، وذلك الاسم هو « سبتمتيوس » ، فكان منهم : سبتمتيوس خيران ، وسبتمتيوس أذينة صاحبنا الذى كان الرومان يحرفون اسمه إلى « سبتمتيوس أوديناتوس » Septemtius Odenatus وبهذه الصيغة يرد الاسم فى المراجع اللاتينية حتى لتكاد تختفى تحت هذا اللفظ الرومانى عروبة أذينة بن خيران .

* * *

فى خلال حكم أذينة لتدمر اصطدم الرومان بالفرس من جديد فى سنة ٢٦٠ م ، وكانت الدولة الساسانية الفتية قد خلفت فى فارس الدولة الفرثية العجوز ، فالتقت جيوش فارس بقيادة سابور الأول بجيوش روما يقودها الإمبراطور فالريان نفسه عند مدينة « الرها » ، فأوقع الفرس بالرومان هزيمة منكرة وسقط فالريان أسيرًا فى يد عدوه ، اللدود سابور ، وعاثت جيوش فارس فى مدن سورية حتى بلغت أنطاكية فأعملت فيها النهب والقتل ثم قفلت راجعة إلى فارس .

وكأنما أوجس أذينة خيفة من هذه الهزيمة التى نزلت بحليفته روما ، وخشى أن يطيح الفرس المنتصرون بدولته لما كان بينها وبين روما من

وثيق الصلات ، فبعث أذينة برسله إلى إمبراطور فارس الظافر يخطب وده ويعلن رغبته فى محالفته . فلما بلغ رسل أذينة معسكر سابور وطلبوا مقابلته حملته سكرة النصر على رد الرسل على أعقابهم مطرودين ، مظهراً تعجبه من تجاسر شيخ مدينة صحراوية لا قيمة لها ولا وزن على الكتابة إليه وإيفاد الرسل للقائه وهو ملك الملوك وإمبراطور فارس الذى يرسف فى قيود أسرة قيصر روما مهيناً ذليلاً ، يقاد فى أغلاله إذا رغب سابور فى الركوب فيطأ المنتصر هامة أسيره الإمبراطورى حتى يتمكن من اعتلاء فرسه !

* * *

وهنا تظهر عظمة أذينة وتتجلى القوة الكامنة فى شعب عربى صغير لم يشأ أن يذعن للقوة أو يستكين إلى الذل ، فسرعان ما جمع أذينة جنده وحشد معهم القبائل التى حول تدمر ، وضم إلى هؤلاء وأولئك ما كان لديه من فلول جيش فالريان ، وسار على رأس هذه القوات نحو عاصمة فارس قاصداً الانتقام من سابور ، معلناً عزمه على تخليص الإمبراطور الأسير .

والتقى جيش أذينة بجيش سابور قبل أن يعبر الفرس نهر الفرات فى طريق عودتهم إلى عاصمتهم ، فدارت بين الفريقين معركة حامية انكشف غبارها عن هزيمة الجيش الفارسى شر هزيمة ، وعن فرار سابور ومن معه نحو عاصمته ، تاركاً خلفه حريمه وكنوزه ، فغنمها أذينة ، وأسر من جنود سابور من أسر ، على أنه لم يتمكن من إنقاذ فالريان من الأسر ، فقد كتب القدر لذلك الإمبراطور الشقى أن يظل أسير سابور إلى أن مات بعد ذلك فى الأسر ، فسلخ سابور جلده وحشاه ثم علقه فى بعض معابد فارس !

* * *

وتمكن أذينة بعد انتصاره ذاك من أن يحرر الجزيرة الفراتية من الفرس وفتح مدينة نصيبين ، كما فتح حران . وكان يستقبل هو وجيشه فى كل مكان استقبال الأبطال . ولا غرو فقد كانت جيوش روما قد تركت هذه البقاع لقمة سائغة للفرس ، وها هو أذينة يحررها ويطردهم منها ، بل يسير بجيوشه حتى يبلغ أسوار عاصمة فارس طيسفون (المدائن) ويحاصرها وينصب عليها المجانق وآلات الحصار . لولا أن فوجئ بزحف القبائل القوطية القادمة مما وراء البحر الأسود على الأقاليم الشمالية لسورية ، فاضطر إلى ترك الحصار والتوجه لدفع الخطر الجديد .

فلا غرو إذن إن كانت مكافأة أذينة على هذه الانتصارات وعلى احتفاظه للإمبراطورية بأقطار الشرق أن أطلق الإمبراطور يده فى أمور تلك الأقطار ولقبه بأمير الشرق Dux Orientis بل بإمبراطور الشرق كله — Totius Orientis Imperator على قول بعض المؤرخين ، ومهما يكن من شأن لقبه فقد أصبح أذينة شريكاً لإمبراطور روما مطلق اليد فى أمور الأقطار الشرقية . وأصبحت تدمر عاصمة لدولة كبرى لا يشك كثير من المؤرخين فى أنها كانت مستقلة بالفعل برغم مظاهر التبعية الشكلية لروما

* * *

على أن هذا المجد الباهر لم يطل به العهد ، فقد امتدت يد الغدر إلى أذينة فاغتالته سنة ٢٦٧ م وهو بمدينة حمص ، وكان فى أوج سلطانه وقمة عظمته ، ولا يبعد أن يكون لروما يد فى هذا الاغتيال لخشيتها من استفحال

أمر أذينة أو لشكها فى ولائه للإمبراطورية . وهكذا انتهت هذه الحياة العاصفة التى حلق صاحبها فى آفاق المجد كل محلق : من رئيس فى مدينة صحراوية ، إلى ملك على عرش مملكة . إلى أعظم قائد فى أكبر إمبراطورية فى ذلك الزمان ، إلى زميل وشريك للقيصر وعاهل على الشرق .

ومن عجب أن أذينة صاحب هذه الشخصية الفذة لا يحظى من الشهرة بما كان خليقًا أن يحظى به ، فى حين ظفرت زوجته زينب (زنوبيا) بذيوع الذكر وبعد الأحدوثة ، وهى التى تولت شئون تدمر بعد زوجها ، إذ كان ابنه وهب اللات قاصرًا بعد ، ولعل صيت زنوبيا وما ظفرت به من اهتمام القصاص والإخباريين – فضلاً عن عامة الناس – قد خسف إلى حد ما الشهرة التى هى فى الواقع من حق أذينة .

ومهما يكن من أمر فقد انطبعت حياة أذينة الحافلة ومصرعه المفاجئ فى العقليـة العربية انطباعاً بعيد الأثر ، حتى إننا نجد صناجة العرب (الأعشى) – بعد موت أذينة بثلاثة قرون – يذكر تصاريف الزمان وتقلبات القدر ويشير إلى الدهر القاسى . . الدهر الغشوم الذى

أزال أذينـــــة عن ملكـه وأخرج من حصنه ذا يزن

إمبراطور عربىّ على عرش رُومَا

إذا كانت عظمة الأمة العربية قد تبلورت فى الإسلام بعد أن اختارها الله لرسالته ، وبعث من بنيها خاتم رسله إلى الناس كافة — فإن الأمجاد العربية ترجع فى الزمان إلى ما قبل الإسلام بقرون عدة . وما أحرانا فى نهضتنا القومية الحاضرة وما نستهدفه فيها من جمع كلمة العرب أن نراجع تاريخنا لا فى العصر الإسلامى الزاهر فحسب ، وإنما كذلك فيما قبل الإسلام ، وفى ذلك العصر الذى كان اسم (الجاهلية) مدعاة إلى ظن الكثيرين أنه عصر يخلو من كل مجد وعظمة ؛ والحق أنه عصر تجلت فيه عظمة الأقوام العربية فى مظاهر شتى كانت إرهاصات لما يحمله المستقبل للعرب من عزّ وسلطان تحققا لهم فى ظل الإسلام ؛ إذ سيطروا على معظم المعمورة ، وحملوا مشعل الحضارة والتمدين غير منازعين قروناً مديدة .

* * *

وتاريخ العرب الجنوبيين ودولهم الزاهرة قبل الإسلام لم يعد الآن خافياً ، وحضارتهم القديمة وآثارهم الكثيرة — التى يرجع بها بعض الباحثين إلى ألفى سنة قبل الميلاد — أصبحت موضع اهتمام العلماء والمؤرخين . على أن شمالى الجزيرة العربية شهد كذلك دولاً عربية نشأت على حافة الصحراء فى أطراف الجزيرة : إلى الغرب على تخوم سورية ، وإلى

الشرق على تخوم العراق : فكانت دولة الأنباط التى اتخذت عاصمتها سَلْع (بطرة) ، وكانت تدمُر ، ثم كانت مملكة الحيرة ، وإمارة بنى غسَّان التى ظلت قائمة إلى زمن ظهور الإسلام .

وموضوعنا هذا يتناول بطلاً عربياً نجم فى مشارف الشام فى القرن الثالث الميلادى ، وتجاوز أفق آماله الدول العربية المحلية إلى الإمبراطورية التى كانت تبسط سلطانها فى ذلك العصر على تلك الأصقاع ، فانخرط فى سلك جيوشها ، ولم يقنع بدون تسنُّمه عرش روما إمبراطوراً لأعظم إمبراطورية فى ذلك الزمان !

ذلك هو ماركوس جـوليـوس فيـليبوس Marcus Julius Philippus أو « فيليب العربى » كما يسميه المؤرخون . وقد جرى المعتاد فى ظل الإمبراطورية الرومانية على أن يتخذ رعايا – وخاصة من يكون لهم فى الدولة أو فى الحكومة شأن – أسماء لاتينية تختفى تحتها قومياتهم المميزة .

* * *

ولد فيليب حوالى سنة ٢٠٤ ميلادية فى نواحى بصرى بالشام فى محـــلة أنشأ هو فيما بعد مستعمرة فيها سماها فيليبوبوليس ، وتعرف الآن باسم « شهبة » ، وكان أبوه شيخاً من مشايخ العرب بحوران اتخذ اسم جوليوس مارينوس ؛ إذ كانت عائلته قد حصلت على لقب مواطن رومانى من بعض الأباطرة السابقين ، وانضم الشاب فيليب إلى صفوف الجيوش الرومانية ، كما كان يفعل الكثيرون غيره من العرب الذين لعبوا دوراً هاماً فى الجيش الإمبراطورى فى القرنين الثانى والثالث ،

كما كان لهم تأثير كبير فى السياسة الرومانية ، بل إن جيوش الشرق لم يكن لها من الصبغة الرومانية إلا الاسم ، فكانت فى حقيقتها شرقية الطابع ، واحتفظت العناصر المكونة لتلك الجيوش – ومن أهمها العرب – بطابعها القومى البحت طوال العهد الإمبراطورى [١] .

تدرَّج فيليب فى مراكز الجيش الرومانى حتى كان فى زمن حروب جورديان الثالث ضد الفرس أحد قواد الحرس الإمبراطورى أهم فرق الجيش ، وكان الإمبراطور جورديان يتولى شخصياً القيادة العليا للجيش ، غير أنه لحداثة سنِّه كان مطواعاً لحَمِيِّه قائد الحرس الإمبراطورى تيميسثيوس Timesitheus الذى كان يسير سياسته ، ويدبِّر كل أمره ؛ فلما استرد الرومان المدن السورية من أيدى الفرس ، واستعدوا للسير نحو ممتلكات فارس فيما بين النهرين سنة ٢٤٣ – مات تيميسثيوس – ويشك بعض المؤرخين ومنهم جيبون فى أنه مات مسموماً – فخلفه فيليب كقائد للحرس الإمبراطورى ، ووجد وهو فى هذا المنصب الخطير السبيل ممهدة لتحقيق أهدافه البعيدة ومطامعه الكبيرة ؛ ولا غرو ؛ فلقد كان للحرس الإمبراطورى ماض طويل من التدخل فى السياسة

---

(١) انظر الدور الهام الذى كان للجنود العرب فى الجيش الإمبراطورى الرومانى

Cheesman : The Auxilia of the Roman Imperial Army, 1914.

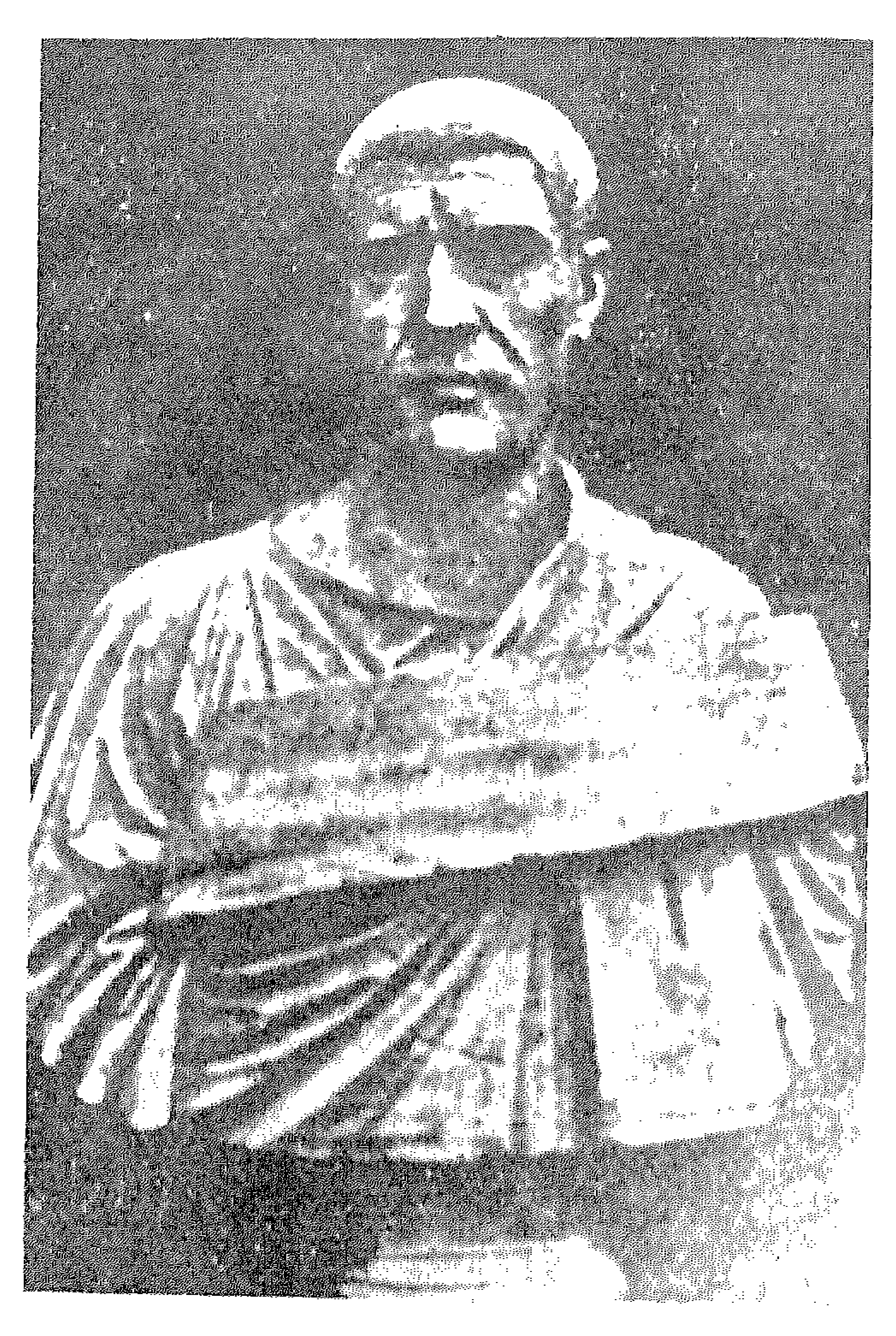
وخصوصاً ص ٨٨ وما بعدها وص ١٤٥ وما بعدها ومقالاً فى مجلة « أرابيكا » المجلد الثالث (سنة ١٩٥٦) ص ١٨١ – ٢١٣ .

Irfan Kawar : The Arabs in the Peace Treaty of A.D. 561, Arabica III (1956) pp. 181-213.

وعزل الأباطرة وتوليتهم منذ الدور الذى لعبه فى تولية الإمبراطور كلوديوس سنة ٤١ ، وتكرر بعد ذلك تدخُّل الحرس الإمبراطورى فى أزمات الحكم ، وساعده على ذلك كونه المنفرد دون سائر فرق الجيش بالإقامة فى العاصمة وما حولها .

وبتعيين فيليب قائداً للحرس أصبحت تلك الأداة الخطيرة طوع بنانه ، فلم يتردد فى استخدامها للوصول إلى غرضه ، وانتهز فرصة قلة المؤن والإمدادات ، فأثار الجنود على الإمبراطور مستغلاً صغر سنه ، وجعلهم يتناقلون بينهم أن المهمة العسيرة التى يضطلعون بها تتطلب قائداً له من الخبرة والحنكة ما ليس للشاب الصغير جورديان ! وما لبث الجند أن حملوا جورديان على إشراك فيليب معه فى السلطة الإمبراطورية ، وسرعان ما وثب الجند بعد ذلك على الإمبراطور فى أثناء الزحف على طيسفون عاصمة فارس ، فقتلوه عند التقاء نهر الفرات برافده (الخابور) ، وكان ذلك فى شهر فبراير أو مارس سنة ٢٤٤ ، ونادوا بفيليب إمبراطوراً على روما .

بادر فيليب بإرسال كتاب إلى مجلس الشيوخ فى روما عزا فيه موت جورديان إلى المرض ، وحيًّا ذكراه ، فلم ير المجلس مناصاً من الاعتراف بفيليب إمبراطوراً ؛ إذ كانت السلطة الفعلية قد انتقلت منذ زمن إلى فيالق الجيش الرومانى ، ولم يعد لمجلس الشيوخ من الأمر شىء فى حقيقة الواقع ، ولم يكد فيليب يظفر باعتراف مجلس الشيوخ حتى عجَّل بإنهاء الحرب مع فارس ، ووقَّع صلحاً مع سابور الأول يعتبره بعض المؤرخين مجحفاً بمصالح الإمبراطورية ؛ إذ أسلم مملكة



تمثال نصفي للامبراطور فيليب (من متحف الفاتيكان)

أرمينيا إلى النفوذ الفارسى بالرغم من احتفاظه للإمبراطورية بممتلكاتها فيما بين النهرين . ومهما يكن من أمر فقد أسرع فيليب بعد إبرام هذا الصلح إلى أنطاكية ، ومنها ركب البحر إلى روما ؛ ليبدأ حكمه الذى دام قرابة ست سنوات .

اختط فيليب العربى سياسة جديدة تخالف سياسة الأباطرة الذين سبقوه إلى الحكم فى ذلك العهد الذى يسميه المؤرخون عهد الملكية العسكرية ؛ إذ عمل على إعادة شىء من سلطان مجلس الشيوخ إليه ، فاكتسب بذلك عطف المجلس وولاءه ، وكان يميل إلى الاعتماد فى حكمه على المجلس والشعب أكثر من اعتماده على فيالق الجيش الإمبراطورى ، واجتهد فى تغيير أسلوب الحكم الإرهابى الذى استنَّه الإمبراطور هادريان ، وبلغ أوجه فى عهدى الإمبراطورين ماكسيمينوس وسبتميوس ، فاكتسب بذلك محبة سكان المدن والأقاليم على السواء ؛ إذ ألغى السخرة ، وخفف من حدة المصادرات التى كانت تتعرض لها أموال الأهلين ، وأصدر أمره بالعفو العام عن المسجونين السياسيين وبعودة من كان منهم منفياً فى أطراف الإمبراطورية ، ولم يعد يعير سمعه إلى الجواسيس والمخبرين الذين كان الأباطرة السابقون يبثونهم فى مختلف الأنحاء . وعلى الجملة فقد حاول فيليب جاهداً أن يحكم حكماً يتسم بالعدل والحرية والنظام ، فكان عهده القصير ردَّ فعل للملكية العسكرية التى كان طابعها الظلم والفوضى وكبت الحريات .

وقد بقيت لنا وثيقة هامة من عهد فيليب تصور تلك السياسة الجديدة ؛ والوثيقة عبارة عن خطبة عنوانها « إلى الإمبراطور » ، ينسبها بعض المؤرخين

إلى الحكيم الأثيني المعروف نيكاجوراس (١) جاء فيها :

« وأما عن عدله فيكفي ما قد ذكرنا ؛ إذ أى إحسان أظهر »
« من ذلك وأعظم ؟ لقد كانت كل المقاطعات راسفة فى أغلال الخوف ، »
« فكان العدد الجم من الجواسيس يجوبون أرجاء المدن لتسقط ما يتحدث »
« به الناس ، وكان من المستحيل أن يفكر المرء أو أن يتحدث فى »
« حرية ؛ حتى لقد زال كل أثر لحرية القول فى أكثر حدودها اعتدالا ، »
« وكان كل إنسان يرتعد فرقاً من ظله ، فجاء (فيليب) ، وخلص »
« النفوس من هذا الرعب ، وأطلق إسارها ، وأعاد لها حريتها كاملة »
« غير منقوصة » .



عملة رومانية من عهد فيليب العربي منقوش
على أحد وجهيها صورته

(١) روستوفزيف ص ٣٩٧ وما بعدها .

ويستطرد كاتب تلك الوثيقة فيقول

« لقد كان كثير من الأباطرة السابقين شجعاناً فى مواجهة العدو ، »
« ولكنهم كانوا خاضعين لسلطان جيوشهم ، أما هو فقد أمسك »
« بيديه قياد الجيش فى سهولة ، وأعاد الجند إلى النظام ؛ حتى لقد »
« رقدت أطماعهم فى اقتضاء أكثر مما كانوا يتقاضون من المبالغ ، وهو »
« ليس بقليل » .

وهكذا تصور الوثيقة سياسة فيليب على النقيض من السياسة التقليدية للملكية العسكرية ، فتقول : إنه لم يكن يضع أدنى ثقة فى الوشاة والجواسيس ، ولم يكن يسلب رعاياه أموالهم بالمصادرات والضرائب الظالمة ، وكان قائداً حكيماً . وأكثر من ذلك كان سياسياً ودبلوماسياً بارعاً ، ولم يكن عبد جنوده ، بل كان سيدهم . وتسبغ عليه الوثيقة فى مواضع متفرقة أوصاف التقى والحكيم والعادل والمحسن ، ومع ما قد يكون فى هذا كله من بعض المبالغة فإنه يصور فى الأقل اتجاه سياسة فيليب وما كان يستهدفه ذلك الإمبراطور العربى من تجديد فى أسلوب الحكم ، وارتفاع بسياسة الدولة عما كانت قد تردّت فيه من المظالم والمفاسد .

* * *

وثمّة وثيقة أخرى من عهد فيليب تبيّن بعض الأوضاع الاجتماعية فى عهده ، وتصور جهوده لإصلاح تلك الأحوال ، وهى عريضة من فلاّحى بعض الأراضى الحكومية فى آسية الصغرى يقولون فيها [1] :

« بينما يحظى سائر الناس فى أيام حكمك السعيدة — يا أكثر »

---

(١) رستوفزيف ص ٤٢٦ .

« الملوك تقى وبركة –بحياة آمنة لا يكدر صفوها مكدر ؛ إذ قد »
« انتهى الفساد ، وانقطع تماماً الاستغلال – مازلنا وحدنا نقاسى »
« من المساوئ ما لا يتفق مع عهدكم السعيد ؛ ولذا نرفع إلى مقامكم »
« هذا الالتماس نحن فلاحو الأباطرة الأقدمين ؛ وبهذه الصفة »
« نلتجئ إلى جلالتكم ؛ فنحن نعانى الظلم وابتزاز الأموال من أولئك »
« الذين واجبهم أن يحموا الشعب . . . . فهؤلاء الرجال من ضباط وجنود »
« وحكام وكذا مندوبوكم التابعون لكم . . . يجيئون إلى قريتنا ويسوقوننا »
« بعيداً عن أعمالنا ، ويستولون على مواشينا التى نستخدمها فى الحرث ، »
« ويبتزون منا ما ليس من حقهم ؛ فنحن نعانى ظلماً واستغلالاً »
« غير عاديين ! » .

هذا وقد كان للزراعة نصيب كبير من اهتمام فيليب . فقد اجتهد فى إعادة زراعة الأراضى الكثيرة التى تركت بوراً سواء من أملاك الدولة أو من غيرها نتيجة للفوضى والظلم وعدم الاستقرار ، وفى سبيل ذلك شجع بيع الأراضى إلى الجنود المسرحين ، وغيرهم بأثمان زهيدة أو اسمية ، وأصدر أوامره بحماية الزارعين وتشجيعهم على الاستمرار فى فلاحة أراضيهم . وهناك وثائق أبقت عليها الأيام من عهد فيليب تثبت جهوده تلك لإحياء الأرض الموات وتشجيع الزراعة فى مصر بالذات ، منها وثيقة مؤرخة سنة ٢٤٦ (مجموعة برديات المتحف البريطانى جـ ٣ ص ١٠٩) هى عقد بيع وردت فيه الإشارة إلى الإعلان الذى أصدره حاكم مصر لتشجيع الإقبال على شراء الأراضى وحماية صغار الملاك تنفيذاً لسياسة الإمبراطور فيليب لا فى مصر وحدها ، بل فى سائر أنحاء الإمبراطورية .

وتجدر الإشارة بهذه المناسبة إلى أن القرن الثالث الميلادى يمثل فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية مرحلة تدهور اقتصادى عام شمل الزراعة والصناعات والتجارة ؛ ومع ذلك فيبدو أن مصر فى القرن الثالث لم تشارك فيما حلَّ بسائر أنحاء الإمبراطورية من ملمات فبالرغم من انتشار الركود فى بعض المراكز الصناعية – كانت مصر أولاً وقبل كل شىء بلداً زراعياً ، وقد احتفظت الأرض بخصبها ولم ينل منها النهب والسلب على أيدى الغزاة البرابرة ، كما حدث فى أنحاء أخرى من الإمبراطورية ، ولم تتأثر مصر كثيراً بضروب المصادرات وابتزاز الأموال التى تصحب تنقلات الجيوش الكثيرة ذهاباً وجيئة ، وكذلك لم ترتفع الضرائب العينية المفروضة على الزارعين . وكان محصول القمح يزيد على حاجة الفلاَّح ، كما كان سعره حسناً . وهكذا على حين يرسم لنا المؤرخون صورة قاتمة للقرن الثالث تسودها الأزمة الاقتصادية والفوضى السياسية وهجمات البرابرة والحروب الأهلية فى آسية الصغرى وفى البلقان وفى غيرها من أرجاء الإمبراطورية الرومانية – نجد مصر تبدو كبقعة مضيئة فى تلك الصورة السوداء ، إذ يسودها نسبياً الرخاء ، ونجد المدن المصرية تقوم بتنفيذ أعمال عامة لا يكاد يكون لها مثيل فى المقاطعات الأخرى حتى فى أكثر أيام الإمبراطورية ازدهارا [١].

كان من جرَّاء السياسة التى سار عليها فيليب أن نعمت الإمبراطورية بهدوء تام فى الداخل لم تعكر من صفوه إلا هجمات البرابرة على حدود الإمبراطورية ، فلم يتردد فيليب فى التوجه بنفسه على رأس الجيش

(١) جونسون ص ١٥٨ .

لرد الغزاة من الجرمان والكاربيين فى سنتى ٢٤٥ و ٢٤٦ ، وتكللت تلك الحملات بالنجاح ، وارتد البرابرة على أعقابهم ، فاستحق فيليب بذلك لقب غازى الجرمان Germanicus Maximus ، وغازى الكاربيين Carpicus Maximus ؛ وعاد إلى روما ليحتفل بتلك الانتصارات .

* * *

وفى ٢١ من أبريل سنة ٢٤٨ حلت الذكرى الألفية لتأسيس مدينة روما ، وهى الحدث البارز الذى يتميز به عهد فيليب العربى ، وقد احتفل فيليب بتلك المناسبة العظيمة احتفالاً جديراً بأهميتها التاريخية الكبرى ، ومازالت عظمة الاحتفالات التى أمر بها فيليب تتجلى لنا من خلال السطور فى كتابات المؤرخين الأقدمين ، وكان من أهم مظاهر تلك الاحتفالات إحياء الألعاب الرياضية الكبرى التى كانت قد جرت عادة الرومان بإحيائها كل مائة عام ، وكان لتلك الألعاب شأن عظيم لدى الرومان لأهميتها ولتطاول الفترة بين دوراتها ، بحيث كان الأكثرون لا تتاح لهم فى حياتهم مشاهدتها ، وكان من يشهدها فى حياته مرة يُعتبر حسن الحظ ، وقلَّ بل ندر من الناس من كان يشهدها أكثر من مرة ؛ لأن ذلك كان يقتضى أن يمتد به العمر أكثر من قرن .

وامتاز عهد فيليب بالتسامح الشديد نحو المسيحيين على خلاف ما كانت تجرى عليه سياسة الأباطرة السابقين ، وعلى الضد كذلك مما أعقب عهد فيليب مباشرة من الاضطهاد الشديد للمسيحيين ، أما فى عهد فيليب فقد ترك أتباع الدين الجديد وشأنهم ، بل كان يباح لهم الوعظ والدعوة إلى دينهم علناً ، وقد حدا هذا التسامح البين ببعض مؤرخى الديانة المسيحية

إلى القول بأن فيليب كان مسيحيًّا فى الباطن ، وأنه لذلك يعتبر أول الأباطرة المسيحيين ؛ وبالرغم من أنه قد كُتبت فى إثبات مسيحية فيليب كتب برمَّتها لم تثبت هذه الواقعة تاريخيًّا ، وفيما خلا تسامحه مع المسيحيين كان فيليب يتبع الدين الرسمى للدولة الرومانية .

وقد أصدر فيليب أمره بتأليه أبيه على نحو ما كانت تجرى به العادة فى روما من رفع بعض الناس إلى مرتبة الآلهة ، كما أشرك ابنه الطفل معه فى السلطان ، ومنحه لقب قنصل ، واستخدم أخاه المسمى بوليوس بريسكوس حاكماً على ما بين النهرين ، ثم حاكماً على المقاطعات الشرقية كلها Rector Orientis ، ثم قائداً للحرس الإمبراطورى ؛ وقد دعا هذا كله إلى الظن بأن فيليب العربى كان يسعى إلى إنشاء أسرة مالكة يتوارث أفرادها عرش الإمبراطورية . ومهما يكن من أمر صحة هذا الظن فقد أعجلت الأيام فيليب عن ذلك كله ، وأطاحت الأحداث به وبابنه فى فورة من تلك الفورات التى اتَّسم بها تاريخ الإمبراطورية الرومانية لذلك العهد .

ذلك أن أخذ الجنود بالشدة ، وإعادة النظام إلى صفوف الجيش فضلاً عن محاولة إرجاعه سلطات مجلس الشيوخ إليه والاعتماد فى الحكم على الجماهير الشعبية دون فيالق الجيش — هذا كله — كان له ولا شك أثره فى ولاء الجند للإمبراطور وشعورهم له ، وهم الذين استمرءوا على مر السنين عزل الأباطرة وتوليتهم ، واعتادوا الفوضى والثورات ، ولم يعد بعيداً على أهوائهم — كما يقول المؤرخ جيبون — رفع أصغر الجنود وأقلهم شأناً إلى العرش ؛ فبدأت الاضطرابات فى صفوف الفيالق الرومانية

المعسكرة فى أنحاء مختلفة من الإمبراطورية ، ونودى بثلاثة من الأدعياء أباطرة ، كلٌّ منهم يؤيده قسم من أقسام الجيش فى جهة من الجهات .

بدأت هذه الحركة عندما تمردت الفيالق المعسكرة فى الدانوب مستعينة بقبائل القوط ، ونادت بضابط صغير هو طباريوس كلاوديوس مارينوس إمبراطوراً ، وما إن بلغ النبأ مسامع فيليب حتى فكر فى اعتزال العرش حقناً للدماء ، وتجنباً للفوضى التى تمزق أوصال الإمبراطورية ، وأبلغ الأمر مجلس الشيوخ الذى ساده الوجوم ، وران عليه الصمت لدى سماع ما قاله الإمبراطور إلى أن وقف أحد الشيوخ وهو ديقيوس ، فخاطب المجتمعين فى هدوء واتزان منددا بالدعى مارينوس واصفاً تلك الحركة بأنها اضطراب عابر جدير بالاحتقار ومستحق للقمع ، وأضاف إلى ذلك أن مارينوس سوف تقضى عليه الفتنة التى أوجدته . وسرعان ما تحققت هذه التكهنات ؛ فإن جيوش الدانوب التى نادت بمارينوس إمبراطوراً بالأمس أودت به الغداة ، فكان من أثر ذلك أن أعجب فيليب بحكمة ديقيوس وبُعد نظره ، ورأى فيه الرجل الوحيد الذى يعتمد عليه فى إعادة النظام إلى صفوف جيوش الدانوب المضطربة ، فعيَّنه قائداً لها ، وبعثه إليها بالرغم مما يقال من تردُّد ديقيوس فى قبول هذه المهمة ونصيحته للإمبراطور بألا يمنح الجنود المتمردين قائداً ماهراً ! .

وقد صحَّت تلك المخاوف التى ساورت نفس ديقيوس ؛ إذ أنه بالرغم من نجاحه فى حمل قبائل القوط على الارتداد قد اضطر — بضغط الجنود فى فيالق الدانوب — إلى قبول المناداة به إمبراطوراً ، ويقال : إنهم خيروه بين القتل والعرش ؛ فرأى أن يستجيب لهم ، وبعث فى

الوقت نفسه كتاباً إلى فيليب يطمئنه فيه ، ويؤكد له ولاءه وترقبه أول فرصة تسنح للنزول عن المنصب الإمبراطورى الذى اضطره إليه الجنود الثائرون ، غير أن فيليب لم يركن إلى ما جاء فى الكتاب ، ورأى الخطر محدقاً به ، فعمد إلى حشد جيش كبير لملاقاة فيالق الدانوب العاصية وعلى رأسها ديقيوس ، فكان اللقاء بينهما قرب فيرونا فى شمالى إيطاليا فى شهر سبتمبر أو أكتوبر سنة ٢٤٩ ، ودارت رحى معركة سقط فيها فيليب قتيلاً ، وانهزم جيشه ، وما كاد الخبر يصل إلى رومة حتى بادر رجال الحرس الإمبراطورى بقتل ابن فيليب الطفل منضمين إلى الإمبراطور الجديد ديقيوس .

وهكذا انتهت تلك الحياة العجيبة التى ارتفعت بعربى من أبناء الصحراء السورية إلى عرش أعظم إمبراطوريات العالم فى سلسلة سريعة من الأحداث التى إن تكن من طابع العهد فإن نصيب الجرأة والمواهب فيها ليس بقليل .

* * *

أهم المراجع :

Enciclopedia Italiana Vo. Filippo.

Rostovtzeff : The Social and Economic History of the Roman Empire, 1926.

Cheesman : The Auxilia of the Roman Imperial Army, 1914.

Gibbon : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, Vol. I.

Johnson : Roman Egypt in the Third Century, in "The Journal of Juristic Papyrology" (Warsaw), Vol. IV. (1950), pp. 151—158.

Kawar : The Arabs in the Peace Treaty of A.D. 561, in "Arabica", Vol. III (1956) pp. 181—213.

الأهرام . .
فى كتب المؤرخين العرب
وحلّ رموز الهيروغليفية

شغلت أهرام الجيزة أذهان الناس ، واستأثرت باهتمام العلماء والباحثين جيلاً بعد جيل منذ بنائها حتى اليوم ، على وجه يبعد أن يكون قد حظى به أثر آخر من آثار حضارة الإنسان على الأرض . ولا غرو فالأهرام فى ضخامتها وروعتها وفى شكلها الفريد وهندستها العجيبة جديرة بكل ذلك الاهتمام ، كما أن قربها من عواصم مصر المتتالية على مر القرون جعلها قبلة كل زائر للبلاد ولو كان عابر سبيل ، فطبقت بذلك شهرتها الآفاق ، وأصبحت عند الجميع أولى عجائب الدنيا السبع .

ومن الطريف المفيد أن نرجع إلى ما أوردته كتب المؤرخين والرحالة العرب الأوائل عن أهرام الجيزة ، تلك الآثار الخالدة التى لم يفت أحد ممن كتبوا عن مصر أن يتناولها .

ولما كان علم الآثار بشكله الحديث مجهولاً لدى القدماء كانت كتاباتهم عن الأهرام تقتصر على وصفها وسرد بعض ما يتناقله الناس عن أخبار بناتها ، والغرض من إنشائها ، وهى أخبار تختلط فيها الأسطورة بالتاريخ . على أن لوصف قدامى مؤرخى العرب للأهرام قيمة تاريخية كبرى

فى التعريف بما كانت عليه الأهرام فى عهودهم ، وما طرأ عليها من تغييرات بحكم الزمن وفعل عوامل التعرية .

ولعل أقدم ما وصل إلينا من كتابات قدامى المؤرخين عن الأهرام ما أورده أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الأندلسى ، الذى أقام فى مصر من سنة ٤٨٩ إلى سنة ٥٠٦ هجرية . فقد كتب « الرسالة المصرية » فى وصف رحلته إلى مصر وإقامته فيها : وكان مما قاله عن الهرم إنه : جسم جسيم من أعظم الحجارة ، مربع القاعدة ، مخروط الشكل ، ارتفاع عموده ثلثمائة ذراع ، ونحو سبعة عشر ذراعاً ، يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع ، طول كل منها أربعمائة ذراع وستون ذراعاً ، وهو مع هذا العظم من إحكام الصنعة وإتقانها فى غاية من حسن التقدير بحيث لم يتأثر بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل ، وهذه صفة كل واحد من الهرمين الكبيرين المحاذيين للفسطاط على ما شاهدناه منهما » ويستطرد فيصف الأهرام وصف شاهد عيان يعطينا صورة دقيقة عن عصره فيقول :

« واتفق أن خرجنا يوماً إليهما فلما طفنا بهما واستدرنا حولهما كثر تعجبنا منهما . . »

« ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطة من أعلاها إلى أسفلها بسطور متضايقة متوازية من كتابة بانيها ، لا تعرف اليوم أحرفها ، ولا تفهم معانيها » .

وفى هذه الرواية ما يؤيد الرأى القائل بأن أهرام الجيزة كانت فى الأصل مغطاة بطبقة من الجص الأملس عليها كتابات هيروغليفية

وقد أتت الأيام على هذه الطبقة الخارجة التى يدل على وجودها كذلك قول الشاعر القديم :

حسرت عقول أولى النهى الأهرام
واستصغرت لعظيمها الأجرام
ملس موثقة البناء شواهق
قصرت لعال دونهن سهام

فقوله « ملس » دليل على بقاء كسائها الخارجى لعصر هذا الشاعر ، وقد زالت هذه الطبقة الآن بحيث لا يسوغ لواصف اليوم أن يصف أهرام الجيزة بأنها ملس .

هذا ويبدو أن الهرم الأصغر « هرم منقرع » كانت طبقته الخارجية ملونة بالأصباغ المختلفة ، إذ نجد جلال الدين السيوطى فى « حسن المحاضرة » يتكلم عن الهرمين الكبيرين « والهرم الصغير الملون » فى أكثر من موضع من الفصل الذى عقده عن الأهرام فى الجزء الأول من كتابه . وهذا التلوين كان ملحوظاً فى أبى الهول كذلك ، إذ يقول السيوطى فى وصفه إنه : «صنم بقرب الهرم الكبير فى وهدة « منخفضة ، وعنقه أشبه شىء برأس راهب حبشى على وجهه صباغ أحمر ، لم يحل على طول الأزمان » فإذا ذكرنا أن السيوطى من أبناء القرن العاشر الهجرى « السادس عشر الميلادى » علمنا أن نصول ألوان أبى الهول والهرم الثالث إنما كان فى عهد قريب نسبياً .

ومن خلط فى كتابته عن الأهرام الحقائق بالأساطير السبط ابن الجوزى صاحب كتاب « مرآة الزمان » إذ يقول :

« إن لكل هرم روحانياً موكلاً به ، وإن الروحانى الموكل بالهرم البحرى فى صفة امرأة عريانة ولها ذوائب إلى الأرض ، وقد رآها جماعة تدور حول الهرم فى وقت القيلولة والموكل بالهرم الذى بجانبه فى صورة غلام أصغر أمرد عريان ، وقد رؤى بعد الغروب يدور حول الهرم ، والموكل بالثالث فى صورة شيخ فى يده مبخرة وعليه ثياب الرهبان ، وقد رؤى يدور ليلاً حول الهرم » .

على أن المؤرخين القدماء لم يفتهم أن يحدسوا حقيقة المقصود ببناء الأهرام فنجد السيوطى يقول :

« والظاهر أنها قبور ملوك الأوائل وعليها أسماؤهم وأسرار الفلك والسحر » .

كما قال من قبله أبو الصلت :

« وزعم قوم أن الأهرام قبور ملوك عظام آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك فى مماتهم كما تميزوا عنهم فى حياتهم » .

وقال مثل ذلك جمال الدين أبو جعفر الإدريسى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ وهو الوحيد الذى نعرفه ألف عن الأهرام مؤلفاً خاصاً هو رسالة صغيرة الحجم ، جمة الفائدة ، عنوانها : « أنوار علو الأجرام فى الكشف عن أسرار الأهرام » ألفها للملك الكامل محمد الأيوبى .

وكان طبيعياً . وقد لفتت الأهرام أنظار القوم بعجائبها واستهوتهم بأسرارها أن يحاول ذوو القدرة منهم الولوج إلى داخلها ؛ ولعل من أوائل من فعل ذلك الخليفة العباسى المأمون فى زيارته لمصر سنة ٢١٧ هـ ، إذ نجد فى « الرسالة المصرية » وفى « حسن المحاضرة » وفى « أنوار علو

الأجرام » وغيرها من المصادر أن ذلك الخليفة أمر بنقب الهرم الكبير ، وأنهم دخلوه بعد جهد شديد وعناء طويل فوجدوا داخله مهاوى ومراقى يهول أمرها ، ويعسر السلوك فيها ، ووجدوا فى أعلاها بيتاً مكعباً طول كل ضلع من أضلاعه نحواً من ثمانية أذرع ، وفى وسطه حوض رخام مطبق ، فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير رمَّة بالية . يقول صاحب الرسالة المصرية : « فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب ما سواه ويقال إن النفقة على نقبه كانت عظيمة والمؤنة شديدة » . فهل كانت تلك الرمَّة البالية مومياء الملك خوفو ؟ وترى ما كان مصيرها ؟

ومن طريف ما نجده فى كتاب الإدريسى أن المأمون عندما زار الأهرام ورأى ما عليها من نقوش وكتابات رغب فى ترجمتها « فلم يجد مترجماً يترجم له عنها ، ويعرب عن معجم ما استعجم منها غير أيوب ابن سلمة ؛ وهو شيخ من شيوخ المصريين ، دلت المأمون الحكماء عليه ، وأشاروا بأجمعهم إليه فى معرفة حلِّ أشكال حروف الأقلام البرباوية (وهو الاسم الذى يطلقه قدامى المؤرخين على القلم الهيروغليفى) فترجم للمأمون ما كان على الهرمين وعمودى عين شمس ، وما كان على حجارة كانت بمدينة منف وببوصير وبسمنود ، وجميع ما ترجمه من ذلك فى الكتاب المعروف بكتاب الطلسمات الكاهنية » .

ولئن صحت رواية الإدريسى فإن معناها أن الحروف الهيروغليفية كانت مقروءة ولو لواحد من العلماء إلى عصر المأمون ، وأنها لم تستعجم على جميع الناس إلا بعد ذلك ، إلى أن حل رموزها من جديد شمبليون فى العصر الحديث . ولئن صحت روايته كذلك لكان ضياع كتاب

« الطلسمات الكاهنية » خسارة لعلم الآثار لا تعوض .

ولقد اقترن اسم شمبليون فى أذهان الناس بحجر رشيد ، واحتكر فى اعتقاد الجمهور فضل حل طلاسم الخط الهيروغليفى ، وبلغ ذلك عند الكثيرين مبلغ اليقين .

وإذا طرحنا جانباً أقوال قدامى مؤرخى العرب التى تقع على الحد الفاصل بين الأسطورة والتاريخ ، وقصرنا بحثنا على العصر الحديث بعد اكتشاف حجر رشيد ، تعين أن نذكر أن شمبليون المولود سنة ١٧٩٠ كان عند كشف ذلك الحجر سنة ١٧٩٩ فى التاسعة من عمره ، وأن العلماء لم يقفوا أمام ذلك الكشف مكتوفى الأيدى إلى أن شب شمبليون عن الطوق ، بل بذلوا الجهود بذلك السبيل التى بلغ غايتها شمبليون بعد كشف حجر رشيد بأكثر من عشرين عاماً .

احتفظت الحكومة الفرنسية بنسخ عديدة من نقوش الحجر الذى اضطرت لتسليمه إلى الإنجليز عند رحيل الحملة الفرنسية عن مصر ، وسرعان ما نشرت الحكومة الفرنسية الدعوة فى أوساط العلماء إلى حل رموز النقوش الواردة فى ذلك الحجر ، وتلقى المستشرق المشهور سلفستر دى ساسى سنة ١٨٠٢ تكليفاً من وزير الداخلية شابتال — بأمر القنصل الأول بونابرت — بدراسة الحجر ومحاولة فك طلاسمه فعكف دى ساسى على ذلك ولكنه لم يصل إلى نتيجة تذكر ، فكتب إلى وزير الداخلية يقول : « إن شخصاً أكثر منى إلماماً باللغة القبطية قد يكون أقدر على المضى فى هذه الأبحاث إلى غايتها » ونشرت الصحف هذا الخطاب فتلقف المهمة العالم السويدى المستشرق آكر بلاد الذى

كان يعمل فى باريس أستاذاً بمعهد اللغات الشرقية ، وبعد شهرين من المقارنة الدقيقة بين النصين اليونانى والديموطيقى توصل إلى قراءة أسماء الأعلام وبضع كلمات من بينها « يونان » و « معابـد » وكذا بعض الضمائر ، كما توصل إلى أبجدية تكاد تكون كاملة ، ونشر نتيجة أبحاثه سنة ١٨٠٢ فى صورة خطاب إلى مسيو دى ساسى .

ويقول السير آلان جاردينر أستاذ اللغة المصرية المعروف ومؤلف كتاب « الأجرومية المصرية » : إن خطاب آكربلاد إلى دى ساسى هو « أول وأهم خطوة فى سبيل الهدف الذى وصل إليه شمبليون بعد ذلك بعشرين سنة » (كتاب الأجرومية المصرية ص ١٢ طبعة ١٩٥٠) كما أن شمبليون نفسه قد نوه بجهود آكر بلاد فى مقدمة أول كتاب له وهو المعنون « مصر تحت حكم الفراعنة » المطبوع سنة ١٨١١ أى قبل وصول شمبليون إلى النتائج النهائية فى حل رموز حجر رشيد تلك النتائج التى لم تنشر إلا سنة ١٨٢٢ .

اسم آكر بلاد السويدى هو إذن أول اسم ينبغى أن يذكر إذا ذكر حجر رشيد . وثمة اسم آخر سبق صاحبه شمبليون إلى محاولة حل رموز الهيروغليفية وقطع فى ذلك السبيل خطوات وهو عالم الطبيعيات توماس يونج الذى لم يمنعه تخصصه وشهرته فى البصريات من الاهتمام باللغات القديمة ، فقد تمكن من الحصول على نسخة من نقوش حجر رشيد سنة ١٨١٤ وتنبه إلى حقيقة هامة غفل عنها آكربلاد فتعذر عليه لذلك المضى فى حل رموز النص الهيروغليفى إلى النهاية ، تلك الحقيقة هى أن الكتابة الديموطيقية ليست كلها أبجدية ،

بل تشمل رموزاً لا يمكن أن تكون حروف هجاء . ومن ثم تنبه يونج إلى الصلة الوثيقة بين الكتابتين الديموطيقية والهيروغليفية .

وإلى جانب عمله فى قراءة النص الهيروغليفى فى حجر رشيد قام يونج بقراءة كتابات هيروغليفية أخرى ، منها خراطيش تحوى أسماء بعض ملوك مصر القدامى كانت على المسلات التى نقلت إلى إنجلترا ، ومنها فقرات من أوراق البردى التى تكون ما يعرف بكتاب الموتى . وتضمنت نتائج هذه الأبحاث المقالة التى كتبها يونج عن مصر لدائرة المعارف البريطانية سنة ١٨١٨ ، أى قبل نشر نتيجة بحوث شمبليون بسنوات ، وقد خلط يونج فى نتائجه الصواب بالخطأ ، غير أن منهجه فى البحث كان سليماً ، وهو المنهج الذى أدى فى النهاية إلى ما وصل إليه شمبليون من حل رموز الخط الهيروغليفى كلها .

فإذا كان شمبليون قد قطع آخر خطوات هذا الطريق الشاق واشتهر من أجل ذلك بأنه أول من قرأ الكتابة الهيروغليفية فإنما يصح ذلك على التقريب لا على التحديد ، إذ أن من حق من مهدوا له هذا الطريق أن يكون لهم من ذلك الفضل نصيب .

البيرُونى
ومكانته فى تاريخ العلم

علوم العرب فى عصرهم الذهبى هى حلقة الوصل بين مدنيات العالم القديم والمدنية الحديثة التى بدأت بالنهضة الأوربية فى القـرن الخامس عشر الميلادى ، تلك النهضة التى أشعل جذوتها احتكاك الأوربيين بالعرب وأخْذهم عنهم علومهم ومعارفهم ؛ ومن ثم كان للعلوم العربية — أعنى مختلف العلوم التى حمل العرب مشعلها فى إبَّـان نهضتهم العظمى — أهمية كبيرة فى دراسة تاريخ العلم ، وكان من غير المتيسر إدراك الصورة الصحيحة لما قطعه العلم الحديث من مراحل وما وصل إليه من نتائج دون الإلمام بتاريخ علوم العرب وما حققوه على عهدهم من كشوف فى ميادين العلم المتنوعة ؛ إذ بغير ذلك تنفرج بين علوم القدماء والعلم الحديث ثغرة يتعذر على العقل أن يصل بين جانبيها . وإذا آثرنا التواضع فلم نذهب مع كاتب غربى مثل بريفو إلى أن « العلم الغربى الحديث يدين بوجوده للحضارة العربية »(1) فإن علوم العرب هى — فى القليل — أساس من أهم الأسس التى يقوم عليها العلم الحديث .

وإذ كانت هذه هى أهمية العلوم العربية فى تاريخ العلم فإن العقول

(1) Briffault : The Making of Humanity, London 1919 p. 191.

الكبيرة التى رفعت راية تلك العلوم لها فى تاريخ العلم مكانة مرموقة أصبحت أسماؤهم بفضلها كالصُّوَى فى الدرب الطويل ، أو كالدرارى فى السماء المظلمة . ومن أضوء تلك النجوم اللامعة فى سماء العلوم العربية — البيرونى .

* * *

ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى ضواحى خُوارِزْم فى شهر ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ (سبتمبر سنة ٩٧٣ م) وتدلُّ نسبته على أنه من ضواحى خوارزم لا من المدينة نفسها ؛ لأن « بيرون » بالفارسية تعنى الضاحية . وقد وهم ابن أبى أصيبعة حين ترجم للبيرونى فى « عيون الأنباء » (جـ ٢ ص ٢٠) إذ قال :

« هو الأستاذ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى منسوب إلى بيرون وهى مدينة بالسند »[١] .

والواقع خلاف ذلك ؛ إذ لم يكن أبو الريحان سنديًّا ، كما لا تُعرف مدينة فى السند تسمى بيرون . وفى تفسير نسبة أبى الريحان يقول ياقوت :

« وهذه النسبة [البيرونى] معناها البرانى ؛ لأن بيرون بالفارسية معناه « برا » . وسألت بعض الفضلاء عن ذلك فزعم أن مقامه بخوارزم كان قليلاً ، وأهل خوارزم يسمون الغريب بهذا الاسم ، كأنه لما طالت غربته عنهم صار غريباً . وما أظنه يراد به إلا أنه من أهل الرستاق »[٢] .

(١) وتابعه فى ذلك الأستاذ أحمد أمين (ظهر الإسلام ١ / ٢٨٧)

(٢) الرستاق — السواد والقرى المحيطة بالمدينة .

وحين بلغ أبو الريحان العشرين من عمره كان قد عبَّ من بحر العلوم وتفتَّح عقله على شتى مجالاتها ، فرحل إلى جرجان ، والتحق ببلاط أميرها قابوس بن وشمكير الملقب بشمس المعالى ، وكان بلاطه فى تلك الحقبة يحفل بالعلماء الأعلام ، ومنهم ابن سينا الذى اتصل بينه وبين أبى الريحان منذ ذلك الوقت حبل الودِّ والتعاون فى العلم . وفى بلاط جرجان كتب البيرونى كتابه المعنون « الآثار الباقية من القرون الخالية » . وأهداه إلى شمس المعالى . وهو كتاب يبحث – أكثر ما يبحث – فى تقاويم الأمم القديمة وأعيادها ومواسمها ومقارنة ذلك بما كان على عهد المؤلف ، وتتخلل هذا كله بحوث كثيرة فلكية ورياضية وطبيعية .

وحوالى سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) عاد أبو الريحان إلى مسقط رأسه فى خوارزم ، فاستخلصه لنفسه أميرها أبو العباس المأمون بن محمد خُوَارِزمَشَاه ، وأصبحت له عند هذا الأمير الحظوة التى ما بعدها حظوة والقدر الذى لا يدانيه قدر ؛ إذ عرف الأمير للعالم مكانته من العلم ، فاتخذه مستشاراً له ، وأسكنه معه فى قصره ، وكان يبدى له من مظاهر الاحترام والتقدير ما لا مزيد عليه :

يروى ياقوت عن محمد بن محمود النيسابورى « أن خوارزمشاه دخل قصره يوماً وكان يشرب على دابّته ، فأمر باستدعاء أبى الريحان من حجرته ، ولما أبطأ عليه قليلاً تصور خوارزمشاه الأمر على غير صورته ، فثنى عنان فرسه نحو حجرة أبى الريحان ، ورام النزول ، فسبقه أبو الريحان إلى الخروج ، وناشده الله ألا يفعل ، فتمثل خوارزمشاه :

العلم من أشرف الـولايات
يأتيه كلٌّ الورى ولا ياتى

ثم قال : لولا الرسوم الدنياوية ما استدعيتك ، فالعلم يعلو ولا يعلى [١] » .

* * *

على أن أيام أبى الريحان فى بلاط خوارزم لم تدم ؛ فسرعان ما اضطربت فيها الأمور ، وقتل خوارزمشاه ، وسادت بعده فوضى مكنت سلطان غزْنة محمود بن سبكتكين من الاستيلاء على خوارزم ، فكان أبو الريحان فى جملة الأسرى هو وآخرون من العلماء الذين اتهمهم السلطان محمود – على عادته من التشدد فى الدين – بالكفر والزندقة ، وأعمل فى بعضهم السيف ، وكاد أبو الريحان يهلك فى غمرة تلك الأحداث لولا أن أسعف العلم – سببٌ خلّصه من القتل ؛ إذ قال بعض مرافقى السلطان : هذا إمام وقته فى علم النجوم ، وإن الملوك لا يستغنون عن مثله ؛ فأبقى عليه محمود ، وأخذه معه إلى بلاده [٢] .
ودخل أبو الريحان الهند مع السلطان محمود فى فتوحه المظفرة فى تلك البلاد التى استمرت إلى سنة ١٠٢٤ م ، واستحق من أجلها لقب « الغازى » ، ولعله أول من لُقب بذلك فى الإسلام .

وطالت إقامة البيرونى فى بلاط غزنة مع محمود وخلفائه ، وكانت

---

(١) معجم الأدباء ١٧ / ١٨٢ – ١٨٣ .

(٢) ينقل الأستاذ أحمد أمين (ظهر الإسلام ١ – ٢٨٦) رواية أخرى عن سبب انتقال البيرونى من بلاط خوارزم إلى بلاط غزنة ، فلتراجع .

هذه الفترة أبرز فترات نشاطه العلمى وأحفلها بالإنتاج الغزير . ويبدو أن أبا الريحان بعد أن رجع إلى غزنة من الهند لم يغادر تلك المدينة منقطعاً إلى الدرس والبحث والتجربة والتأليف إلى أن توفاه الله فى الثالث من رجب سنة ٤٤٠ هـ (١٣ من ديسمبر سنة ١٠٤٨ م)(١) .

* * *

ولعل الطابع المميز لأبى الريحان بين العلماء العرب هو تنوُّع اهتماماته العلمية ، واتساع آفاق دراساته مع الإتقان التام – بل التقدم والتبريز فى كل باب يطرقه من أبواب العلوم المختلفة ؛ فلقد كان البيرونى طبيباً ، فلكيًّا ، رياضيًّا ، جغرافيًّا ، مؤرخاً ، وعالماً بالطبيعيات ؛ وكانت له اليد الطولى فى كل علم من هذه العلوم مع مشاركة فى الفلسفة والعلوم اللغوية والأدب والشعر والفقه . ولئن كانت سعة الأفق طابع الكثيرين من علماء العرب فى عصرهم الذهبى ، لقد بزَّهم البيرونىّ

---

(١) هذا هو تاريخ وفاة البيرونى المتعارف عليه بين مؤرخى العلم ، غير أن المستشرق ماكس مايرهوف لاحظ – بحق – أن البيرونى لا يمكن أن يكون قد مات قبل سنة ١٠٥٠ م ، أى سنة ٤٤٢ هـ ، لأنه يقول فى مقدمة كتاب : « الصيدنة فى الطب » إنه نيف على الثمانين سنة (هجرية) ؛ فإذا صح ميلاده فى سنة ٣٦٢ هـ تعين أن يكون على قيد الحياة فى سنة ٤٤٢ هـ ، وتكون وفاته فى تلك السنة أو بعدها . (انظر مجلة المجمع العلمى المصرى سنة ١٩٤٠ ص ١٣٨) . هذا ويسوق المستعرب السوفييتى كريموف أدلة أخرى على أن وفاة البيرونى كانت فى سنة ١٠٤٨ م لا سنة ١٠٥٠ م وذلك فى مقال له بعنوان « حول تاريخ وفاة البيرونى » فى مجلة « العلوم الاجتماعية فى أزبكستان » العدد ٨ لسنة ١٩٧٠ (بالروسية) ، وهكذا يستمر الخلاف حول تحديد السنة التى توفى فيها البيرونى .

جميعاً فى هذه الناحية ، لا من حيث تعدد فنون العلم التى تناولها فقط ، بل كذلك من حيث مساهمته مساهمة بناءة فى تقدم كل علم من تلك العلوم وتطوره على وجه لا يتأتى إلا لعالم فذ ، وأستاذ راسخ القدم .

كما امتاز البيرونى بين العلماء العرب - سواء من معاصريه أو سابقيه أو لاحقيه - بأنه كان حريصاً على الاطلاع على ثقافات الأمم الأخرى من مصادرها الأصلية غير معتمد على الترجمات التى شاعت فى وقته فى العالم العربى ، فدرس أبو الريحان لهذا الغرض السريانية والعبرية ، واهتم بوجه خاص باللغة السنسكريتية ، وعن طريقها تمكن من أن يتعمق فى دراسة الثقافة الهندية التى لم تكن حتى عصره محل الاهتمام الأول من العلماء العرب . وقد ظهرت نتائج تلك الدراسات العميقة فى كتابه الكبير عن الهند المعنون « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » والذى يعد نسيجاً وحده فى موضوعه وفى مادته ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية فى القرن الماضى(١) ، ومازال حتى اليوم كبير الفائدة لطلاب الدراسات الهندية بما حواه من معلومات واسعة ونظرات تقديرية صائبة عن ثقافة الهند القديمة الفلسفية والعلمية ، وقد اشتمل هذا الكتاب على معلومات وبيانات لولا مجهود أبى الريحان لكان مصيرها النسيان والضياع .

ولقد تغلغل حب العلم فى نفس أبى الريحان حتى كان العلم محور

---

(١) كما ترجم إلى الروسية فى سنة ١٩٦٣ ونشرت تلك الترجمة فى مدينة طشقند فى ٧٢٧ صفحة ، وهى المجلد الثانى من مجموعة الأعمال المختارة للبيرونى التى لا تزال تصدر منها مجلدات جديدة فى الاتحاد السوفييتى .

وجوده وهدف حياته ، فعاش يطلب العلم للعلم ، مُكبًّا على تحصيل العلوم ، منصرفاً إلى تصنيف الكتب . . « لا يكاد يفارق يده القلم ، وعينَه النظر وقلبَه الفكر » كما يقول فيه النيسابورى . وكان يضع فى أبحاثه العلمية روحه كلها ، ولم يكن يقوم بعمل من الأعمال إلا مخلصاً فيه الإخلاص كله لوجه الحق والعلم ، وحسبك دليلاً على مقدار تشبُّع هذا العالم النادر المثال بحب العلم ما يرويه ياقوت عن النيسابورى من أن قاضياً من أصحاب أبى الريحان قال :

دخلت على أبى الريحان وهو يجود بنفسه وقد حشرج نفسه وضاق به صدره ، فقال لى فى تلك الحال :

كيف قلت لى يوماً حساب الجدات الفاسدة ؟

فقلت له إشفاقاً عليه : أفى هذه الحالة ؟

قال لى : يا هذا ، أودِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ، ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها ؟ فأعدت ذلك عليه ، وحفظه ، وعلمنى ما وعد ، وخرجت من عنده وأنا فى الطريق فسمعت الصّراخ »[1] ،

فما ظنُّك برجل يحتضر على فراش الموت ، فلا يلهيه ما هو فيه عن العلم ، ولا يدع زائره دون أن يسأله عن مسألة من مسائل علم المواريث ، وعنده أنه إن يودِّع الدنيا وهو عالم بتلك المسألة خيرٌ له من أن يموت وهو جاهل بها ، فيشرحها له صاحبه ، وما إن يخرج من عنده حتى ترتفع إلى خالقها تلك الروح المولَّهة بحب العلم ، فيسمع صاحبه الصراخ عليه وهو فى الطريق . .

---

(١) معجم الأدباء ١٧ / ١٨٢ .

ومن كانت هذه حاله مع العلم فإنه ولا شك لا يمارسه ليتقرب به إلى الملوك ولا ليكتسب به الجاه عند الناس ؛ وهكذا كان أبو الريحان مستغنياً عن الملوك وما عندهم من جهة ، غير مبال بأن يفوز بالحمد من سواد الناس ، أو يشتهر عندهم بالعلم من جهة أخرى .

فأما استغناؤه عن الملوك وزهده فيما لديهم فحسبك ما جرى له مع السلطان مسعود بن محمود حين ألّف له كتابه المحيط بأوائل علم الفلك وأواخره والمعنون بـ « القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم » ، فلقد أجازه السلطان بحمل فيل من نقده الفضى ، فلم يقبل أبو الريحان تلك الصلة السنية التى تتناهى دون بعضها آمال الكثيرين ، وردَّ المال إلى الخزانة بعذر الاستغناء عنه[1].

وأما عدم اكتراث أبى الريحان بقالة الناس عنه ما دام قد أرضى ضميره وأخلص لوجه العلم فشاهدنا عليه ما رواه أحد تلاميذه قال :

« كان من عادة شيخنا الأستاذ الرئيس رحمه الله إذا آمر فى كتبه من مؤامرات الأعمال لم يجئْ بالمثال ، وإذا جاء على النزر اليسير منه جاء بالطرق المنغلقة والألفاظ الفصيحة البعيدة عن التفهم ، وسألته عن ذلك فقال رحمه الله : سبب ذلك أنى أخلى تصانيفى عن المثالات ليجتهد الناظر فيما أودعته فيها متى كان له دربة واجتهاد وهو محب للعلم ، ومن كان من الناس على غير هذه الصفة فلست أبالى به فهم أم لم يفهم فعندى سواء[2] » .

---

(١) معجم الأدباء ١٧ / ١٨١ ، وبغية الوعاة ص ٢٠ — ٢١ .

(٢) « الآثار الباقية » نشرة ساخاو ص ٧١ من مقدمة الناشر .

* * *

والبيرونى – بالرغم عن العِرق الذى كان يمتُّ به إلى الفرس – كان عربىَّ الثقافة ، عربىَّ الروح ، عربىَّ العصبية ، لا يدين بالولاء إلا لعروبته ولا يرضى أن ينسب إلى غير العرب . وهو القائل فى مقدمة كتابه « الصيدنة » : « الهجو بالعربية أحبُّ إلىَّ من المدح بالفارسية » ، وفيها يقول أيضاً : « ديننا والدولة عربيان توءمان ، يرفرف على أحدهما القوة الإلهية وعلى الآخر اليد السماوية . وكم احتشد طوائف من التوابع وخاصة منهم الجبل والديلم فى إلباس الدولة جلابيب العجمة فلم تنفق لهم فى المراد سوق . وما دام الأذان يقرع آذانهم كل يوم خمساً ، وتقام الصلوات بالقرآن العربى المبين خلف الأئمة صفًّا صفًّا ، ويخطب به لهم فى الجوامع بالإصلاح كانوا لليدين وللفم ، وحبل الإسلام غير منفصم ، وحصنه غير منثلم »(١) .

ويعلق الأستاذ لويس ماسنيون على تعصب البيرونى للغة العربية فيقول(٢) :

« لقد فهم البيرونى تمام الفهم الدور العالمى للغة العربية بوصفها – بين اللغات السامية – أهم لغة حضارة ، وأدرك مقدرتها على التركيز والتجريد وتراكيبها عن طريق الاشتقاق بدلاً من الزوائد وقيمتها فى

---

(١) ولما تقدم نرى أنه لا يمكن أن يصح ما قاله الأستاذ فليب حتى فى كتابه « تاريخ العرب » (ص ٤٠٢ من الطبعة الثالثة الإنجليزية) من أن البيرونى كان ممن تزعموا معسكر الشعوبية ضد المعسكر العربى . .

(٢) المجلد التذكارى : ص ٢١٨ .

توحيد المتكلمين بها » .

ولا نشكُّ – وهذا هو موقف البيرونى من العربية والعروبة – فى أنه لو كان قد عاش إلى أيامنا لكان يدهش من تنازُع الأمم إيَّاه وتنافسهم على ادِّعائه : فالترك يعدُّونه تركيًّا ، والإيرانيون يحتفلون به بوصفه منهم ، والروس لزماننا هذا يرون أنه ينتمى إليهم بحكم مولده فى خوارزم التى هى اليوم فى جمهورية أزبكستان السوفيتية . .

وقد عرف معاصرو البيرونى فضله ، وقدروا سبقه فى مختلف العلوم حق قدره ، فذاعت شهرته فى حياته ، وصار يُعرف بين علماء العصر باللقب الذى انفرد به ، وهو « الأستاذ » ، كما كان معاصره وقرينه فى الشهرة العلمية ابن سينا يعرف بلقب « الرئيس » ، وهما لقبان إذا أطلقا من غير إضافة كانا كافيين للدلالة على شخصى البيرونى وابن سينا كدلالة الأسماء سواء بسواء . وكما كان البيرونى يعرف فى الشرق بلقب الأستاذ كان يعرف لدى الغربيين فى القرون الوسطى باللقب نفسه مضافاً إلى اسمه محرَّفاً فهو عندهم « الأستاذ أليبورون » Master Aliboron كما نجده فى الكتب اللاتينية لذلك العهد .

* * *

وعالمٌ مثل أبى الريحان فى سعة آفاقه وتعدُّد مناحيه يصعب فى عجالة كهذه الإلمامُ بما أحرزه العلم على يده من تقدُّم وما حقق فى مختلف الميادين من سبق علمى ، على أنه لا بأس بإشارات قليلة تدل على ما وراءها من كنوز خبيئة فى مؤلفات البيرونى – ما نشر منها وما لا يزال ينتظر النشر – والحقُّ ما قال المستشرق ساخاو – ناشر كتب

البيرونى فى القرن الماضى – من أن تقدير أبى الريحان حق قدره والاعتراف له بكل فضله يحتاج إلى عمل أجيال من الباحثين ينكبُّون على تراثه العلمى بحثاً ودراسة وتحقيقاً .

* فى علم الفلك : قام البيرونى بعمل جداول فلكية دقيقة بناء على أرصاده ، ونقد وعدَّل الجداول التى كان قد صنعها سابقوه ومعاصروه ، كما ابتكر الاصطرلاب الأسطوانى الذى لم يقتصر استعماله على رصد الكواكب والنجوم ، وإنما كان يستخدم كذلك فى تحديد أبعاد الأجسام البعيدة على سطح الأرض وارتفاعاتها ، وصنع أبو الريحان كذلك جهازاً يمثل حركات الشمس والقمر .

وقد اشتمل على الجانب الأكبر من أبحاثه الفلكية كتاباه « القانون المسعودى » و « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » . وقد قامت بطبع أولهما لجنة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن فى الهند[1] فى طبعة محققة صدر منها الجزء الأول فى سنة ١٩٥٤ ، والثانى فى سنة ١٩٥٥ ، والثالث فى سنة ١٩٥٦ .

أما كتاب « التفهيم » فقد نشر نصُّه العربى مع ترجمة إنجليزية فى لندن سنة ١٩٣٤ بوساطة رامزاى رايت .

* وأما فى الرياضيات : فتشمل ابتكارات البيرونى – المتواليات

---

(١) لهذه الهيئة العلمية اهتمام مشكور بآثار البيرونى : فقد طبعت فضلاً عن القانون المسعودى « مجموعة رسائل البيرونى » الحاوية لعدد من مؤلفاته القصيرة ، وطبعت كتاب « الجماهر فى معرفة الجواهر » سنة ١٩٣٦ ، كما أنها بصدد طبع كتابه الكبير عن الهند . وقد ظهر الجزء الأول من هذه الطبعة سنة ١٩٥٧ .

الهندسية ، وتثليث الزوايا ، وحلّ كثير من مسائل الهندسة التى لا يكفى فى حلّها المسطرة والفرجار وحدهما ، وهى المسائل التى أصبحت تعرف فى علم الهندسة منذ ذلك الوقت باسم « المسائل البـيرونية » Alberunic problems ، فضلاً عن مساهمة البيرونى فى تطور حساب المثلثات .

* وفى العلوم الطبيعية : كانت للبيرونى نظرات صائبة سبق بها عصره : فمن ذلك أنه أدرك أن سرعة الضوء تزيد على سرعة الصوت زيادة هائلة ، وأنه شرح القوانين المائية التى تحكم العيون والآبار الارتوازية ، كما شرح بعض حالات شذوذ الخلقة فى النبات والحيوان بما فيها حال التوائم الملتصقة التى يسميها الغربيون اليوم بالتوائم السيامية ، وتعرَّض لشرح ظاهرة الزوجية فى عدد أوراق الأزهار ، إلى غير ذلك من ملاحظاته وتجاربه الدقيقة فى شتى فروع العلوم الطبيعية .

على أن أبرز سبق علمى أحرزه البيرونىُّ فى هذا الميدان يتمثل فى تحديده الثِّقْل النوعى لعدد من المعادن والأحجار تحديداً دقيقاً لا يكاد يذكر الفرق بينه وبين التحديد الحديث للثقل النوعى لتلك المواد .

ولبيان ذلك نورد فيما يلى جدولاً يبين الثقل النوعى كما حدده البيرونى ، والثقل النوعى المعروف لعلمائنا المعاصرين :

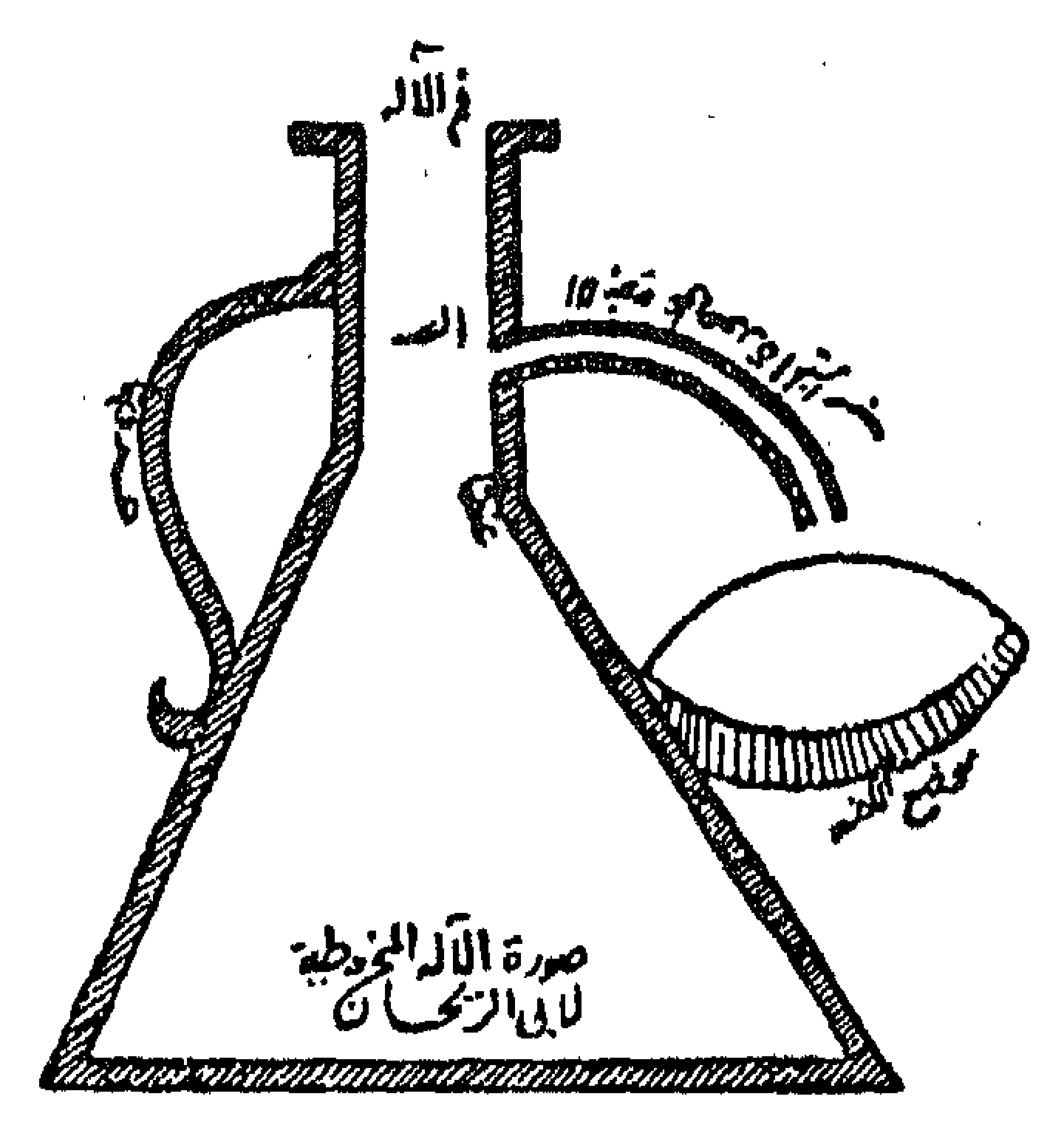
المـــادة	الثقل النوعى لدى البيرونى	الثقل النوعى لدى المحدثين
الذهب	١٩,٠٥	١٩,٢٦
الزئبق	١٣,٥٩	١٣,٥٩

المـــادة	الثقل النوعى لدى البيرونى	الثقل النوعى لدى المحدثين
النحاس	٨,٨٣	٨,٨٥
الصفر	٨,٥٨	٨,٤
الحديد	٧,٧٤	٧,٧٩
الصفيح	٧,١٥	٧,٢٩
الرصاص	١١,٢٩	١١,٣٥
الياقوت الأزرق	٣,٧٦	٣,٩٠
الياقوت الأحمر	٣,٦٠	٣,٥٢
الزمرد	٢,٦٢	٢,٧٣
اللؤلؤ	٢,٦٢	٢,٧٥
البلور الصخرى (الكوارتز)	٢,٥٨	٢,٥٨

وعند تقدير هذه النتائج المدهشة التى توصَّل إليها أبو الريحان ينبغى أن نستحضر فى الذهن أن ألفاً من السنين تفصل بين زماننا وزمانه ، وأن نذكر أن عُدَّته من الأدوات والأجهزة لم تكن لتقارن بما لدى علماء اليوم ؛ ومع ذلك فقد وصل أبو الريحان إلى نتائج لا تختلف كثيراً عما وصل إليه المحدثون بعد كل هذا التقدم الذى حققته العلوم .

هذا وقد ضمن أبو الريحان خلاصة أبحاثه فى الثقل النوعى كتابه المعنون « مقالة فى النِّسب التى بين الفلزات والجواهر فى الحجم » ، استعمل فى تجاربه العلمية لاستخراج الثقل النوعى « آلته المخروطية » التى صنعها والتى يرى القارئ صورتها مع هذه السطور وطريقة استعمالها

أن تملأ بالماء إلى حدٍّ معين ، ثم يوضع فيها مقدار معلوم الوزن من المادة المراد معرفة ثقلها النوعى ، فيخرج بدخولها قدر من الماء من خلال أنبوبة الجهاز ، ويسقط فى الكفة ، ويوزن ، فتعطينا النسبة بين وزن الجسم ووزن الماء الثقلَ النوعىَّ للمادة التى هى موضوع البحث .



رسم يبين « الآلة المخروطية » التى كان البيرونى يستعملها فى استخراج الثقل النوعى

* وفى الجغرافيا : انفرد البيرونىُّ بالسبق إلى وصف بلاد الهند وسكانها ، على أن ميدان تفوُّقه لم يكن الجغرافيا الوصفية بقدر ما كان الجغرافيا الرياضية – وبخاصة تحديد خطوط الطول والعرض ومسافات البلدان – وله فيها عشرة مؤلفات ، وعلم هيئة الأرض وقد كتب فيه

أربعة كتب ، ثم فن رسم الخرائط ؛ وله فيه مبتكرات كثيرة فى كيفية نقل صورة الأرض الكروية إلى الورق المسطح ، وكذا فى كيفية رسم الخرائط الفلكية للسموات ، مما جعل فضل البيرونى على فن رسم الخرائط cartography غير منكور . وقد خصَّ أبو الريحان بهذا الفن عدداً من مؤلفاته ، أهمها كتاب « تسطيح الصوَر وتبطيح الكُوَر » ، وكتاب « تحديد المعمورة وتصحيحها فى الصورة » ثم « تكميل صناعة التسطيح » ، عدا فصول متفرقة فى « القانون المسعودى » وغيره من كتب أبى الريحان الكبار .

وجدير بالذكر أن البيرونى بنظرته النقدية النفاذة لم يسلِّم تسليماً أعمى بما كان الإغريق يعتقدونه من أن المعمور من الأرض هو أحد الربعين الشماليين من كرة الأرض فقط ، وبذلك لم يستبعد البيرونىّ – من الوجهة النظرية – احتمال أن يكون النصف الغربى من الكرة الأرضية معموراً ، وذلك قبل اكتشاف الدنيا الجديدة بقرون طوال .

وفى ذلك يروى أبو الريحان أن الهنود يرون « أن على ترابيع خط الاستواء أربعة مواضع هى : جمكوت الشرقى ، والروم الغربى ، وكنك الذى هو القبة ، والمقاطر لها ؛ فلزم من كلامهم أن العمارة فى النصف الشمالى بأسره » .

ثم ينتقل إلى ما كان الإغريق يقولون به ، فيستطرد : « وأما اليونان فقــد انقطع العمران من جانبهم ببحر أوقيانوس ، فلما لم يأتهم خبر إلا عن جزائر فيه غير بعيدة عن الساحل ، ولم يتجاوز المخبرون عن الغرب ما يقارب نصف الدور ، جعلوا العمارة فى أحد الربعين

الشماليين ، لا أن ذلك موجب أمر طبيعى ، فمزاج الهواء الواحد لا يتباين ، ولكن أمثاله من المعارف موكول إلى الخبر من جانب الثقة » .

ثم كان أن جاءنا ذلك الثقة بالخبر اليقين بعد زمان أبى الريحان بأكثر من خمسة قرون فى شخص كريستوف كولمبس حين ألقى مرساه فى جزر الهند الغربية ، وتطلّع من ورائها إلى القارة الأمريكيـة ، وعرف العالم كله أن النصف الغربى من الكرة الأرضية معمور شأنه شأن النصف الشرقى .

* وفى الجيولوجيا وعلم المعادن : كان البيرونى من الروّاد الأولين ، فدرس ووصف عدداً جماً من المعادن والأحجار من النواحى الطبيعية والطبية – ومن ناحية استغلالها الصناعى ، وأهمّ مؤلَّف له فى هذا الباب هو كتاب « الجماهر فى معرفة الجواهر » الذى فى مكتبة الأسكوريال نسخة مخطوطة منه وأخرى فى المكتبة التيمورية بالقاهرة ، والذى طبع فى الهند سنة ١٩٣٦ كما تقدم .

وفى هذا الكتاب – فضلا عن المعلومات الموضوعية الثمينة – نظرات نقدية كالتى تحفل بها سائر مؤلفات « الأستاذ » وفقرات كثيرة تدلنا على المنهج الذى كان يسلكه وهو منهج علمىّ تجريبىّ تتوافر له كل مقوّمات المناهج العلمية الحديثة ، فلم يكن البيرونى يتخذ أقوال المتقدمين حجة ، ولم يكن يكتفى بالاستنتاج النظرى المجرد ، وإنما كانت التجربة العلمية الدقيقة مدار استنباطاته وأساس نتائجه العلمية ، فكأنه سبق بذلك فرنسيس بيكون – المعدود فى الغرب أبا المنهج التجريبى – بستة قرون : ففى كتاب « الجماهر » يعرض البيرونى

فى وصفه للزمرّد إلى إطباق علماء السلف على القول بأن من خصائص الزمرد سيلان عيون الأفاعى إذا وقع بصرها عليه ، فلا يقبل هذا القول على علاّته بالرغم عن إجماع المؤلفين عليه ، وبالرغم عن انتشاره لدى الجمهور إلى درجة اعتبارهم إياه حقيقة لا جدال فيها ، وإنما يعمد البيرونىّ إلى التجربة العملية ، فتراه يقول :

« ومع إطباقهم على هذا فلم تسفر التجربة عن تصديق ذلك ؛ فقد بالغت فى امتحانه بما لا يمكن أن يكون أبلغ منه فى تطويق الأفاعى بقلادة من زمرد ، وفرش سلتها به ، وتحريك خيط أمامها منظور منها مقدار تسعة أشهر فى زمانى الحر والبرد . لم يبق إلا تكحيلها به ، فما أثر فى عينيها شيئاً أصلاً إن لم يكن زادها حدة بصر » .

وفى شأن تكوين القشرة الأرضية وما طرأ على اليابسة والماء من تطورات خلال العصور تنبّه البيرونى إلى حقائق لم تكن معروفة لأهل زمانه ، وهى اليوم من مسلّمات علم الجيولوجيا ، ومن ذلك قوله فى كتاب « تحديد نهايات الأماكن وتصحيح مسافات المساكن »(١) .

« ينتقل البحر إلى البر ، والبر إلى البحر فى أزمنة إن كانت قبل كون الناس فى العالم فغير معلومة ، وإن كانت بعده فغير محفوظة ؛

---

(١) مخطوط بمكتبة جامع الفاتح باستانبول منسوخ فى حياة المؤلف ، ولعله بخطه ، نقل عنه بعض الفقرات المستشرق كرنكو فى « المجلد التذكارى » ص ٢٠٤ وما بعدها . وقد نشر النص العربى لهذا الكتاب بتحقيق المستعرب السوفييتى بولجاكوف فى المجلد الثامن من « مجلة معهد المخطوطات العربية » التابع لجامعة الدول العربية — القاهرة سنة ١٩٦٢ .

لأن الأخبار تنقطع إذا طال عليها الأمد ، وخاصة فى الأشياء الكائنة جزءاً بعد جزء ، بحيث لا تفطن لها إلا الخواص : فهذه بادية العرب وقد كانت بحراً ، فانكبس حتى إن آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها ؛ فإنها تبدى أطباقاً من تراب ورمال ورضراض ، ثم فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع أن يحمل على دفن قاصد إياها هناك ، بل تخرج منها أحجار إذا كسرت كانت مشتملة على أصداف وودع وما يسمى آذان السمك : إما باقية فيها على حالها ، وإما بالية قد تلاشت ، وبقى مكانها خلاء متشكلا بشكلها » .

كما يلاحظ البيرونى فى موضع آخر أن وادى نهر السند كان فى الزمن البعيد بحراً طمرته الموادُّ الغرينية التى يحملها النهر .

والجدير بالملاحظة فى الفقرة التى نقلناها فيما تقدم أمران :

١ — أن البيرونى كان يعلم أن تغيرات القشرة الأرضية كانت تحدث ببطء شديد « جزءاً بعد جزء » خلال ما نسميه اليوم بالعصور الجيولوجية « قبل كون الناس فى العالم » .

٢ — وأنه كان يدرك حقيقة الحفريات التى يكشف عنها التنقيب فى الطبقات الأرضية ، وأنها تمثل كائنات حية كانت تعيش فى الأزمنة القديمة .

وهـــذان الأمران كانا مجهولين فى العصور الوسطى ، بل ظلاَّ فى أوربا محل أخذ وردٍّ إلى عهد غير بعيد ؛ ففكرة التطورات الأرضية البطيئة كانت تقابلها النظرية القائلة بأن كل تغير فى ظاهر الأرض إنما كان ينتج عن حادثة مفاجئة أو « كارثة » مثل زلزال أو

بركان أو فيضان يمحو القديم ويحل محله الجديد ما بين يوم وليلة ، وهى النظرية التى عاشت إلى زمن العالمين الطبيعيين الفرنسيين بوفون (١٧٠٧ – ١٧٨٨) وكوفييه (١٧٦٩ – ١٨٢٣) وكانا من معتنقيها . أما الحفريات فقد كانت حقيقة أصلها مجهولة ، وكانت الفكرة السائدة عنها فى أوربا مجرد أحجار من نوع خاص إلى أن لاحظ ليوناردو دافنشى فى القرن السادس عشر أنها لا بد أن تكون فى الأصل كائنات حية كانت تعيش فى الزمن القديم . ومن بعده سار علم الحفريات فى الطريق الصحيح ، وبدأ يأخذ شكله الحديث على يد المدرسة الإيطالية – وبخاصة أنطونيو فالليسنيرى – فى القرن السابع عشر وما بعده .

* * *

وعالمٌ هذه بعض أوجُه سَبْقه فى بعض أبواب العلوم الكثيرة التى طرقها لابد أن تكون قائمة كتبه حافلة بالعدد الجمّ من المؤلفات ، وفى هذا يقول ياقوت – بعد أن يمهد بتبرير لإدراجه ترجمة هذا العالم فى « معجم الأدباء » ما يلى :

« وإنما ذكرته أنا ها هنا لأن الرجل كان أديباً أريباً لغوياً له تصانيف فى ذلك . . . وأما سائر كتبه فى علوم النجوم والهيئة والمنطق والحكمة فإنها تفوق الحصر ، رأيت فهرستها فى وقف الجامع بمرو فى نحو الستين ورقة بخط مكتنز » .

وقد استأنف فى عصرنا هذا حصر كتب أبى الريحان ومؤلفاته الأب جاك بوالو الدومنكى ، فتتبعها فى مظانّها ما بين مطبوع ومخطوط ، وما بين موجود ومفقود ، فخرج بقائمة تحوى مائة وثمانين عنواناً ، ووصف

كل مؤلَّف منها مشيراً إلى موضوعه ومكان وجوده إن كان مخطوطاً ، وطبعاته إن كان مطبوعاً ؛ وسرد المراجع التى تشير إلى كل كتاب منها أو تتناوله بالشرح أو الترجمة أو التعليق ، وختم هذه القائمة الحافلة بجداول صنَّف فيها كتب أبى الريحان بحسب فنون العلم المختلفة التى تناولها ، وحصر المخطوطات وأماكن وجودها إلى غير ذلك من الجداول المفيدة . وقد طبع هذا البحث بالفرنسية فى « مجموعة معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنكيين » بالقاهرة سنة ١٩٥٥ ، وشغل من تلك المجموعة تسعين صفحة ونيفاً (١) .

وفى ضوء ما تقدم جميعه لا عجب إذا رأينا اسم البيرونى قمة شامخة فى تاريخ العلم ترنو إليها الأبصار ، وتقرُّ بفضلها الألسنة ، ولا مبالغة إذن فى قول المستشرق إدوار ساخار عن أبى الريحان : إنه من أضخم العقول التى ظهرت فى العالم ، وإنه أعظم علماء عصره ، ومن أعظم العلماء فى كل العصور ؛ ولا فى قول مايرهوف : إن اسم البيرونى أبرز اسم فى موكب العلماء الكبار الواسعى الأفق الذين

---

(١) Boilot : L'Oeuvre d'Al-Beruni : Essai Bibliographique, dans Mélanges de l'Institut Dominicain d'Etudes Orientales, (Le Caire) 1955, pp. 161-256.

وصاحب هذا العمل القيم هو رئيس دير الرهبان الدومنكيين بالقاهرة ومدير معهدهم للدراسات الشرقية وهو مؤلف مقالة « البيرونى » فى الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية وفيها يقول : « إن وفاة البيرونى كانت بعد سنة ١٠٥٠ م استناداً إلى مثل الحجة التى سبق أن ساقها مايرهوف ، وأشرنا إليها فى حاشية صفحة سابقة » .

يمتاز بهم العصر الذهبي للإسلام ، وكذلك قول الأستاذ فيليب حِتّى :
إن البيرونى يعتبر أعمق المفكرين المسلمين وأكثرهم أصالة فى ميدان العلوم الطبيعية والرياضية .

وقد لخص الأستاذ جورج سارتون مكانة البيرونى العلمية فى عبارة وجيزة إذ قال فى كتابه المعروف « المدخل إلى تاريخ العلم » ؛ :
إن النصف الأول من القرن الحادى عشر (الميلادى) يمثله — من وجهة نظر العلم العالمى — البيرونى أكثر مما يمثّله ابن سينا .

ويقول المستشرق الأمريكى آرثر إبهام بوب :
« فى أية قائمة تحوى أسماء أكابر علماء الدنيا يجب أن يكون لاسم البيرونى مكانه الرفيع ، وغير ممكن أن يكتمل أى تاريخ للرياضيات أو الفلك أو الجغرافيا أو علم الإنسان أو مقارنة الديانات دون الإقرار بمساهمته العظيمة فى كل علم من تلك العلوم . ولقد كان البيرونى من أبرز العقول المفكرة فى جميع العصور ، وكان يتميز بالصفات الجوهرية التى تخلق العالم ؛ فالبيرونى بذلك مظهر من مظاهر الشمول وعدم التقيد بالزمن شأن العقول العظيمة ، وإنه لفى الإمكان تجميع عدد كبير من الاقتباسات عن مؤلفات البيرونى كتبها منذ ألف سنة ، وهى تستبق كثيراً من المناهج ومن المواقف العقلية التى يفترض اليوم أنها حديثة »(١) .

* * *

هذا التقدير العالى الذى يتمتع به البيرونى لدى العلماء ومؤرخى

(١) المجلد التذكارى ص ٢٨٢ .



تمثال البيرونى المعروض فى متحف جامعة موسكو

العلم – وتلك بعض آياته لا كلها – تجلى فى صورة مجسمة على يد جامعة موسكو التى يضم متحفها الجيولوجى تمثالاً نصفيًا للبيرونى مع تماثيل سائر العلماء الكبار الذين ساهموا فى خلق ذلك العلم . وقد كنت فى زيارة تلك الجامعة فى مبناها الفخم المطل على مدينة موسكو عبر نهر الموسكفا ، فطالعتنى فى المتحف الذى فى الطبقة الثامنة والعشرين صورة البيرونى فى تمثاله الذى يرى القارئ رسمه مع هذا الفصل ، وهذه علامة تقدير جديدة تضاف إلى كل ما سبق أن ناله أبو الريحان من إقرار العلماء له بالفضل فى مشارق الأرض ومغاربها .

* * *

وفى الخمسينيات من هذا القرن كان تراث البيرونى العلمى محلَّ اهتمام خاص من المحافل العلمية فى مختلف البلاد ، وذلك بمناسبة مرور ألف سنة هجرية على مولده ، فكان أن أصدرت أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى مجلداً بعنوان « البيرونى » يحوى مجموعة أبحاث ومقالات لعدد من الكتّاب تحت إشراف المستشرق س . ب . تولستوف ، وقد نشر هذا المجلد فى كلٍّ من موسكو وليننجراد سنة ١٩٥٠ فى ١٣٩ صفحة (١) .

كما صدر فى الهند مجلد آخر سنة ١٩٥١ بعنوان « المجلد التذكارى للبيرونى Al Biruni Commemoration Volume » نشر فى كلكتا

---

(١) وانظر ثبتاً بالكتب والبحوث التى نشرها المستعربون السوفييت عن البيرونى ومؤلفاته يحوى ٨١ عنواناً – فى مجلة « أرابيكا » الجزء الأول من المجلد ٢٣ (فبراير ١٩٧٦) ص ٧٧ – ٨٣ .

حاوياً واحداً وعشرين بحثاً بلغات مختلفة (الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والأوردية) لعدد من العلماء الشرقيين والمستشرقين ، وتتناول هذه الأبحاث جهود البيرونى وأثره فى علم الهيئة والجغرافيا الوصفية والدراسات الهندية والكيمياء ومقارنة الأديان وحساب المثلثات والجغرافية الرياضية والفلك ، فضلا عن ترجمة حياة البيرونى ، وبيان مكانته فى تاريخ العلم بصفة عامة .

وانعقد فى باكستان فى أواخر سنة ١٩٧٣ مؤتمر دولى بمناسبة الذكرى الألفية للبيرونى ، حضره علماء كبار من عدد من الدول الإسلامية ، وقدموا فيه أبحاثاً هامة عن تراث البيرونى العلمى .

وفى يونيو ١٩٧٤ أصدرت هيئة اليونسكو عدداً خاصاً من مجلتها عن البيرونى ، حوى ثمانى مقالات عن مختلف نواحى ذلك العالم الفذ ، ومن أهم ما اشتمل عليه ذلك العدد ترجمة فرنسية لمقتطفات تزيد على الثلاثين منتقاة من ستة من كتب البيرونى ، وقد قامت بترجمتها عن النص العربى بتكليف من اليونسكو الدكتورة هيام أبو الحسين .

ابن بطوطة فى الأندلس

يحتلُّ ابن بطوطة ، عن جدارة ، المكانَ الأول بين رحَّالى عصره ، فقد جاب من آفاق الأرض ما لم يَجُبْه غيره ، وقضى عمره فى أسفار متواصلة ما بين المشرق والمغرب عنى بتدوينها وتسجيل خط سيره فيها ، وإثبات أوصاف البلاد والشعوب التى زارها ، وملاحظاته عنها ، مما يعتبر إلى اليوم مرجعاً تاريخياً وجغرافياً لا غنى عنه للباحث .

وقد ذاع بين الناس من أخبار ابن بطوطة ، ذلك الجانب الخاص برحلته فى بلاد الشرق : كالهند وجزر المحيط الهندى وإندونيسيا (بلاد الجاوه) والصين ، كما اشتهرت بينهم رحلته إلى إفريقية الغربية التى كانت أول نافذة أطلّ منها سائر العالم على تلك البلاد المجهولة .

على أن رحَّالتنا قد وطأ بقدميه أرض بلاد كثيرة أخرى ، منها : إيران وأفغانستان وتركستان وروسيا وتركيا ، فضلاً عن أرجاء شبه الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر والشمال الإفريقى ، حيث رأى رحالتنا النور فى طنجة سنة ١٣٠٤ م وحيث مات فى فاس سنة ١٣٧٧ م .

ومن عجب أن ذلك الرحالة المولع بالأسفار ، لم يفكر فى زيارة الأندلس إلا بعد ربع قرن كامل من بدء تطوافه بالآفاق ، مع أنه وهو وليد طنجة ، كان يرى البرَّ الأندلسي على مرمى بصره خلال طفولته وصباه ، لكن شاءت الظروف ألا يرحل ابن بطوطة إلى الأندلس إلا متأخراً ولمدة

قصيرة بين رحلتيه الكبيرتين : الرحلة الشرقية التي دامت خمسة وعشرين عاماً من سنة ١٣٢٥ م إلى سنة ١٣٤٩ م ، والرحلة الإفريقية التي طاف فيها أرجاء السودان الغربي ، واستقرّ به المطاف بعدها في مدينة فاس إلى أن لقي ربه .

ولم تظفر رحلة ابن بطوطة الأندلسية بمكان ملحوظ ، لا في كتاب رحّالتنا الذي لا تشغل تلك الرحلة منه إلا بضع صفحات ليس لها في النسخ المطبوعة عنوان خاص بها ، ولا لدى القراء والباحثين الذين لم تسترع تلك الرحلة أنظارهم ، ولم تحظ باهتمامهم ، مع أنها لا تخلو من أهمية بالنسبة لتاريخ الأندلس في مراحله الأخيرة قبل سقوط غرناطة ، وانسحاب العرب النهائي من إسبانيا .

ولا يحدّد الشيخ أبو عبد الله تاريخ سفره إلى الأندلس ، لكنه يقول : « كان ذلك إثر موت طاغية الروم ألفونس » ، والمقصود هنا ألفونسو الحادي عشر : ملك قشتالة الذي مات سنة ١٣٥٠ م وهذا يتفق وما قرره ابن بطوطة في موضع آخر من رحلته ، إذ حدّد تاريخ وصوله إلى فاس ، وهو شعبان سنة ٧٥٠ هـ الموافقة لسنة ١٣٤٩ م . ومن سياق رحلته ، نعرف أنه سافر إلى الأندلس بعد أن قضى شهوراً ، قد تبلغ العام أو تزيد – متنقلاً بين فاس وطنجة وسَبْتَة ؛ فهو إذن لا يمكن أن يكون قد وصل إلى الأندلس قبل سنة ١٣٥٠ م التي مات فيها ألفونسو بالوباء ، وهو يحاصر جبل طارق .

* * *

ولكي ندرك الجوّ التاريخي الذي تمت فيه زيارة ابن بطوطة للأندلس ، ينبغي أن نذكر أنه في تلك الفترة كانت سياسة الاسترداد الإسباني للأندلس

العربية فى عنفوانها ، وكانت أهداف مملكة قَشتالة فى القضاء على الحكم العربى فى الأندلس ، وتوحيد إسبانيا قد تحددت ووُضِعت موضع التنفيذ ؛ فصارت المدن والحصون تسقط واحدة بعد الأخرى فى يد القشتاليين ، وظلت رقعة الأندلس العربية تتقلص ، ورقعة مملكة قشتالة تتسع حتى اقتصرت الأندلس ، آخر الأمر ، على غرناطة وحوزتها .

وكان العرب منشغلين بانقساماتهم الداخلية ، عاجزين عن ردّ الإسبان ؛ اللّهم إلا بالاستعانة بإخوانهم عرب « العُدْوة » فى المغرب الأقصى .

فقد كان بنو نصر حكام غرناطة على صِلات وثيقة ببنى مَرِين : سلاطين فاس ، وكثيراً ما تضافر عرب العُدْوتين على دفع الخطر القشتالى عن الأندلس العربية . فكان بنو مَرِين ينجدون بنى نصر بالجيوش تعبر إلى الأندلس من المغرب ، كما كان المرابطون والموحّدون من قبلهم ينجدون عرب الأندلس على عهدهم .

وكان آخر تلك المحاولات العربية المشتركة لإنقاذ ما بقى من الأندلس العربية ما وقع سنة ١٣٤٠ م أى قبل زيارة ابن بطوطة بسنوات معدودات . إذ عبر السلطان أبو الحسن المَرِينى « الزقاق » بجيشه قاصداً نصرة سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف النصرى ، فالتحمت الجيوش الأندلسية المغربية المتحدة بجيوش ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة فى معركة طريف التى تعرف عند الإفرنج باسم : معركة ريوسالادو (٣٠ من أكتوبر سنة ١٣٤٠ م) فدارت الدائرة على العرب ، وكانت تلك الهزيمة آخر العهد بالتناصر بين عرب العدوتين على دفع تيّار الاسترداد الإسبانى المستمر .

ولمعركة « ريوسالادو » عند الإسبان شأن عظيم وما زال بين الذخائر

التى يحتفظون بها إلى اليوم فى كنيسة طليطلة الكبرى رايتان للسلطان أبى الحسن المرينى كانتا من بين غنائم ملك قشتالة فى تلك الحركة .

* * *

وبعد انتصار ألفونسو على العرب فى معركة ريوسالادو بسنوات قلائل ، استولى على مدينة « الجزيرة الخضراء » بعد حصار طويل ، اشتركت فيه مع جيش ألفونسو قوات من المتطوعين من مختلف الممالك الأوربية من بينهم : الإيرل أف دربى الإنجليزى حفيد الملك إدوارد الثالث .

وفى هذه الظاهرة – التى لا يفوتنا تسجيلها – ما يدل على طبيعة عملية الاسترداد الإسبانى فى نظر دول أوربا كلها ، فقد كانت حروب قشتالة ضد العرب تعتبر فى نظر الأوربيين امتداداً للحروب الصليبية التى لم تكد تضع أوزارها فى المشرق ؛ ففى كلٍّ من الشرق والغرب كانت أوربا تواجه العرب . وإذ كانت كفة العرب هى الراجحة فى الشرق فى تلك الفترة ، كانت كفة أعدائهم هى الراجحة فى الغرب ، وقد دام حصار الجزيرة الخضراء عشرين شهراً .

ويروى المؤرخون أن العرب استعملوا فى دفاعهم عن تلك المدينة البارود لأول مرة فى الحروب فى أوربا ، وتطلق المصادر الأندلسية على الآلات التى كان يستعمل فيها البارود اسم : « الأنفاط » ؛ وليس من المستبعد أن تكون تلك الأنفاط نوعاً من المدافع البدائية . ومما يرجح هذا الفرض أن إسبانيا ، وخصوصاً جنوب الأندلس ، هى من الأماكن القليلة فى العالم التى يوجد فيها ملح البارود على سطح الأرض ، ومن ثمّ فليس من المستبعد أن يكون العرب الأندلسيون قد صنعوا البارود ، واستعملوا

قوته الدافعة فى توجيه قذائف الحديد أو الحجر إلى العدو .

وبسقوط الجزيرة الخضراء فى يد الإسبان – ومن قبلها طريف فى سنة ١٢٩٢ م – أصبح جبل طارق هو الثغر الوحيد الباقى فى يد العرب من ثغور الأندلس الجنوبية التى كانت مراكز للاتصال بين الأندلس والمغرب .

وقد كان لاستيلاء الإسبان على طريف ، ثم على الجزيرة الخضراء ، رنة أسف فى العالم الإسلامى . وقد وصفه ابن بطوطة نفسه بأنه « صدع فى الإسلام » وذلك قبل رحلته إلى الأندلس ؛ إذ يقول عن وصوله إلى بغداد :

« وصلتها فى سنة ثمان وأربعين (وسبعمائة) ولقيت بها بعض المغاربة فعرفنى بكائنة طريف ، واستيلاء الروم على الجزيرة الخضراء ، جبر الله صدع الإسلام فى ذلك » .

ولا عجب فإن سقوط هذين الثغرين كشف عن فشل مملكتى غرناطة وفاس فى توحيد قواتهما بصورة مُجْدية لمواجهة الخطر الإسبانى كما أدّى استيلاء الإسبان على طريف والجزيرة الخضراء إلى فقدان الموانئ المغربية فى الجانب الجنوبى للمضيق لقيمتها ، حتى إن البرتغاليين لم يعجزوا عن الاستيلاء عليها بعد ذلك ، وعزّ على قوّات المغرب الدفاع عنها والاحتفاظ بها .

* * *

فى هذا الجو من الكفاح بين العرب والإسبان ، غادر ابن بطوطة ميناء سبتة بحراً ، فوصل إلى جبل طارق ليصف ما أقامه فيه السلطان : أبو عنان المرينى ملك المغرب ، وسلفه السلطان أبو الحسن من منشآت عسكرية هامة فيقول :

« وأول بلد شاهدت من البلاد الأندلسية جبل الفتح ، فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيي بن السراج الرندى وقاضيه عيسى البربرى . وعنده نزلت وتطوفت معه على الجبل ، فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن رضى الله عنه ، وأعد فيه من العدد وما زاد على ذلك مولانا (أبو عنان) أيده الله . وودت أن لو كنت ممن رابط به إلى نهاية العمر » .

ويبدو أن أبا عبد الله لم يطل المكث فى جبل طارق ، بل سافر منها قاصداً غرناطة عاصمة مملكة بنى نصر – وهى البقية الباقية من الأندلس العربية – فسار أولا إلى مدينة رُندة التى تقوم وسط منطقة تشتهر بزراعة الزيتون ، وكانت معقلاً هاماً يحمى مدينة مالقة من جهة الغرب . ويقول ابن بطوطة إنها : « من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وضعاً » .

ويعدد أبو عبد الله كعادته أسماء العلماء والفضلاء الذين زارهم فى رندة ومن بينهم ، ابن عمه الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة قاضى رُندة . ولم ينزل ابن بطوطة فى ضيافة ابن عمه هذا ، بل أضافه فى رندة : « الفقيه القاضى الأديب أبو حجاج بن موسى المنتشاقرى »

ولم يشر ابن بطوطة إلى الطريق الذى سلكه من جبل طارق إلى رُندة ، وهو مظهر من مظاهر الإيجاز الشديد الذى نلاحظه فى وصف الرحلة الأندلسية أكثر من أى موضع آخر من كتاب « تحفة النظّار » ، لكنه لا بد أن يكون قد سلك الطريق الذى لم يزل مطروقاً حتى اليوم ، ويمر ببلدة « كتانة » المعروفة الآن باسم خيمانا Jimena مخترقاً فى سيره غابات البلّوط التى تشتهر بها تلك الأصقاع .

* * *

كانت إقامة ابن بطوطة فى رُندة ، قصيرة لم تزد على خمسة أيام استأنف بعدها سفره إلى مَرْبَلّة « والطريق فيما بينهما صعب شديد الوعورة . ومربلة بلدة حسنة خصبة » ، وهى ميناء على البحر الأبيض المتوسط ، وكانت فى ذلك العهد تتبع مملكة المغرب بالرغم من وقوعها على شاطئ الأندلس ، شأنها فى ذلك شأن جبل طارق ، ولم يقم ابن بطوطة فيما يبدو فى مَرْبَلّة ، بل سار منها إلى مالَقَة ، وقد نجا فى طريقه ذلك من خطر وقع فيه عدد من المسافرين كانوا قد تقدموه فى الخروج من مربلّة إلى مالَقة ، فلقيهم بعض قراصنة الإسبان الذين نزلوا من سفنهم على الشاطئ ما بين مالقة ومربلّة فقتلوا اثنين ، وأسروا باقى جماعة المسافرين هؤلاء ، واكتشف ابن بطوطة فى طريقه فرسين مقتولين من خيل تلك الجماعة . وعند وصوله إلى حصن سهيل ، علم من قائده بخبر هذه الحادثة وما وقع فيها من قتل اثنين وأسر عشرة ، وأشار عليه القائد بالمبيت فى الحصن حتى يتمكن فى الغداة من توصيله إلى مالقة .

وكان ابن بطوطة يشاهد – من ذلك الحصن – سفن الإسبان – وهى أربع – راسية على الشاطئ ، وفى اليوم التالى ركب معه قائد الحصن إلى مالَقَة .

وهذه الحادثة التى تشهد بجرأة الإسبان على النزول إلى البرّ الأندلسى ، وارتكاب أعمال القتل والأسر فيه ، تقطع فى الدلالة على أن السيطرة على « الزقاق » الفاصل بين المغرب والأندلس ، كانت قد انتقلت فى ذلك الوقت نهائياً إلى أيدى الإسبان ، ولعل هذا هو السبب فى أن ابن بطوطة قد اختار الطريق البرّى من جبل طارق إلى غرناطة دون الطريق البحرى إلى

مالقة ، ثم منها إلى غرناطة ، وهو طريق أيْسَر على المسافر ، ولكن خطورة الرحلة البحرية جعلته ولا شك يفضّل الطريق الآخر .

ويقال ، وهو ما لم يذكره لنا أبو عبد الله ؛ على عادته فى الإيجاز فى هذه الرحلة الأندلسية : إن حصن سهيل الذى بات فيه رحّالتنا ، سُمى بذلك الاسم لأنه يقع على جبل كان هو الموقع الوحيد فى الأندلس الذى يمكن أن يرصد منه الكوكب سهيل ، أما حصن سهيل فلعله الحصن المعروف الآن باسم : حصن فنجرولا Fuengirola التى لا تزال بقاياه قائمة قرب الشاطئ فى منتصف المسافة ما بين مربلة ومالقة .

وصل ابن بطوطة إلى مالَقَة[1] ووصفها بأنها : « إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه . رأيت العنب يباع فى أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير ، ورمانها المرسى (نسبة إلى « مرسيه ») الياقوتى لا نظير له فى الدنيا . وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب . . وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ، ويجلب منها إلى أقاصى البلاد ، ومسجدها كبير الساحة شهير البركة ، وصحنه لا نظير له فى الحسن ، فيه أشجار النارنج البديعة (شأن معظم مساجد الأندلس) . ولما دخلت مالقة وجدت قاضيها . . قاعداً بالجامع الأعظم ، ومعه الفقهاء ووجوه الناس يجمعون مالاً برسم فداء الأسارى الذين تقدم ذكرهم فقلت له : الحمد لله الذى عافانى ولم يجعلنى منهم ، وأخبرته بما اتفق لى بعدهم ، فعجب من ذلك ، وبعث إلى بالضيافة »

---

(١) فى عصرنا هذا تحمل العبّارة التى تنقل الركاب والسيارات بحراً بين مالقة وطنجة اسم « ابن بطوطة » تخليداً لذكرى الرحالة العظيم وليد طنجة .

ولم يذكر لنا أبو عبد الله ، كم من الوقت أمضى فى مالقة – تلك المدينة الكبيرة وميناء غرناطة – وكانت تستحق من رحالّتنا أن يقضى فيها أياماً أو أسابيع ، ولكن يبدو أنه كان كعادته متعجلاً الوصول إلى مقصده ، فلم يمكث بمالقة ، كما لم يطلْ المكث بما مرَّ به قبلها من المدن ، بل سار منها إلى غرناطة وهى غاية رحلته هذه ، فمر مرور الكرام بمدينة بلّش Véloz ثم ببلدة الحمة (ألهاما Alhama) المشهورة – فى ذلك الوقت ومن قبله ثم من بعده – بمياهها المعدنية التى يقصدها المرضى من مختلف أنحاء البلاد للاستشفاء فى حمّاماتها .

وصل ابن بطوطة إلى غرناطة ، ووصف جمال موقعها وحسن بنيانها ، وذكر أنهارها وبساتينها ورياضها وقصورها ، لكن الذى يدهش له القارئ أنه لم يُشر بكلمة واحدة إلى درَّة غرناطة وأعجوبتها التى لا تزال إلى اليوم تسترعى الأنظار ، وتجتذب السائحين من أقاصى البلدان ، ألا وهى قصور الحمراء المشهورة . ولا نظن أن هذا الإغفال كان بدافع الإيجاز والاختصار ، إذ أن رحّالة دقيق الملاحظة كابن بطوطة ، لا يمكن أن يفوته ذكر مثل تلك التحفة المعمارية ، ولعل سبب عدم ذكره للحمراء أنها لم تكن قد تجلّت فى صورتها الأخيرة بعدُ فى زمن زيارته : إذ أن كثيراً من معالم الحمراء – وبخاصة بهو السباع الذى لعله اليوم أشهر تلك المعالم – إنما بنى على عهد محمد الغنىّ بالله وهو الذى خلف يوسف أبا الحجاج ملك غرناطة الذى كان على العرش فى زمن زيارة ابن بطوطة للأندلس .

ولعل هنالك سبباً آخر لما رأينا من إغفال ابن بطوطة وصف القصر الملكى فى غرناطة وهو أنه فيما يبدو لم يدخل ذلك القصر إذ يقول : إنه لم يلق

السلطان أبا الحجاج يوسف « بسبب مرض كان به » .

فلعل رحالتنا إذن لم يرَ الحمراء ، ولم يطرق « باب الشريعة » أشهر أبواب الحمراء ، الذى شيده أبو الحجاج يوسف فى سنة ١٣٤٨ م ، أى قبيل وصول ابن بطوطة إلى غرناطة .

ولئن كان أبو عبد الله لم يدخل قصر الملك ، فإنه أقام فى صوامع النُّسَّاك : منهم شيخ المتصوفين : عمر بن محمد المحروق الذى أقام ابن بطوطة معه أياماً « بزاويته التى بخارج غرناطة وأكرمنى أشد الإكرام » كما زار معه « الزاوية الشهيرة البركة المعروفة برابطة العقاب (وهو) جبل مطل على خارج غرناطة بأعلى ربض نجد من خارج غرناطة المتصل بجبل السبيكة » وهذا الجبل هو الذى تقوم عليه قصور الحمراء .

كما أقام رحالتنا يومين وليلة فى بستان الفقيه : أبى القاسم محمد بن أبى عبد الله بن عاصم (١). ويقول ابن جُزَىٍّ – كاتب ملك المغرب – الذى رافق ابن بطوطة فى هذه الرحلة فى الذهاب وفى العودة :

« كنت معهم فى ذلك البستان ومتعنا الشيخ أبو عبد الله بأخبار رحلته ، وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها ، واستفدنا منه الفوائد العجيبة » .

وابن جُزَىٍّ كما هو معروف ، هو الذى كتب « تحفة النظّار » من

---

(١) هذا الفقيه هو والد الإمام القاضى محمد بن محمد بن عاصم من أئمة المذهب المالكى ، ومؤلف « تحفة الحكام فى نكت العقود والأحكام » وهى الأرجوزة المعروفة بالعاصمية ، ولا تزال من أهم متون المذهب ولها شروح أهمها : شرح التسولى وهو مطبوع فى مصر سنة ١٣١٧ هـ – وقد ترجمت العاصمية إلى الفرنسية أكثر من مرة ، وآخر ترجمة فرنسية لها نشرها معهد الدراسات الشرقية بمدينة الجزائر سنة ١٩٥٨ م .

واقع رواية ابن بطوطة بأمر ملك المغرب أبي عنان المريني .

وبعد فترة من الإقامة فى غرناطة ، رحل عنها ابن بطوطة قافلاً إلى المغرب ، متخذاً الطريق ذاته الذى سار فيه فى قدومه إليها مع اختلاف قليل . إذ مرّ فى طريق العودة بحصن ذكوان بين مالقة ورندة ، كما مر بقرية بنى رياح بين رندة وجبل طارق ، ومنه ركب البحر إلى سَبْتة .

* * *

هذه هى رحلة أبي عبد الله محمد بن بطوطة الأندلسية ؛ والمطالع لها لا بد أن يتساءل : لِمَ تأخرت هذه الرحلة وكان أولى أن يقوم بها رحالتنا المغربي فى أول عهده بالأسفار ؟ كما أن ثمة سؤالاً آخر أكثر أهمية يخطر على البال هو : ما هو الباعث على تلك الرحلة فى ذلك الوقت ، وماذا كان غرض ابن بطوطة منها ؟ .

يقول رحَّالتنا نفسه فى صدر كلامه عن الرحلة إلى الأندلس :

« أردت أن يكون لى حظ من الجهاد والرباط فركبت البحر من سبتة . . . إلخ .

غير أننا نكاد لا نصدق أن الباعث على هذه الرحلة ، كان رغبة ابن بطوطة فى أن يشترك بشخصه فى جهاد أعداء العرب بالأندلس ، أو المرابطة فى الثغور والحصون الأندلسية ؛ فأبو عبد الله كان فى زمن تلك الرحلة فى الخمسين من عمره ، والجهاد والرباط فرضٌ على الشباب قبل الشيوخ ؛ ثم إن مسلك أبي عبد الله فى رحلته لا يتفقْ والعزم على الجهاد ، فهو لم يمكث فى ثغر جبل طارق إلا قليلاً ، ولم تتعدَّ مرابطته فيه حدَّ التمنى « ووددت لو أنى ممن رابط به إلى نهاية العمر . . . » . ثم إنه لم يَبِتْ فى حصن سهيل

إلا مضطراً خشية القراصنة الإسبان ، وطلباً للأمن في صحبة قائد الحصن الذى ركب معه فى الغداة إلى مالقة ، وكان على الجملة فى طول الطريق متعجلاً الوصول إلى غرناطة ، فلما وصلها أقام فيها أياماً ولم يلقَ ملكها « بسبب مرض كان به » فقفل عائداً من حيث جاء .

لنا إذن ألا نعلّق كبير أهمية على ما صرح به أبو عبد الله من أن باعثه على رحلته إلى الأندلس هو رغبته فى أن يكون له نصيب من الجهاد والرباط ، ولنا على ضوء الظروف التاريخية التى تمّت فيها الرحلة ، وعلى ضوء ظروف الرحلة نفسها ، أن نستنتج أن رحلة ابن بطوطة الأندلسية ، إنما كانت **سفارة سياسية من ملك المغرب إلى ملك غرناطة بقصد توحيد الجهود العربية ضد الإسبان ، والدفاع عن كيان العروبة فى إسبانيا** ؛ ولكن تلك المحاولة فشلت ، بل لم يتمكن المبعوث من مجرد مقابلة ملك غرناطة بسبب مرض نكاد نظن أنه من نوع « المرض السياسى » .

وأدلتنا على هذا الفرض الذى نقول به كثيرة :

١ — إن ابن بطوطة لم يسافر وحده ، إنما صحبه كاتب ملك المغرب : ابن جُزَىّ وهو لم يحدث فى أية رحلة أخرى قام بها الشيخ أبو عبد الله — وكان الاثنان معاً بمثابة وفد دبلوماسى من بلاط فاس إلى بلاط غرناطة .

٢ — لابن بطوطة سوابق فى مثل هذا العمل السياسى بين دولة ودولة ، أو بين ملك وملك ؛ وسفارته لملك الهند لدى ملك الصين معروفة مشهورة .

٣ — كان لملك المغرب أبى عنان — ومن قبله لسلفه أبى الحسن — اهتمام بالغ بشئون الأندلس ، وقام كل منهما بأعمال هامة ، وشيَّدَ منشآت كثيرة فى جبل طارق ، ولا يمكن تفسير هذا كله إلا أنه تمهيد لعمل عسكرى

كبير فى الأندلس ضد الإسبان .

وفى هذا الصدد يقول ابن جُزَىّ كاتب الملك وأمين سره والمطلع على دخيلة أمره :

« أظهر مولانا أيده الله من العناية ببلاد الأندلس مالم يكن فى حساب أهلها ، وبعث إلى جبل الفتح ولده الأسعد المبارك الأرشد : أبا بكر المدعو من السمات السلطانية بالسعيد أسعده الله تعالى ، وبعث معه أنجاد الفرسان ووجوه القبائل وكفاة الرجال ، وأدر عليهم الأرزاق ووسع لهم الإقطاع ، وحرر بلادهم من المغارم ، وبذل لهم جزيل الإحسان ، وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أن – أيده الله – ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور ، فمثل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ، ودور صنعته ومساجده ومخازن عدده ، وأهرية زرعه ، وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء ، فصنع ذلك بالمشور السعيد فكان شكلاً عجيباً أتقنه الصناع إتقاناً يعرف قدره كل من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال [1] وما ذلك إلا لتشوقه أيده الله إلى استطلاع أحواله وتهممه بتحصينه وإعداده . والله تعالى يجعل نصر الإسلام بالجزيرة الغربية (إسبانيا) على يديه ويحقق مايؤمله فى فتح بلاد الكفار» .

وفى العبارة الأخيرة ؛ تصريح بما كان عزمُ أبى عنان قد انعقد عليه من قتال الإسبان ، ومحاولة إعادة فتح إسبانيا ؛ وفى صدور هذه العبارة من كاتب الملك نفسه ، ما يجعلنا لا نشك فى أنها تصور ما كان يعتزمه الملك .

---

(١) قارن « تختة الرمل » والمصورات المجسمة المستعملة فى إعداد الخطط الحربية فى زمننا هذا .

٤ – إن موت ألفونسو الحادى عشر فجأة بالوباء بعد مثابرته على حصار جبل طارق عشرة أشهر ؛ قد أدّى بطبيعة الحال إلى رفع ذلك الحصار. ويحتمل جداً أن ذلك الظرف جعل ملك المغرب يقبل على اغتنام فرصة خلو الجو من العدو الذى انتصر على جيوش العرب المتحدة فى ريوسالادو قبل ذلك بعشر سنوات ، وكذا فرصة انشغال الإسبان بفترة انتقال بين ملك عظيم مات ، وملك جديد لم يعرف بعد من أمره شىء . فكل هذه ظروف من شأنها اعتبار ذلك الوقت وقتاً مناسباً للقيام بعمل عسكرى مشترك بين عرب العدوتين ضد الإسبان .

أما إن أبا الحجاج يوسف ملك غرناطة لم يستجب لتلك اليد التى امتدّت إليه عبر الزقاق ، بل تمارض كى لا يقابل مبعوثى ملك المغرب ، فأمرٌ يتفق وسياسة بنى نصر فى المدة الأخيرة من حكمهم ، وهى سياسة التذبذب بين المرينيين وبين الإسبان . إذ كانوا تارة يستنصرون بنى مرين على الإسبان ، وتارة يركنون إلى الإسبان ، ويدفعون لهم الجزية متجافين عن بنى مرين ؛ كل ذلك تبعاً لما كانوا يعتقدونه فى الإسبان من القوة أو الضعف ، وتحقيقاً لمصالحهم الشخصية العاجلة فى الاحتفاظ بعروشهم مهما كانت الوسيلة ، وهى سياسة وخيمة العقبى ، جرّت على بنى نصر وعلى العرب فى الأندلس الوبال فى نهاية الأمر .

ولعل أبا الحجاج يوسف ملك غرناطة ، كان قد لقى فى يوم طريف (ريوسالادو) ما جعله يخشى قتال الإسبان إلى آخر عمره ، أما أبو عنان ملك المغرب فلم يشهد ذلك اليوم ، إنما ولى العرش بعد سلفه أبى الحسن ، وكان ممتلئ النفس عزماً وتصميماً على جهاد العدو ، واسترداد ما كان قد

ضاع من أرض الأندلس العربية . وهكذا كان لكلٍّ من الملكين وجهة هو مُوَلّيها ، فلم يكن من الميسور أن يلتقيا على أمر جامع .

ولئن صحَّ الفرض الذى فرضناه ، وسُقْنا على رجحانه القرائن المتقدمة ، تكون رحلة ابن بطوطة الأندلسية آخر محاولة لجمع شمل العرب فى المغرب وفى الأندلس ، فى عمل واحد ضد الإسبان ، وهى محاولة فشلت للأسف ولم يكتب لها التوفيق ، فكان آخر العهد بالتضامن العربى فى المغرب هو يوم « طريف » فى ٣٠ من أكتوبر سنة ١٣٤٠ م .

ومنذ ذلك اليوم تُركت الأندلس وشأنها لتلاقى مصيرها المحتوم إلى أن كان يوم سقوط غرناطة ، وخروج العرب نهائياً من إسبانيا سنة ١٤٩٢ م .

بَين القاهِرة ومُوسْكو

١١٦٨ م ، ١٨١٢ م

سواء أكان التاريخ مجموعة أحداث تتلاحق على غير نظام معين ولا تربطها علاقة يمكن تبينها كما يرى المؤرخ هربرت فيشر ، أم كانت للتاريخ قوانين ثابتة تتوالى أحداثه على مقتضاها كما يرى شبنجلر وتوينبي ، فإن من حوادث التاريخ ما يتشابه – على تباعد الأزمنة وتباين الديار – تشابهاً لا يسع المتتبع لها إلا أن يلحظه ويسجله ، وإن كان خيراً له وأسلم أن يدع لفلاسفة التاريخ أن يقرروا : أصدفة بحتة لا ترجع إلى قانون أو نظام كان ذلك التشابه أم نتيجة قانون ثابت يوصل إلى النتيجة نفسها كلما اجتمعت لها الأسباب ، بحيث يكون شأن الأحداث التاريخية فى فى ذلك شأن الظواهر الطبيعية التى يحكمها قانون السبب والمسبب .

فلنجنح إذن إلى ما فيه السلامة ، ولنترك مشكلة النظام التاريخى – أو الفوضى التاريخية – لفلاسفة التاريخ يتجادلون فيها إلى أن يقطعوا برأى ، ولنقتصر هنا على تسجيل حدثين هامين : أحدهما من تاريخنا القومى فى العصر الوسيط ، والآخر من التاريخ الأوربى فى العصر الحديث ، بينهما من التشابه ما لا يخفى على أدنى متتبع للتاريخ حظاً من قوة الملاحظة ، ومثل هذا التشابه هو الذى أوحى – ولا شك – بالقول الشائع : « التاريخ يعيد نفسه » .

فى منتصف القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) كانت مملكة أورشليم اللاتينية تحتل جزءاً عزيزاً من الوطن العربى ، وتنظر بعين الطمع نحو مصر حيث كانت الدولة الفاطمية فى دور الاحتضار ، على أن قوة عربية جديدة نامية كانت تقض مضاجع الصليبيين من الشرق والشمال ، تلك هى مملكة نور الدين محمود بن زنكى الذى تزعم فى ذلك الحين المقاومة الإسلامية ضد الغزاة الدخلاء ، وكانت مصر بحكم موقعها وأهميتها وضعف الدولة الحاكمة فيها ميداناً لالتقاء هاتين القوتين فى جولات متعددة انتهت بتوحيد الشام ومصر تحت سلطان واحد ، ما لبث أن امتد ، فشمل غيرهما من الأقطار العربية ، وسرعان ما حانت على يديه بعد ذلك نهاية الصليبيين .

وفى نوفمبر ١١٦٨ م قدم ملك بيت المقدس آمورى الأول مصر فى محاولته الثالثة لغزوها ، والخليفة يومئذ العاضد الفاطمى ومتولى الأمر فى مصر وزيره شاور ، ويبدو أن الملك الصليبى أقدم على حملته هذه فى غير حماس متأثراً بضغط رجاله ومستشاريه الذين « أعلموه خلو مصر من الموانع ، وهونوا عليه أمرها ، فلم يجبهم ، فاجتمع إليه فرسان الفرنج وذوو الرأى فيهم ، وأشاروا عليه بقصدها وتملكها » ، غير أن الملك كان يخشى بأس جاره القوى نور الدين ، ولا يرى فى الحملة على مصر فى تلك الظروف مصلحة عاجلة ، وكان إلى ذلك يتوقع – خلافاً لرأى مستشاريه – مقاومة شديدة فى مصر ، ليس من جيشها وحكومتها فحسب ، وإنما كذلك من شعبها وفلاحيها ، كما كان يخشى أن يستعين المصريون عليه بإخوانهم السوريين ؛ إذ يروى ابن الأثير أن آمورى قال لرجاله : « إن نحن

قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ، ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، ولئن صار له فيها مثل أسد الدين (شيركوه) لكان هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام » فلم يقبلوا قوله ، وقالوا له : « إنها لا مانع فيها ولا حامى ، وإلى أن يتجهز عسكر نور الدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها ، وفرغنا من أمرها ؛ وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة » فسار معهم على كره(١) .

ومهما يكن من أمر فقد وصلت الحملة إلى بلبيس فى طريقها إلى القاهرة ، فاستولت عليها فى الأول من صفر سنة ٥٦٤ هـ ، ٣ من نوفمبر ١١٦٨ م ، وأصاب أهل بلبيس على أيدى الغزاة من القتل والفتك والأسر أهوال جسام ، وسار الجيش بعد ذلك حتى وصل إلى القاهرة ، فعسكر خارجها فى بركة الحبش جنوبى الفسطاط بين جبل المقطم والنيل (منطقة أثر النبي الآن) ، واستعد الصليبيون للمعركة الفاصلة ، معركة الاستيلاء على عاصمة البلاد ومقر الخلافة ؛ وكان وصولهم فى اليوم العاشر من صفر سنة ٥٦٤ هـ ، وعلى رأسهم الملك آمورى الأول Amaury 1er ، وتسميه الرواية العربية أحياناً « عمورى » وأحياناً أخرى « مرّى » (بتشديد الراء) كما جاء فى شعر عمارة اليمنى :

أخذتم على الإفرنج كل ثنية
وقلتم لأيدى الخيل مُرّى على مرّى

لئن نصبوا فى البر جسراً فإنكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر

(١) الكامل جـ ١١ ، ص ١٣٥ – ١٣٦ .

ويروى ابن الأثير هذين البيتين ، ويعقب عليهما بقوله : « ولفظة مرى فى آخر البيت الأول اسم ملك الفرنج »[١] .

خشى شاور ألا يستطيع الدفاع عن الفسطاط وعن القاهرة معاً ؛ إذ كانت الفسطاط خارج سور القاهرة وعلى مسافة منها إلى الجنوب الشرقى ؛ فرأى أن يركز قواته فى القاهرة ذاتها ، وألا يدع الفسطاط تسقط فى أيدى الأعداء فيقوون بها و بما فيها من أقوات وأموال ؛ ولذا استقر الرأى على إحراقها ولا شك أن الوصول إلى ذلك القرار الخطير لم يكن أمراً هيناً ؛ إذ كانت الفسطاط أو« مصر» بالرغم من انتقال مقر الملك منها إلى القاهرة مدينة جليلة ذات أهمية تجارية كبيرة بوصفها أعظم ميناء نهرى فى مصر ، وكان الحرص على عمران الفسطاط وازدهارها والمحافظة عليها من الحريق بصفة خاصة مما يهتم له ولاة الأمور المصريون على توالى العصور وفى ذلك يروى لنا المقريزى فى خططه : « أنه كان فى مدينة الفسطاط فى عهد والى مصر الأموى عبد العزيز بن مروان فرقة إطفاء من خمسمائة عامل لمكافحة حريق طارئ أوهدم ، وكانت أوامر الإضاءة أمام الدور والدكاكين

---

(١) قال الجواليقى فى « المعرب » (ص ٦ — ٩) : « اعلم أنهم كثيراً ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية إذا استعملوها ، فيبدلون الحروف التى ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجاً ، وربما أبدلوا ما بعد مخرجه أيضاً . والإبدال لازم لئلاً يدخلوا فى كلامهم ما ليس من حروفهم . . وربما خلطت العرب فى الأعجمى إذا نقلته إلى لغتها . . وإذا كان حكى لك فى الأعجمية خلاف ما العلامة عليه فلا تربنه تخليطاً ؛ فإن العرب تخلط فيه ، وتتكلم به مخلطاً ؛ لأنه ليس من كلامهم ؛ فلما اعتنقوه وتكلموا به ، خلطوا » .

منذ الدولة الفاطمية تشمل ضرورة وضع زير مملوء ماء أمام كل حانوت مخافة حدوث حريق فى مكان ، فيطفأ عاجلاً بذلك الماء . ولما تعددت الحرائق فى البيوت سنة ٤٠٥ هـ ، ١٠١٤ م أمر الحاكم بأمر الله باتخاذ القناديل على الحوانيت وأزيار الماء مملوءة وإزالة السقائف التى على أبواب الحوانيت وما يظلل الباعة ، فنفذت أوامره فى الفسطاط والقاهرة . وفى سنة ٥١٧ هـ ، ١١٢٣ م أى قبيل غزوة آمورى أمر الوزير المأمون الواليين بمصر (الفسطاط) والقاهرة بإحضار رؤساء السقائين وأخذ التعهدات عليهم باستعدادهم للحضور كلما دعت الحاجة إليهم ليلاً أو نهاراً ، ورتب عدداً من العتالين لكى يبيتوا على باب كل معونة (مركز الشرطة) مع عشرة من الفعلة ومعهم الطوارق والقرب مملوءة بالماء على أن تتكفل الحكومة بنفقاتهم »(١) .

ذلك كان مبلغ حرص أولى الأمر على حفظ مصر من الحريق ، على أن الضرورات تبيح المحظورات ، وأن للحرب أحكاماً لا مناص من الجرى على مقتضاها تغليباً للمصلحة العليا على ما دونها ، وهكذا كان القرار التاريخى بإحراق الفسطاط . ولعل من تقرير الواقع أن يقال هنا : إن تلك المدينة العتيدة كانت قد فقدت من قبل غزوة الصليبيين الكثير من أهميتها الأولى ، وزال عنها ذلك الرونق والبهاء الذى تقرؤه فى أوصاف الرحّالين لها ، وآخرهم ناصر خسرو الفارسى الذى زارها قبل هذه الوقعة بأكثر من قرن ، والدليل على أن حال الفسطاط كانت قد بدأت فى التدهور قبل حريقها فى سنة ٥٦٤ هـ ماثل فيما يرويه ياقوت فى معجم البلدان نقلاً عن

(١) حسن عبد الوهاب : « تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها » ص ٢١ .

ابن النحوى ، فهو يقول : « وكان السبب فى خراب الفسطاط وإخلاء الخطط حتى بقيت كالتلال أنه توالت فى أيام المستنصر بن الظاهر بن الحاكم سبع سنين أولها سنة ٤٥٧ إلى سنة ٤٦٤ هـ من الغلاء والوباء الذى أفنى أهلها ، وخرب دورهم ، ثم ورد أمير الجيوش بدر الجمالى من الشام سنة ٤٦٦ هـ ، وقد عم الخراب جانبى الفسطاط الشرقى والغربى » . وهنا تسرد الرواية أسماء الخطط والأحياء التى خربت واحداً واحداً ثم تستطرد : « فدخل أمير الجيوش مصر وهذه المواضع خاوية على عروشها ، وقد أقام النيل سبع سنين يمد وينزل ، فلا يجد من يزرع الأرض ، وقد بقى من أهل مصر بقايا يسيرة ضعيفة كاسفة البال ، وقد انقطعت عنها الطرق وخيفت السبل . . . فلما دخل أمير الجيوش فسّح للناس والعسكر فى عمارة المساكن مما خرب ، فعمروا بعضه ، وبقى بعضه على خرابه ، ثم اتفق فى سنة ٥٦٤ هـ نزول الإفرنج على القاهرة ، فأضرمت النار فى مصر لئلا يملكها العدو ؛ إذ لم يكن لهم بها طاقة » .

وعلى أية حال فإن أمر إحراق الفسطاط صدر فى التاسع من صفر قبل وصول الأعداء بيوم ، ونودى فى أهلها بالخروج منها إلى القاهرة ، فخرجوا فى لهفة وعجلة حاملين ما استطاعوا حمله من أثاثهم ومتاعهم تاركين ما عداه نهبة للغوغاء والبطالين . ويقال : إن أجرة الجمل بلغت فى ذلك اليوم المشهود ثلاثين ديناراً عن النقلة الواحدة من الفسطاط إلى القاهرة ، وإن أجرة الحمار بلغت عشرة دنانير ؛ وهكذا دخل أهل الفسطاط إلى القاهرة ، وآوتهم المساجد والحمامات والأسواق . ومن ضاقت عنهم تلك المنشآت باتوا فى الطرقات ، ثم أضرمت النيران فى الفسطاط من كل

جانب ، واستعمل فى ذلك عشرون ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل – وفى هذه الأرقام ما يدل على حجم تلك المدينة واتساعها بالرغم مما كان قد أصابها من تدهور واضمحلال – وهكذا ارتفعت ألسنة اللهب تأكل مدينة الفسطاط ، وتعالى الدخان فى الجو حتى كان يرى على مسيرة ثلاثة أيام ، وإذ كان معسكر الأعداء إلى الجنوب من الفسطاط فقد اضطرتهم شدة النيران وتكاثف الدخان إلى الانتقال من ذلك المكان إلى جوار سور القاهرة عند باب البرقية – المنسوب إلى فرقة من جنود جيش المعز لدين الله أصلها من برقة – وكان المعسكر قريبا جداً من السور بحيث كانت سهام المدافعين عن المدينة تسقط فى خيمة الملك آمورى نفسه . ويشهد المؤرخون الإفرنج قبل العرب بأن القاهرة قاومت مقاومة عنيفة باسلة بحيث لم يتسن للمهاجمين تحقيق غرضهم بالرغم من إحكام الحصار[١] ، ولا شك فى أن الحريق كان له تأثيره فى معنويات الجيش المهاجم ، إذ علموا ولا ريب أن قوماً يحرقون مدينة عزيزة عليهم حتى لا تقع فى أيدى العدو هم قوم لا يسلمون عاصمة بلادهم أو يفنوا جميعاً دونها .

دمرت مدينة الفسطاط تدميراً فى هذا الحريق الذى دام أربعة وخمسين يوماً ، فلم تخمد جذوته إلا فى ٥ من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ ٧ من يناير سنة ١١٦٩[٢] ، وخربت النار معالم الفسطاط المشهورة ،

(١) شلومبرجر : حروب الملك آمورى الأول – باريس سنة ١٩٠٦ ، ص ٢٠٤ وما بعدها .

(٢) ابن الأثير ج١١ ، ص١٣٦ ، وشلومبرجر ص١٩٨ ، أما ابن إياس (بدائع =

وأهمها جامع عمرو ومسجد القرافة .

أما الأول فقد عمد صلاح الدين من بعد إلى ترميمه وإصلاحه ، ولكنه لم يلبث أن هجر وخرب من جديد لخراب المدينة التي كان جامعها ، إلى أن قام مراد بك فى سنة ١٢١٢ م بإعادة بنائه — وهو البناء الذى لا يزال قائماً حتى الآن — وفى ذلك يقول الشاعر المعاصر متهكماً بمراد بك :

ومسجد فى فضـــاء ما عمارته
فـوق الصيانة إلا لهـــو مختلق
كأن عمراً دعا : يا عاص هم بـه
ورمـه رقعـة فى دينـك الخلق

وأما مسجد القرافة فلم تقم له منذ ذلك الحين قائمة ، وكان من آيات العمارة العربية ، أنشأته زوج المعز لدين الله فى سنة ٣٥٧ هـ ، ٩٦٦ م ، وقام برسمه حسن الفارسى ، وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ، وكان ذلك المسجد يفوق كل ما بنى فى مصر قبله ، وكان مربع الزوايا ، وعلى جانبه أروقة كالجامع الأزهر ، غير أن النقوش التى على جدرانه كانت فى غاية الإبداع ، وكانت المقصورة يدخل إليها من أربعة عشر باباً مربعة أمام كل باب قنطرة مقوسة على عمودين من رخام فى ثلاثة صفوف ، وكانت الأبواب مدهونة بالأزرق والأحمر والأخضر ، كما

= الزهور حـ ١ ، ص ٦٨) فيقول : « صارت النار عمالة فى مدينة الفسطاط واحداً وخمسين يوماً » على أن رواية ابن إياس لا يوثق بها ؛ لأنه لم يكن معاصراً للأحداث ولا قريب العهد منها فضلاً عن أن فى روايته أخطاء أخرى لا شك فيها سنشير إليها فيما يلى .

كانت السقوف ملونة بمختلف الألوان ، وكان أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس ملونة بألوان مختلفة يكاد الناظر إليها يخالها شكلاً طبيعياً ، وقد حاول النقاشون أن يحاكوها فما استطاعوا[1] ، وقد تلاشى ذلك كله فيما تلاشى من بدائع العمارة والفن فى ذلك الحريق الهائل المروع .

وبينما كانت النار تلتهم مصر لم يكن المصريون يضيعون الوقت ، بل دخلوا مع العدو فى محادثات تهدف إلى رحيله ، كما أرسلوا إلى نور الدين فى الشام مستنصرين إياه على الأعداء ، ويبدو أن شاور كان يمد فى حبال الأخذ والرد مع آمورى انتظاراً لورود الجواب من نور الدين ، ثم كسبا للوقت الذى يلزم لوصول الجيش السورى إلى مصر ، فظلت الرسائل والسفارات تروح وتجىء بين المدينة ومحاصريها ، ومن بين الرسائل التى بعث بها شاور إلى آمورى رسالة ذات مغزى احتفظ لنا بنصها صاحب «كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين» ، وفيها يقول شاور للملك الصليبى : « إن هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير ، ولا يمكن تسليمه البتة ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم ، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة ، والرأى عندى أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابى ، وتحصل شيئاً أدفعه لك ، فيحصل لك عفواً » .

ومضى شاور فى سياسة إغراء آمورى على الجلاء بالمال ، فعرض عليه مائتى ألف دينار ، ولكن الملك الصليبى لم يكفه ذلك المقدار ، وحرضه كبار رجاله – وخاصة دى بلانسى Miles de Plancy على طلب المزيد ،

(١) ستانلى لينبول : « سيرة القاهرة » الطبعة الثانية ص ١٣٢ – ١٣٣ .

فتمسك بمبلغ ألف ألف دينار ، يعجل له منها مائتا ألف ، ويمهل هو المصريين بالباقى ، فتظاهر شاور بالقبول ، وهو – فيما يبدو – يضمر عدم دفع شيء من ذلك المال ، وطلب إلى آمورى أن يبتعد بجيشه عن القاهرة ليتمكن هو من جمع المبلغ المطلوب وتدبيره ؛ فانسحب الأعداء إلى المطرية ، وأقاموا بها ثمانية أيام فى انتظار ورود المال ، غير أن شاور زعم أنه لم يستطع أن يجمع أكثر من خمسة آلاف دينار ، وبعد تكرار السفارات بين الفريقين على غير طائل اضطر آمورى وجيشه إلى الانسحاب ، إذ علم بمقدم جيش نور الدين من سورية يقوده أسد الدين شيركوه ، ويصحبه ابن أخيه صلاح الدين ؛ ولم تكن هذه المرة الأولى ولا الأخيرة التى تتبادل فيها سورية ومصر النصرة والعون ضد العدو الغاصب والأجنبى الدخيل .

ومما أسهم فى حمل الأعداء على الانسحاب فشل الأسطول الذى كان إمبراطور القسطنطينية منويل كومنينوس قد أرسله لمساعدة الحملة الصليبية التى يقودها صهره آمورى ؛ إذ كان الأسطول قد وصل إلى مصب الفرع التنيسى – من فروع النيل القديمة ويسميه الجغرافيون العرب الأولون خليج سردوس ، وهو الآن ترعة البحر الصغير التى تتفرع عن النيل عند المنصورة ، وتصب فى بحيرة المنزلة – ودخلت سفن الأسطول النيل قاصدة الوصول إلى القاهرة لمعاضدة الجيش المحاصر لها ، ونهب رجال الأسطول فى طريقهم مدينة تنيس ، غير أنهم لم يستطيعوا التقدم كثيراً بعد ذلك ؛ فقد تحققت مخاوف آمورى الأولى من المقاومة الشعبية المصرية ؛ وذلك إذ تعرض الفلاحون للأسطول ، وسدوا عليه مجرى النيل بكل ما وسعته أيديهم بما فى

ذلك مراكبهم الصغيرة بحيث تعذر على سفن الأعداء المرور ، وغرقت إحداها ، فلما علم آمورى بمحنة أسطوله أرسل فرقة من خيرة جيشه على رأسها همفرى ذى تورون Humfroy de Toron نائبه فى قيادة الجيش وزوج ابنته إيزابيل ، بقصد احتلال ضفتى النهر أو إحداهما على الأقل وتسهيل عبور سفن الأسطول ، ولكن قبل أن يتم شىء من ذلك بلغ آذان آمورى خبر قدوم جيش نور الدين ، فبادر بإصدار أوامره إلى سفن الأسطول بالرجوع القهقرى [1] وعاد هو نفسه على رأس جيشه الفاشل إلى مملكته عن طريق فاقوس التى مر بها المنسحبون فى ٢٤ من ديسمبر سنة ١١٦٨ م ،

---

(١) شلومبرجر ص ٢٠٨ — ٢١٥. قارن ابن إياس حـ١ ص ٦٧ — ٦٨ حيث يصور — على خلاف الواقع — أن الحملة الصليبية جاءت عن طريق البحر فالنيل ، وهى إحدى غلطات رواية ابن إياس التى قلنا إنها غير موثوق بها . وهاك عبارته الموجزة فى وصف هذه الحملة وحريق الفسطاط :

« ومن الحوادث فى أيام العاضد أن الفرنج استولوا على الديار المصرية ودخلوا بمراكبهم إلى بحر النيل ، ونزلوا على مدينة الفسطاط التى تقدم ذكرها ، لأنها كانت بالقرب من بركة الحبش من الرصد ، فأحاطت عساكر الفرنج بمدينة الفسطاط ، وأشرفوا على أخذها ، وكان ملك الفرنج يسمى مرى ، وكان معه نحو سبعين مركباً مشحونة بالمقاتلين ، فلما رأى الخليفة العاضد عين الغلب ، وصار الفرنج يأسرون جماعة من المسلمين وينهبون أموالهم ، وقرروا على أهل مصر والقاهرة أموالاً جزيلة ، وأخذوا فى أسباب جبايتها ، فعند ذلك أشار الوزير على الخليفة بحرق مدينة الفسطاط خوفاً من الفرنج أن يملكوها فأذن له الخليفة فى حرقها فجمع الوزير العبيد وأحرقوها . . . فلما أحرقت مدينة الفسطاط تحول الناس إلى القاهرة . قيل : بلغ كراء الجمل من مدينة الفسطاط إلى القاهرة عشرة دنانير لكل نقلة، وصارت الناس عمالة فى مدينة الفسطاط واحداً=

ثم اجتازوا حدود مصر فى ٢ من يناير سنة ١١٦٩ عائدين « بخفّىْ حنين » كما يقول ابن الأثير ، فلاهم استولوا على مصر ، ولا هم حصلوا المال الذى كانوا يوعدون .

هذه قصة حريق الفسطاط سنة ١١٦٨ م ، وعندى أن هذا الحدث الخطير لم يحتل فى تاريخنا القومى مكانه اللائق به ، إذ لا يزال قليل الحظ من الذيوع والاشتهار ، والمؤرخون إن أشاروا إليه فإنما يسمونه « الحريق المشئوم » ، ويعتبرونه من مساوئ الوزير شاور وجناياته على البلاد . والحق أنه مهما يكن الرأى فى شخصية شاور وفى تذبذبه أول أمره بين نور الدين والصليبيين ، فإن إحراق الفسطاط كان ولا شك عملاً نادراً من أعمال الوطنية ، وتضحية اقتضاها – على جسامتها وفظاعتها – الدفاع عن كيان البلاد ، وليس كل شعب مستطيعاً الإقدام على تحريق بلده مفضلاً ذلك على تسليمه للأعداء ؛ فلنا إذن أن نعد هذا الحريق من أمجادنا الوطنية التى نباهى بها ، كما يباهى الروس بحريق موسكو الذى وقع فى ظروف مشابهة بعد حريق الفسطاط بنحو سبعة قرون .

* * *

فى أعقاب صيف سنة ١٨١٢ كان نابليون يسير على رأس جيشه الذى ضم جنوداً من كل دول أوربا التى أخضعها لسلطانه قاصداً مهاجمة

= وخمسين يوماً حتى صار الدخان يرى من مسيرة ثلاثة أيام ، فلما رأى الفرنج ذلك خافوا ورحلوا عن مصر » .

روسيا ، وهي إحدى دولتين لم تحنيا الهامة للطاغية . ولا نطيل فى وصف سير « الجيش الأعظم » - كما كان يسمى - ولا فى تفصيل خطة الدفاع الروسية التى كان مبناها أن الزمن والمسافة هما أهم سلاحين فى يد روسيا ؛ فليس هذا كله بيت القصيد ، وإنما نوجز فنقول : إن نابليون هزم الجيش الروسى فى معركة بورودينو - على بعد سبعين ميلاً من موسكو - فى يوم ٧ من سبتمبر سنة ١٨١٢ ، وهى معركة قاسية ، بل مذبحة بشرية تحمل فيها كل من المنتصر والمهزوم أجسم الخسائر ؛ وبذلك أصبح الطريق إلى موسكو مفتوحاً أمام نابليون ، فسار إلى تلك المدينة التى طالما داعب فتحها خياله ، وأصبحت لجنوده الهدف المنشود والغاية الكبرى لزحفهم القاسى الطويل الذى نالهم فيه من الأهوال ما نالهم .

أنشئت موسكو كبلدة صغيرة متواضعة فى القرن الثانى عشر ، أى حوالى الوقت الذى وقع فيه حريق مصر ، ولكنها فى زمن الغزو النابليونى كانت قد غدت درة المدن الروسية ، مدينة زاهرة تمتد على مساحة من الأرض طول محيطها خمسون كيلومتراً ، وكانت تضم ٣٠٠ كنيسة ودير ، ويتردد عدد سكانها بين ٤٠٠,٠٠٠ فى الشتاء و٢٥٠٠,٠٠٠ فى الصيف يقيمون فى ٩٢٥٧ بيتاً ، خمسها مبنى بالحجارة ، والباقى من الخشب ، وتشرف على بيوت المدينة المتسعة الأرجاء أبراج الكنائس الكثيرة ، وفوق ذلك كله قباب الكرملين مقر القياصرة العتيد الذى يحوى أغلى كنوز روسيا الفنية ، وتمثل فيه أبهة البلاط الروسى وفخامته .

ويصف المؤرخ تيير Thiers فى كتابه « تاريخ الإمبراطورية » مشهد وصول الجيش الفرنسى إلى موسكو وصفاً مؤثراً فيقول :

كان الجو صحواً ، وبالرغم من الحر فقد كان الجنود يحثون الخطى لارتقاء تلك المرتفعات التى سوف تكتحل عيونهم من أعلاها بمنظر الحاضرة التى طالما ترقبوا فتحها ، وبمجرد وصولهم إلى قمة التل شاهد جنود الجيش الأعظم تحت أقدامهم فجأة مدينة ضخمة ، يتألق فيها ألف لون ، ويعلو بيوتها العدد الجم من القباب المذهبة التى تشع ضياء . . . شاهدوا خليطاً عجيباً من قصور وكنائس وأبراج وأشجار وبحيرات . . مدينة قوطية — بيزنطية ، يتمثل فيها كل ما يحكى عن عجائب الشرق وآسية ، وبينما كانت الأديرة ذات الأبراج تدور حول المدينة كان فى وسطها على مرتفع من الأرض قلعة حصينة يجمع سورها فى الوقت نفسه بين دور العبادة وقصور الأباطرة ، وتعلو الأسوار قباب فخمة ، تحمل فى أعلاها الشعار الذى يتمثل فيه كل تاريخ روسيا وكل مطامحها « صليباً يعلو هلالاً منكساً » . هذه القلعة هى الكرملين مقام الأباطرة العتيد . وعند مشاهدة هذا المنظر الساحر استبد بالجنود الخيال ، وأخذتهم نشوة النصر ، فصاروا يصيحون كرجل واحد : موسكو . موسكو . . وإذ ذاك بادر زملاؤهم الذين كانوا لا يزالون عند سفح التل بارتقائه عدواً ؛ حتى لقد اختل نظام صفوفهم . وكان الجميع متطلعين إلى مشاهدة ذلك المنظر الآخذ بمجامع القلوب ، منظر تلك المدينة التى ساروا نحوها ذلك السير المضنى الطويل الحافل بالأحداث ، ولم تكن نفوسهم لتشبع أبداً من ذلك المشهد المذهل الذى يثير فيها شتى المشاعر والانفعالات » .

لم يكن لدخول نابليون إلى موسكو فى ١٤ من سبتمبر ١٨١٢ شىء من سمات دخول الفاتحين ؛ فقد وجد المدينة العظيمة مهجورة ؛ إذ لم يبق

فيها من سكانها سوى ١٢,٠٠٠ إلى ١٥,٠٠٠ ، وانسحب منها الجيش الروسى ، كما هجرتها السلطات المدنية ، ونزل نابليون وأركان حربه فى الكرملين مقر القياصرة ، ولم يكد يستقر بهم المقام حتى شوهدت الحرائق فى كل ركن من أركان المدينة ، ولم يلق الفاتح إليها بالاً أول الأمر ، ولكن سرعان ما تقاطر حملة الأنباء من كل صوب بصيحة واحدة ، هى أن موسكو تحترق . . .

وقد ترك لنا الجنرال سيجور أركان حرب نابليون الملازم له وصفاً حياً لرد فعل هذا الحريق المفاجئ على سيده ؛ إذ يقول : « لقد كان يبدو على الإمبراطور أن النيران المحيطة بالكرملين تلتهم فؤاده ، فكان يهب بين لحظة وأخرى واقفاً ، ويمشى خطوات ، ثم يعود للجلوس ، وكان يخطو فى أجنحة الكرملين بخطى سريعة ، وتنم حركاته عن قلق قاس . كان يترك عملاً عاجلاً ، ثم يعود له ، ثم يتركه من جديد ليسرع إلى النافذة يشاهد منها سير الحريق ، وكانت تند عنه صيحات مفاجئة قصارٌ يتنفس بها عن مكنون صدره : أى منظر مرعب ؟ لقد فعلوها بأنفسهم . . كل هذه القصور ! أى إقدام غريب ؟ أى رجال هؤلاء ؟ إنهم إسقوتيون Scythes (١)

لقد أحرق الروس مدينتهم المقدسة لعلمهم أن موسكو المخربة قبر الجيش الغزاة ؛ أما موسكو العامرة فهى — إن سقطت فى أيديهم — سند لهم وقوة على الوطن الروسى ؛ ولذا نقلت القوات المنسحبة من موسكو معدات الإطفاء معها إلى خارج المدينة ، كما قام حاكم المدينة الكونت روستوبشين

(١) اسم القبائل التى كانت تقطن ما يسمى الآن « روسيا » قبل ظهور الأمة الروسية الحديثة » يريد أن يصفهم بالهمجية والتوحش » .

Rostopchin بنقل محفوظات الدولة وكنوز القصور والكنائس إلى مدينة فلاديمير فى روسيا الوسطى ، ثم جمع المواد الملتهبة ، وفتح أبواب السجون ، وأمر نزلاءها وغيرهم بإضرام النار فى كل ركن من أركان المدينة ، بادئاً بقصره هو وبمخازن الخمور والكحول ، ثم بسائر نواحى موسكو حتى وصل مضرمو النار إلى الكرملين نفسه ، وقد ألقى الفرنسيون القبض فى مكان من القصر على جندى بوليس روسى كان يقوم بإشعال النار ، وباستجوابه أجاب : بأنه إنما ينفذ أوامر تلقاها من ضابطه ، فساقوه أمام نابليون الذى صرفه محنقاً ، فتلقاه الجنود الفرنسيون فى ساحة القصر ، وقتلوه طعناً بأطراف السنان . . .

دخل اسم روستوبشين التاريخ بوصفه مدبر حريق موسكو ، وليس معلوماً على وجه اليقين من دفعه إلى ذلك : أمن تلقاء نفسه أم لتنفيذ أوامر حكومته (١) ؟ . على أن روستوبشين حاول أن يبرئ نفسه فى كتيب نشره فى باريس سنة ١٨٢٣ بعد سقوط نابليون بعنوان : « الحقيقة عن حريق موسكو » ؛ ومع ذلك فإن من المؤرخين الفرنسيين من يقرر أن روستوبشين كان خلال إقامته فى باريس كثير المباهاة بالدور الذى قام به

---

(١) دائرة المعارف الفرنسية : مادة « موسكو » – دائرة المعارف البريطانية : مادة روستوبشين – نورفان : تاريخ نابليون ج ٣ ص ٣١٥ وما بعدها (الطبعة الخامسة) – مادلان : القنصلية والإمبراطورية ج ٢ ص ١٥٩ . ويلاحظ أن دائرة المعارف البريطانية تحت مادة « موسكو » تقول : إن الحريق كان ناشئاً عن إهمال السكان ، وهو خلاف ما فى سائر المراجع ، ويناقضه ما فى مواضع أخرى من دائرة المعارف البريطانية نفسها .

فى حريق موسكو[١] .

وبينما كانت النيران تأكل أعظم مدن روسيا ، وتعمل الرياح على نشرها فى كل ناحية حتى غدت المدينة شعلة واحدة من نار ، كان موقف نابليون غاية فى الحرج ، فالفتح الذى كان يظنه تتويجاً لحملته انقلب شركاً مميتاً له ولجيشه ؛ وهكذا حاول نابليون أن يحصل من القيصر ألكسندر على صلح ينهى به تلك الحرب التى كان فشلها يلوح فى الأفق ، وتبودلت بين الطرفين مراسلات تذكرنا بالرسائل التى تبادلها شاور وآمورى فى ظروف مماثلة قبل ذلك بقرون طوال ، ومن رسائل نابليون إلى ألكسندر واحدة يقول فيها :

« سيدى الأخ . . . إن موسكو الجميلة الفخمة لم يعد لها أثر ، وهذا عمل فظيع لا فائدة منه ؛ فهل أردت بذلك أن تقطع عنى بعض الموارد ؟ لقد كانت المؤن فى الأقبية التى لم تصل إليها النار ، فكيف أمكن أن تخربوا مدينة من أجمل مدن العالم ومن عمل القرون لغرض ضئيل كهذا ؟ لقد تسلمت المدينة التى تخلى عنها الجيش الروسى مراعاة منى للإنسانية وإكراماً لجلالتكم ، وحرصاً على مصلحة المدينة نفسها ؛ وكان خليقاً على الأقل أن يترك فيها سلطات وشرطة كما حدث مرتين فى فيينا ، ومرة فى كل من برلين ومدريد ، كذلك فى ميلانو سلكت فرنسا هذا المسلك لما دخلها سوفاروف . وقد حاربت جلالتكم ، وليس فى نفسى شىء منكم ، وإشارة منكم قبل المعركة الأخيرة أو بعدها كانت تكفى أن أوقف زحفى . . . فتقبلوا هذه الرسالة بقبول حسن ، وعلى كل فلعلكم تحمدون لى أنى أحطتكم

---

(١) نورقان : المرجع السابق — الموضع المذكور .

بالحوادث علماً » [١] .

ولم يكن عند نابليون وهو محصور بين ألسنة اللهيب فى موسكو من يحمل رسالته هذه إلى القيصر سوى ضابط روسى صغير من الأسرى كان جوابه ، حين كلفه الإمبراطور تلك المهمة ، أن تنصل منها أولاً ، ثم انتهى إلى أن قال : « لا أستطيع أن أعد بشىء » .

على أن هذه الدعوة إلى الصلح لم تلق أذناً مصغية من الروس الذين كانوا قد صمموا على تطهير وطنهم من الغزاة ، فلم يجد نابليون بداً من مغادرة موسكو — أو ما تبقى منها — فى يوم ١٩ من أكتوبر سنة ١٨١٢ والانسحاب من روسيا بفلول « الجيش الأعظم » التى لاقت فى أثناء سيرها الطويل — فى الانسحاب التاريخى — من الأهوال ما سجلته صفحات التاريخ فى صور حية لا ينساها العالم أبداً ، وكان هذا الانسحاب بداية النهاية لنابليون طاغية أوربا .

ولقد أتى حريق موسكو على تلك المدينة العظيمة ، فلم يبق من بيوتها الحجرية البالغة ٢٦٠٠ بيت سوى ٥٢٥ بيتاً فقط ، كما أنه لم يسلم من البيوت الخشبية إلا ١٧٩٧ بيتاً من مجموع ٦٦٠٠ بيت ، ودمرت النيران ما لا يحصى من القصور والكنائس والمنشآت العامة ، وقدرت خسائر الحريق بمبلغ ٣٢١ مليون روبل ، غير أن الغرض من الحريق قد تحقق ؛ إذ سلم الوطن الروسى من خطر الغزو والسيطرة الأجنبية ، واضطر المهاجمون إلى الانسحاب صاغرين .

* * *

(١) لودفيج : نابليون (ترجمة الأستاذ محمود الدسوقى) جـ ٢ ص ٤٦ — ٤٧ .

هذان حدثان يفصل بينهما فى الزمان ستمائة عام ونيف ، وفى المكان ما بين مصر وروسيا ، على أن التشابه بينهما مع ذلك تام : فنى كل منهما نرى شعباً صمم على مقاومة العدو ، واسترخص فى سبيل إنقاذ الوطن كل غال ، فضحى بعاديات حضارته لكى تخلص له معنوياتها غير مشوبة بسيطرة دخيل أو تحكم أجنبي ، وهما مثلان غاليان سيخلدهما التاريخ بين أمثلة الوطنية السامية والفداء العظيم .

قنوات السويس القديمة

في صيف سنة ١٩٥٥ احتفل في إيطاليا بالذكرى المئوية لشق قناة السويس ، تنفيذاً للخطة التي وضعها المهندس الإيطالي لويجي نجريللي ، والإيطاليون قصدوا من وراء هذا الاحتفال ولا شك إلى تمجيد ذكرى مواطنهم الذي وضع خطة حفر القناة ، شعوراً منهم بأن دي لسبس قد احتكر كل فضل يتعلق بالقناة في أذهان الناس .

غير أن الصحيح أن هذه الذكرى المئوية كانت ذكرى انتهاء نجريللي من رسم الخطة لا ذكرى البدء بشق القناة ، فالمعروف أن العمل في شق قناة السويس قد بدأ في ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ عند موقع بور سعيد الحالي ، وسار العمل فيها على أساس خطة نجريللي ، مع تعديلات طفيفة أدخلتها عليها لجنة دولية شكلتها شركة قناة السويس .

والعهد بفكرة وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر قديم جداً ، غير أن نهر النيل لعب في العصور القديمة الدور الأول في وصل مياه البحرين ، أما فكرة القناة البحرية التي تشق رأساً برزخ السويس من البحر إلى البحر فلم تظهر كفكرة مجردة إلا في القرن السادس عشر ، وأصبحت قاب قوسين من التنفيذ على بدء الحملة الفرنسية ، غير أنه لم يكتب لها أن تظهر إلى حيز الوجود إلا في النصف الثاني من القرن الماضي .

وتعزى أول قناة وصلت بين البحر الأبيض والبحر الأحمر عن طريق النيل إلى الفرعون سيتى الأول أو إلى ابنه رمسيس الثانى ، وقد وردت الإشارة إلى هذه القناة فى كتابات الفيلسوف أرسطو والجغرافيين بلينى وسترابو منسوبة إلى « سيزوستريس » ، وهو اسم كان يطلقه الإغريق على فرعون من فراعنة مصر لم تعرف شخصيته على وجه التحديد ، مما حدا ببعض المؤرخين إلى اعتباره شخصاً خرافيًّا ؛ على أن غالبيتهم تعتقد أن صاحب هذا الاسم هو رمسيس الثانى ، وعلى أية حال فالذى يتضح من بعض نقوش معبد الكرنك أن هذه القناة كانت موجودة أيام سيتى الأول أى حوالى سنة ١٣٨٠ ق . م .

ويبدو أنه قد طمرتها الرمال على توالى السنين ، إذ يذكر لنا المؤرخون أن الفرعون نخو ابن ابسماتيك قد أعاد حفرها سنة ٦٠٢ق.م ويقول المؤرخ هيرودوت : إن مائة وعشرين ألفاً من المصريين قد هلكوا فى سبيل إنجاز هذا المشروع الذى لم يقدر له أن يتم ، إذ يقال : إن نخو سمع هاتفاً يحذره من إتمام حفر القناة حتى لا يستفيد منها الأعداء فعدل لهذا السبب عن إتمام ما كان قد شرع فيه .

وبعد غزو الفرس لمصر قام داريوس بحفر القناة من جديد ويقال إن عرضها كان ١٥٠ قدماً ، وعمقها ٢٠ قدماً ، وكانت تتسع لسفينتين كبيرتين ، إحداهما صاعدة والأخرى هابطة .

وكانت هذه القناة فى عصرها الأول تأخذ من الفرع البيلوزى ، وهو من فروع النيل القديمة التى تلاشت ، وكان أقصى تلك الفروع شرقاً ، فكان بدء القناة من هذا الفرع عند مدينة بوباستيس (تل بسطة)

قرب الزقازيق ومنتهاها عند البحيرات المرة فى موقع كان يسمى « هيروبوليس » عند الإغريق ويعرف اليوم « بتل المسخوطة » ومن هناك كانت السلع تنقل براً إلى السفن الراسية عند رأس خليج السويس ، فلم يكن الاتصال المائى بين البحرين كاملا إلى أن عمد بطليموس فيلادلفوس سنة ٢٨٥ ق . م . إلى إيصال القناة للبحر الأحمر فى موقع قريب من مدينة السويس الحالية ، وشيد عند التقائها بالبحر مدينة « ارسينوى » .

وفى العصر الرومانى توالى الإهمال على هذه القناة حتى طمت معظم أجزائها ، ولم يرو التاريخ طوال عصر الرومان من أعمال الاهتمام بهذه القناة إلا ما حدث فى عهد الإمبراطور تراجان من مد القناة من مدينة بوباستيس إلى بابليون (مصر القديمة) ، وعرف هذا الجزء من القناة باسم « نهر تراجان » عند الرومان .

فلما كان الفتح العربى أعاد عمرو بن العاص حفر هذه القناة التى عرفت باسم خليج أمير المؤمنين ، وواضح أن القصد من حفرها هو تسهيل المواصلات مع الجزيرة العربية مركز الدولة . وينقل على باشا مبارك فى خططه من أقوال المقريزى وغيرها أن هذا الخليج بعض من خليج قديم كان مستعملا فى الأزمان الغابرة فى الملاحة ، وموصلاً بين النيل والبحر الأحمر ، وكانت بواسطته تدخل إلى مصر تجارة بلاد العرب والهند . ويروى السيوطى عن ابن عبد الحكم عن الليث ابن سعد : أن سبب حفر هذا الخليج على يد عمرو بن العاص أن الناس بالمدينة أصابهم قحط شديد فكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو يسأله الغوث من خيرات مصر ، ويستعجله إرسال الإمداد

فاستحسن عمرو أن يحفر هذه القناة ، للإسراع بإرسال الأطعمة إلى الحجاز على وجه لا يتيسر بوسائل النقل البرية . ومن أقوال المؤرخين ما يفهم منه أن هذا الخليج كان صالحاً للملاحة إلى عهد عمر بن عبد العزيز ويبدو أن الإهمال قد امتد إليه بعد ذلك ، فردمت بعض أجزائه على أن آثارها ظلت باقية حتى عصر الحملة الفرنسية ، وأثبتها علماء الحملة الذين كانوا يبحثون مشروع قناة السويس ، كما أن أجزاء أخرى من « خليج أمير المؤمنين » ظلت باقية إلى عصر محمد على ، وكان الجزء من القناة القديمة بين موقع بوباستيس وبين القصاصين صالحاً للملاحة أيام فيضان النيل ، بل إن مبدأ القناة عند القاهرة ظل موجوداً إلى أن أزالته الحكومة سنة ١٨٩٧ ، وهو ما لا يزال يذكره ولا شك المعمرون من القاهريين ، وإن كان بعضهم لا يدرك أن ذلك « الخليج » كان البقية من خليج أمير المؤمنين الذى احتفره عمرو بن العاص.

وبرغم ظهور فكرة القناة البحرية المباشرة فى العصور الحديثة ، فإن فكرة القناة النيلية لم تعدم الأنصار ، إذ قام المهندس الفرنسى تالابو سنة ١٨٤٦ بعمل مشروع لقناة تصل ما بين الإسكندرية والسويس عن طريق القاهرة ، وتستغل فيها فروع النيل فى أغلب طولها ، وكان هذا المشروع محل بحث جدى إلى ما قبل تنفيذ مشروع نجريللى واختارته « جمعية الدراسات العلمية لقنال السويس » التى كانت مشكلة فى فرنسا من بين عدة مشروعات تقدم بها إليها المهندسون .

أما فكرة القناة البحرية التى تشق برزخ السويس فقد داعبت أفكار البنادقة خلال القرن السادس عشر ، بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء

الصالح ، ويقال إنهم فاتحوا سلطان تركيا فى ذلك المشروع فلم يجدوا منه أذناً صاغية ومن الأغلاط الشائعة ما يقال من أن الفيلسوف الألمانى لينتز هو أول من نادى بإنشاء قناة تصل البحرين عبر برزخ السويس ، وذلك فى التقرير الذى رفعه إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر سنة ١٦٧١ والذى اشتهر بعنوان « النصيحة المصرية » Consilium Aegyptiacum والحقيقة أن هذا التقرير لا يحوى أية إشارة إلى مثل هذا المشروع وإن تضمن الإشارة بموقع مصر الجغرافى الممتاز والنصح لملك فرنسا بغزو مصر وضمها إلى أملاكه ، ويرى الكثيرون أن لينتز كان يرمى بهذه النصيحة إلى صرف نشاط لويس الرابع عشر الحربى إلى وجهة أخرى غير غزو الوطن الألمانى ، وذلك تحت ستار المناداة بأن دول أوربا يجب ألا يعادى بعضها بعضاً ، بل ينبغى أن تصرف جهودها إلى إخضاع العالم « غير المسيحى » لسلطانها ! وغنى عن القول أن « النصيحة المصرية » لم تسفر عن شيء سواء بشأن القناة أوبشأن غزو مصر .

وقد بدأ البحث الجدى فى شق قناة السويس البحرية مع أبحاث علماء الحملة الفرنسية التى عاقها عن بلوغ غايتها الخطأ المعروف الخاص باختلاف منسوبى البحرين ، إلى أن تم إعداد المشروع ثم تنفيذه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على ما هو معلوم ومشهور .

من مهمل تاريخ الإسكندرية
غزوة القبارصة سنة ١٣٦٥

(١)

فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى . كان ظل الصليبيين قد تقلص عن الشرق ، وزالت من الوجود مملكة أورشليم وتوابعها فى ديار الشام . . غير أن الحروب الصليبية تركت ذيولاً فى بعض جزر الجانب الشرقى من البحر الأبيض ، فكانت جزيرة رودس معقلاً لفرسان القديس يوحنا - الذين عرفوا من ذلك الوقت بفرسان رودس - كما كانت جزيرة قبرص مقراً لمملكة يتولاها ملوك فرنسيون من أسرة لوزنيان ، التى كان مؤسسها جى دى لوزنيان قد اشترى الجزيرة من فرسان المعبد ، الذين كانوا بدورهم قد اشتروها من ريتشارد قلب الأسد ، الذى كان قد تملكها بالفتح فى القرن الثانى عشر .

ومنذ سنة ١٣٦٠ كان بيير لوزنيان ملك قبرص يحاول أن ينفخ فى رماد الحروب الصليبية . ويدعو دول أوربا المسيحية إلى استخلاص الأراضى المقدسة من أيدى الدولة المصرية التى كانت تبسط سلطانها فى عهد المماليك الأتراك على مصر والشام ، وبرغم أن معظم الدول الأوربية قد أصمت أذنها عن دعوته ، فقد استطاع بيير لوزنيان أن يجمع حوله من المتطوعين والمرتزقة من نواحى أوربا ، وقام بعدة هجمات على شواطئ مصر والشام ، حاز فى بعضها انتصارات وقتية غير ذات بال ، وانتهت

هذه المحاولات بالفشل التام وآل أمر بيير نفسه إلى الموت غيلة سنة ١٣٦٩ بتدبير من أخيه الذى أراد أن يخلفه على العرش . ويطلق بعض المؤرخين على هذه الهجمات وغيرها مما شهده القرن الرابع عشر من المحاولات الصليبية المتأخرة اسم « شبح الحروب الصليبية » .

(٢)

وكان للإسكندرية نصيب من هجمات الصليبيين القبارصة على سواحل مصر والشام ، إذ جاءوها غازين فى أكتوبر سنة ١٣٦٥ ، ولا غرو فإن للإسكندرية من موقعها الجغرافى وأهميتها التجارية ما كان حرياً أن يلفت إليها أنظار المهاجمين .

وتقول المصادر : إن بيير لوزنيان كانت له خطة من وراء غزو الإسكندرية ، مؤداها الاستيلاء على المدينة ، ثم المقايضة عليها بمدينة القدس ! وقد قام شخصياً بزيارة بلاط أكثر من ملك من ملوك أوربا ، محاولاً إقناعهم بفكرته والحصول منهم على الدعم المالى والعسكرى ، ومن ذلك رحلته إلى لندن فى أكتوبر سنة ١٣٦٣ ، حيث استقبله ملك إنجلترا إدوارد الثالث وكان فى لندن وقتها جان الثالث ملك فرنسا ، ودافيد الثانى ملك إسكتلندة ، وكأن اجتماع هذا العدد من ملوك أوربا للاستماع إلى ملك قبرص كان بمثابة « مؤتمر قمة » مصغر للتنسيق والإعداد للحملة الصليبية على الإسكندرية .

وهذه الحملة على طرافتها وأهميتها لم تظفر من المؤرخين بكبير عناية ، بل إن قلة ما وصلنا من أخبارها أدت إلى اختلاف بين المؤرخين ، سواء القدامى

أو المحدثين – فى بعض تفاصيل هذه الغزوة التى تعتبر الغزوة الوحيدة التى تعرضت لها الإسكندرية من البحر طوال العصور الوسطى ، بل إلى عهد الحملة الفرنسية باستثناء محاولة فاشلة قام بها فرنج صقلية سنة ٥٦٩ هـ (١١٦٧ م) . . إذ قدموا الإسكندرية فى أسطول كبير ، وتمكنوا من النزول إلى البر خارج الأسوار ، ولكنهم سرعان ما انقلبوا على أعقابهم مهزومين .

وهناك لحسن الحظ مرجعان هامان لتاريخ غزوة القبارصة سنة ١٣٦٥ : أحدهما بقلم أجنبى ، والثانى بقلم مصرى ، وكلاهما معاصر . . بل إن أحدهما كان شاهد عيان .

وأول هذين المرجعين هو الملحمة الشعرية الطويلة التى نظمها جيوم دى ماشو شاعر ملك قبرص ، المعروفة باسم « الاستيلاء على الإسكندرية » . . وهى منظومة بلغة فرنسية عتيقة لاتخلى الباحث من بعض المشقة فى تتبعها وتفهم معانيها ، والظن الغالب أن شاعر ملك قبرص لم يكن مصاحباً للحملة ، وإنما نظم هذه الملحمة فيما بعد على أساس ما سمعه من الملك ورفقائه من روايات عنها . . وقد طبعت هذه الملحمة فى جنيف سنة ١٨٧٧ .

والمرجع الثانى هو لكاتب من أهل الإسكندرية ، هو محمد بن القاسم ابن محمد النويرى ، شهد غزوة القبارصة وكتب عنها كتاباً بعنوان : « الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقوع الإسكندرية » . . . ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً ، ومنه نسخة فى مكتبة برلين ، توجد منها نسخة مصورة فى كل من دار الكتب بالقاهرة والمكتبة البلدية بالإسكندرية ، وحبذا لو قيض لهذا الكتاب من الباحثين من يحقق نصه وينشره مطبوعاً حتى تعم به الفائدة ، فإن فيه مادة غزيرة ليس فقط عن هذه الفترة وإنما عن تاريخ

الإسكندرية وجغرافيتها فى العصر الإسلامى عموماً ، وذلك لكثرة الاستطرادات التى عمد إليها المؤلف كعادة الكثير من الكتاب فى ذلك العهد .

وأسلوب النويرى فى هذا الكتاب ليس من الأساليب العالية ، فهو يعكس طابع العصر المملوكى من ضعف الديباجة وطغيان الصنعة الركيكة على الطبع السليم .

وسيكون جل اعتمادنا فى هذا الفصل على هذين المرجعين ، إذ فيهما من التفاصيل عن غزوة الصليبيين القبارصة ما ليس فى غيرهما من المراجع ، ولا غرو فقد توفر للشاعر الفرنسى وللمؤرخ السكندرى ما لم يتوفر لغيرهما من العلم المباشر بالوقائع التى تناولاها ، وسيبين من اتفاق هذين المرجعين فى كثير من الحوادث ما وقع فيه سائر المؤرخين من أخطاء فى بعض تفاصيل تاريخ هذه الغزوة وعلى الأخص مدة احتلال القبارصة لمدينة الإسكندرية .

(٣)

ولئن كانت حملة بيير لوزنيان على الإسكندرية – منظوراً إليها من المدى الزمنى الذى يفصلنا عنها – ذيلاً من ذيول الحروب الصليبية فإن النويرى وهو المعاصر لها يورد لها مقدمات لا يمكن اعتبارها أسباباً للحملة بالمعنى الصحيح ؛ إذ أغلبها أقرب إلى الظروف الثانوية المشجعة منها إلى الأسباب الأصلية المنشئة ، وها هى بالترتيب الذى أوردها به النويرى فى الأوراق من ٩٣ إلى ٩٧ من المخطوطة . .

١ – إن السلطان الصالح صلاح الدين بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون كان قد منع النصارى من تولى الأعمال بالدواوين ، وألزمهم بلبس خشن الثياب ، وأن تلبس نساؤهم الأزر الزرق تمييزاً لهن عن نساء المسلمين ، وقد أدى هذا المسلك نحو النصارى إلى تهجم عوام المسلمين عليهم بالضرب والإهانة ؛ يقول النويرى : « فكان ذلك – والله أعلم – سبباً لهيجان القبرسي وطوافه بأرض الرومانية وجمعه للصوص وحشره بهم إلى الإسكندرية » .

٢ – إن « بطرس صاحب قبرص » (كما يسميه النويرى) كان قد أرسل إلى السلطان الملك الناصر حسن يسأله السماح له بالتوجه إلى مدينة صور ليجلس على عمود بها كعادة كل من يملك جزيرة قبرص « لأنه لا يتم له ملكها بزعمهم إلا بالجلوس على ذلك العمود » فكان رفض هذا الطلب من البواعث على شن الحملة على الإسكندرية .

٣ – إن مركباً فيه لصوص من الإفرنج حضر إلى ميناء الإسكندرية فى شوال سنة ٧٥٥ ، فاستولى على مشحونات بعض السفن الراسية فى الميناء ، وعاد بغنيمته من غير أن يلقى مقاومة ، فكان ذلك مما شجع بطرس على غزو الإسكندرية .

٤ – إن مركباً آخر للإفرنج هجم على « الجزيرة المقابلة لرشيد » (لعلها فى موقع القرية المعروفة الآن بالجزيرة الخضراء) وأخذ منها من المسلمين ٢٥ أسيراً ، ولم يلق أية مقاومة ، فأطمع ذلك ملك قبرص فى أخذ الإسكندرية .

٥ – إن ثلاث سفن إفرنجية أتت إلى بوقير فى ٢٧ شعبان سنة ٧٦٤ فأسر رجالها ستة وستين نفراً من أهلها بين رجال ونساء ، ومضوا بهم إلى أن افتداهم

المسلمون بالمال ، فرجعوا إلى أوطانهم ببوقير ، يقول النويرى : « فلما بلغ القبرسى فعلهم ذلك ببوقير ولم يجرد أحد من أهلها فى وجوههم سيفاً واحداً طمع فى الإسكندرية » .

٦ – إن سبع سفن للإفرنج كانت تقصد بوقير كذلك فأخطأت سبيلها ليلاً ، ووصلت إلى رشيد حيث نزل من الفرنج جماعة كبيرة فطن لها المسلمون ، وأسفر اشتباك الفريقين عن انقلاب الإفرنج فى البحر فغرقوا لما كانوا يلبسونه من الدروع الحديدية ، وبعد أيام رمى البحر بجثثهم إلى الشاطئ وكانت عدتهم ثمانين رجلاً .

٧ – ما فعلته عوام المسلمين بالإسكندرية من قتلهم الفرنج البنادقة (وقد كان من أهل البندقية تجار يترددون على الإسكندرية ، وبعضهم يقيم فيها) « فلما هم القبرصى بالعمارة على الإسكندرية أعانته البنادقة بسبب قتل المسلمين لأصحابهم بالإسكندرية » .

٨ – إن الخبر كان يبلغ ملك قبرص عن ضعف حامية الإسكندرية وعدم استعدادها للحرب لطول ما ألفت السلم . وقد كانت توجد بالإسكندرية – وبغيرها من الثغور الإسلامية – قاعات بمثابة مخازن للسلاح تقيمها الدولة أو يقيمها الأغنياء تبرعاً وقربةً ، ولكل قاعة طائفة من المتطوعين مختصون بها ، ولكل طائفة من هذه الطوائف يوم يبيتون فيه على ساحل المدينة لحراستها غير أن بعد عهدهم بالحروب جعلهم غير أكفاء للأعداء . ويتهكم النويرى بهؤلاء المتطوعين فيقول : « وكان الخبر يأتى إلى القبرصى أن الإسكندرية بها طوايف قاعات يبيتون بساحل مينتها لم يعرفوا الحرب ولا باشروها أبداً ، بل يخرجون مترينين بالملبوس ، وقد تطيلسوا من فوق العمايم التى على

الروس ، يتخطرون فى مشيتهم ، ويتطيبون بطيبهم ، فتزغرت لهم النسوان ، ويصير كل منهم بزينته فرحان ، ومعهم الأسلحة الثقال ولكن ليس تحتها لموقف الحرب رجال ، مع كل واحد منهم سيف تقلده ، مجوهر النصل جيده ، مزخرف بالذهب كجمرة نار تلتهب ، ومع ذلك حامله جبان يفزع من نعيق الغربان . . . . »

هذه هي الأسباب المؤدية بملك قبرص إلى غزو الإسكندرية كما عدَّدها النويرى فى كتابه ، أما الغزوة نفسها فقد تتابعت وقائعها من وقت وصول الأسطول الصليبي إلى حين إقلاعه راجعاً بعد إخلاء المدينة فى سرعة غريبة ، تجعل هذه الغزوة أقرب إلى أعمال السطو والقرصنة منها إلى الأعمال الحربية بالمعنى الصحيح .

(٤)

فى ٢٨ سبتمبر ١٣٦٥ أبحر بيير الأول ملك قبرص بالحملة قاصداً الإسكندرية فى سبعين سفينة ، جمعها من مختلف البلاد الأوربية ، فكان من بينها أربع عشرة سفينة من البندقية ، وسفينتان من جنوة ، وعشر سفن من رودس ، وخمس سفن من فرنسا ، والباقى من قبرص . فوصل إلى الإسكندرية يوم الخميس ٩ أكتوبر ١٣٦٥ الموافق ٢١ المحرم سنة ٧٦٧ ، وكان على عرش مصر آنذاك الملك الأشرف شعبان ، وهو بعد طفل صغير ، وأمور المملكة فى يد مقدم الأمراء يلبغا الخاصكى ، وكان نائب الإسكندرية صلاح الدين بن عرام متغيباً عنها للحج وقد أناب عنه أميراً يسمى جنغرا ، وكان أهل الإسكندرية غير متوقعين هذه الغزوة حتى إنهم اعتقدوا عند رؤية

السفن أنها من سفن التجار البنادقة ، فلما لم ترس فى الميناء تبينوا أنها سفن معادية ، واستعدوا لملاقاة العدو الذى لم يحاول النزول إلى البر طوال يوم الخميس ، فلما كان يوم الجمعة طلع الصبح على جموع غفيرة من أهل الإسكندرية وقد خرجوا إلى الجزيرة التى بها المنار (جزيرة فاروس) — ولم يكن الشريط من الأرض الذى يصل الجزيرة بالساحل ويطل على الميناءين الشرقى والغربى ، داخلاً فى ذلك العصر فى نطاق المدينة ، بل كان خارجاً عن أسوارها ولا عمران فيه . واستعان أمير المدينة بكثير من فرسان البدو من إقليم البحيرة ، فحضروا وانضموا إلى من كان بالجزيرة من قوات حامية المدينة .

ولاشك أن خروج الحامية من البلد لملاقاة العدو خارج أسوارها كان خطأ من وجهة نظر فن الحرب ، ويروى لنا النويرى كيف أن الكثيرين نصحوا لأمير المدينة بالتحصن داخل الأسوار ، والصمود للعدو حتى تحضر الأمداد من القاهرة ، غير أن رأى القائلين بالخروج إلى الجزيرة ومنع العدو النزول إلى البر أصلاً قد تغلب على الرأى المخالف ، وفى ذلك ما يشير إلى استهتار المدافعين عن الإسكندرية بقوة العدو ، وثقتهم فى إمكان منعه من النزول إلى البر ، وهو ظن كشفت الحوادث عن عدم صحته .

أمر ملك قبرص بنزول القوات الصليبية إلى البر صباح يوم الجمعة فى الساعة التاسعة ، فتقدم قارب يحمل مقدمة الجيش يريد الوصول إلى البر ، فخاضت إلى الماء فرقة من المدافعين عن الإسكندرية ، ودارت بينهم وبين ركاب القارب معركة فى الماء نجد وصفاً مفصلاً لها لدى كل من النويرى وجيوم دى ماشو وانجلى هذا الاشتباك عن تغلب القوة الصليبية ، وما لبث

أن توالى نزول القوات الصليبية إلى البر ، ويقدر ماشو عددها بثمانية آلاف ، واشتبك الفريقان اشتباكاً كانت الغلبة فيه للمهاجمين ، إذ امتازوابتنظيم دقيق كان يعوز المدافعين عن المدينة ، كما امتازوا باستكمال السلاح والعدة مما لم يكن للمدافعين عن الإسكندرية مثله . يقول النويرى « وكانت الفرنج لابسين الحديد من الفرق إلى القدم ، والمسلمين كلحم على وضم ، فكيف يقابل اللحم الحديد ؟ وكيف يبرز العارى لمن كسى الزرد النضيد ؟ » فانحازت فلول القوات المدافعة إلى ناحية السور ، وتمكنت من دخول البلد من باب الخوخة ، وقفلت ذلك الباب قبل أن تتبعهم إلى الداخل قوات الأعداء .

(٥)

ولم يخل هذا الاشتباك الذى وقع خارج الأسوار من مواقف بطولة فردية نوه بها النويرى برغم ما يبديه من سخط على خطة الدفاع فى مجموعها . ومن هؤلاء الأبطال أشخاص من عامة الشعب السكندرى ، هبوا للدفاع عن مدينتهم واستشهدوا فى سبيلها يذكر منهم النويرى جزاراً اسمه محمد الشريف « هجم على الفرنج بساطور المجزرة وجعل عظام جماعة منهم مكسرة وهو يقول الله أكبر قتل من كفر إلى أن تكاثرت عليه منهم جماعة كبيرة ، فاستشهد رحمه الله بالجزيرة » ومن هؤلاء الأبطال المجهولين فى تاريخ الإسكندرية فقيه كتاب يقال له محمد بن الطفال رؤى « وهو قاصد الفرنج بسيفه فقيل له تموت يا فقيه محمد فقال إذن أسعد وأصير مجاور النبى محمد ، وأى موتة أحسن من الجهاد فى سبيل الله لأصير إلى الجنة ! وهجم فيهم فصار

يضربهم ويضربونه إلى أن رزق الشهادة ، وختم له بالسعادة » . (الورقة ١٠٣ ب) . كما يشيد النويرى ببطولة جماعة من متطوعة قاعة القرافة ، كانوا مرابطين برباط ابن سلام ، وهو من الربط المقامة فى الجزيرة لأغراض الدفاع فيروى كيف قاتلوا الفرنج حتى نفدت سهامهم ، فصاروا يخلعون أحجار شرفات الرباط ويضربون الأعداء بها إلى أن اقتحم عليهم الأعداء الرباط وأفنوهم عن آخرهم ذبحاً بالخناجر ، « فصارت أدميتهم (دماؤهم) تجرى من ميازيب الرباط المذكور كجرى الأمطار حين أبانها منها . » .

انهزم المدافعون عن الإسكندرية إذن ولاذوا بأسوارها ، وأغلقوا أبوابها دون العدو ، فعقد بيير لوزنيان مجلس حرب على الشاطئ يدون خبره دى ماشو بالتفصيل ، واختلفت فى ذلك المجلس الآراء بين محبذ للهجوم ومشير بالعودة ، وكانت الغلبة للرأى الأول الذى ناصره الملك ، وأعلن بيير عن ثلاث جوائز مالية للثلاثة من جنوده الذين يسبقون إلى اقتحام السور ، وحاول المهاجمون حرق باب البحر فردتهم سهام المدافعين من فوق السور ، فاتجهوا ناحية باب الديوان — وكان السور عنده خلواً من الرماة — فأحرقوه وتدفقوا إلى المدينة ، وكان ذلك فى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥ .

ولما أيقن أمير المدينة جنغرا أن الإسكندرية سقطت فى يد الأعداء أخلد ومن معه إلى الفرار ، وتبعهم سكان الإسكندرية فارين من أبواب البر ، وأهمها باب السدرة وباب رشيد . ويصف النويرى من أهوال الفزع والازدحام لدى الأبواب والتهالك على الفرار ما يثير الأشجان ، وقد فر النويرى فيمن فر من سكان المدينة إلى القرى المجاورة . ولذلك تنقطع أخبار الغزوة عند

النويرى ولا نراه يذكر شيئاً من التفاصيل اللهم إلا عن أعمال التخريب والنهب وصنوف القسوة التى عمد إليها الصليبيون ، وهى كلها مما شاهده المؤلف بعد عودته إلى المدينة أوسمعه ممن شهده ولكنه لم يكن شاهدها .

وتستغرق هذه التفاصيل المؤلمة أوراقاً بأكملها من كتاب « الإلمام » ويبدو منها أنه لم ينج من التخريب فنادق تجار الإفرنج أنفسهم من البنادقة والكتلانيين والجنونيين ، فقد نهبها الصليبيون وخربوها فيما خربوا من منشآت المدينة .

غير أن ماشو يخبرنا عن الشيء الكثير مما دار فى المدينة بعد دخول الصليبيين إليها من المناوشات التى استغرقت نهار الجمعة كله ، ثم ليلة السبت ، كما يصف أعمال القتل والنهب والتخريب التى استفرغ فيها المهاجمون جهدهم ، ويقدر ماشو عدد القتلى بأكثر من عشرين ألفاً ، ويقول : إن الإسكندرية لم تشهد مذبحة كهذه من عصور الفراعنة » (البيت ٢٩٧٨ من الملحمة) .

على أن غزاة الإسكندرية لم يكونوا مجاهدين على طراز الصليبيين الأول ، فقد كانت شعلة الحرب الصليبية قد انطفأت وإنما كان هؤلاء خليطاً من المغامرين وطلاب المغانم . فبعد أن نقلوا إلى سفنهم كل ما وجدوه فى المدينة من المال والبضائع ذات القيمة تفرقوا عن قائدهم ، ورجعوا إلى سفنهم ، وطالبوا بالإقلاع عائدين . فشعر بيير بأن الموقف يكاد يفلت من يده فاصطحب مندوب البابا المصاحب للحملة يطوف بسفينة يخطب الجنود ويحرضهم على البقاء ولكن دون أن يلقى منهم أذناً صاغية . ويورد ماشو هذه الخطب بالتفصيل فى الأبيات ٣٥٨٦ وما بعدها من ملحمته ضمن

حوادث يوم السبت ١١ أكتوبر سنة ١٣٦٥ ويقول : إن الملك ظل أياماً يحاول أن يقنع جنوده بالعودة إلى احتلال المدينة والبقاء فيها فلما لم يجد جدوى أقلع عائداً إلى قبرص والأسى ملء فؤاده .

(٦)

ويبدو أن هذا الانحلال الذى كان يسود صفوف الحملة الصليبية واختلاف الرأى بين الملك وبين جنوده لم يكن معروفاً لدى الجانب المصرى ، فالنويرى لا يشير إلى ذلك كله بشيء وإنما يعزو بقاء السفن فى البحر أمام الإسكندرية بعد انسحاب الجنود من البلد إلى أنهم كانوا يرقبون وصول المدد من القاهرة ، فلما أقبل المدد فى يوم الخميس ٢٨ محرم سنة ٧٦٧ (١٦ أكتوبر سنة ١٣٦٥) أقلعوا راجعين .

وهنا نصل إلى تحديد النقطة التى اختلف فيها قدامى المؤرخين ومحدثوهم وهى مدة احتلال الصليبيين القبارصة لمدينة الإسكندرية . فالمعروف أن سفنهم وصلت يوم الخميس ٩ أكتوبر ، وهاجموا المدينة ودخلوها يوم الجمعة ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥ ، غير أن مدة احتلالهم الفعلى للمدينة لم يتفق عليها المؤرخون ، فابن كثير يقول إنها خمسة أيام ، وابن إياس يقول إنها أربعة أيام ، وهو يخطئ فوق ذلك فى تحديد يوم الموقعة فيقول إنها كانت يوم الجمعة ١٣ صفر سنة ٧٦٧ فيؤخرها عن تاريخها الصحيح قرابة شهر . أما المؤرخون المحدثون فمنهم من يحدد مدة الاحتلال بسبعة أيام (عطية) ، ومنهم من يذكر أنها كانت أربعة أيام (الشيال) ، ومنهم من يقول إنها ثلاثة أيام (على إبراهيم حسن) . .

على أن مراجعينا المعاصرين للحملة الذين توفر لهما من العلم بها ما لم يتوفر لسواهما يجمعان على أن مدة الاحتلال كانت أقل من يومين ؛ إذ بدأ بعد ظهر يوم الجمعة وانتهى بانتهاء يوم السبت ، فالنويرى يقول إن ملك قبرص جاء إلى الإسكندرية فى يوم الجمعة الثانى والعشرين من المحرم سنة ٧٦٧ « فنال الخبيث قصده فى ذلك اليوم والذى بعده » . ويقول فى موضع آخر « القبرصى أتى بعمارته إلى الإسكندرية فظفر بها وتمكن جيشه منها من بعد صلاة الجمعة إلى آخر يوم السبت ثانية » . أما ماشو فصريح كذلك فى أن نهاية يوم السبت ١١ أكتوبر ١٣٦٥ شهدت اعتصام الجنود بالسفن وإعلانهم الرغبة فى العودة بعد أن نالوا ما كانوا يريدون من الأسلاب والمغانم ، وبذلك يحق القول بأن الصليبيين القبارصة لم يحتلوا الإسكندرية فعلاً إلا يومين أوأقل من بعد ظهر يوم الجمعة إلى نهاية يوم السبت . ولعل سبب الاختلاف فى تحديد مدة الاحتلال هو بقاء الأسطول فى البحر أمام المدينة أياماً بعد انسحاب الحملة من البلد فتوهم من بلغه ذلك من المؤرخين المعاصرين أن الاحتلال دام طوال تلك الأيام ، وعن هؤلاء انتقل الخطأ إلى المؤرخين المحدثين .

وهكذا عاد بيير لوزنيان بحملته وقد أخفقت بالنظر إلى أهدافها الصليبية غير أنها أوقعت بالإسكندرية كارثة تعتبر من أكبر ما نزل بها من كوارث فى تاريخها الطويل . فقد تعرضت المدينة لما لا يوصف من التخريب والتدمير الذى لم تفق من عقابيله إلا بعد زمن مديد . غير أن هذه الغزوة كانت إيذاناً ببدء سلسلة من الأعمال الحربية التى قامت بها دولة المماليك ضد مملكة قبرص انتهت بزوال استقلالها ، إذ سقطت نقوسيا العاصمة فى أيدى

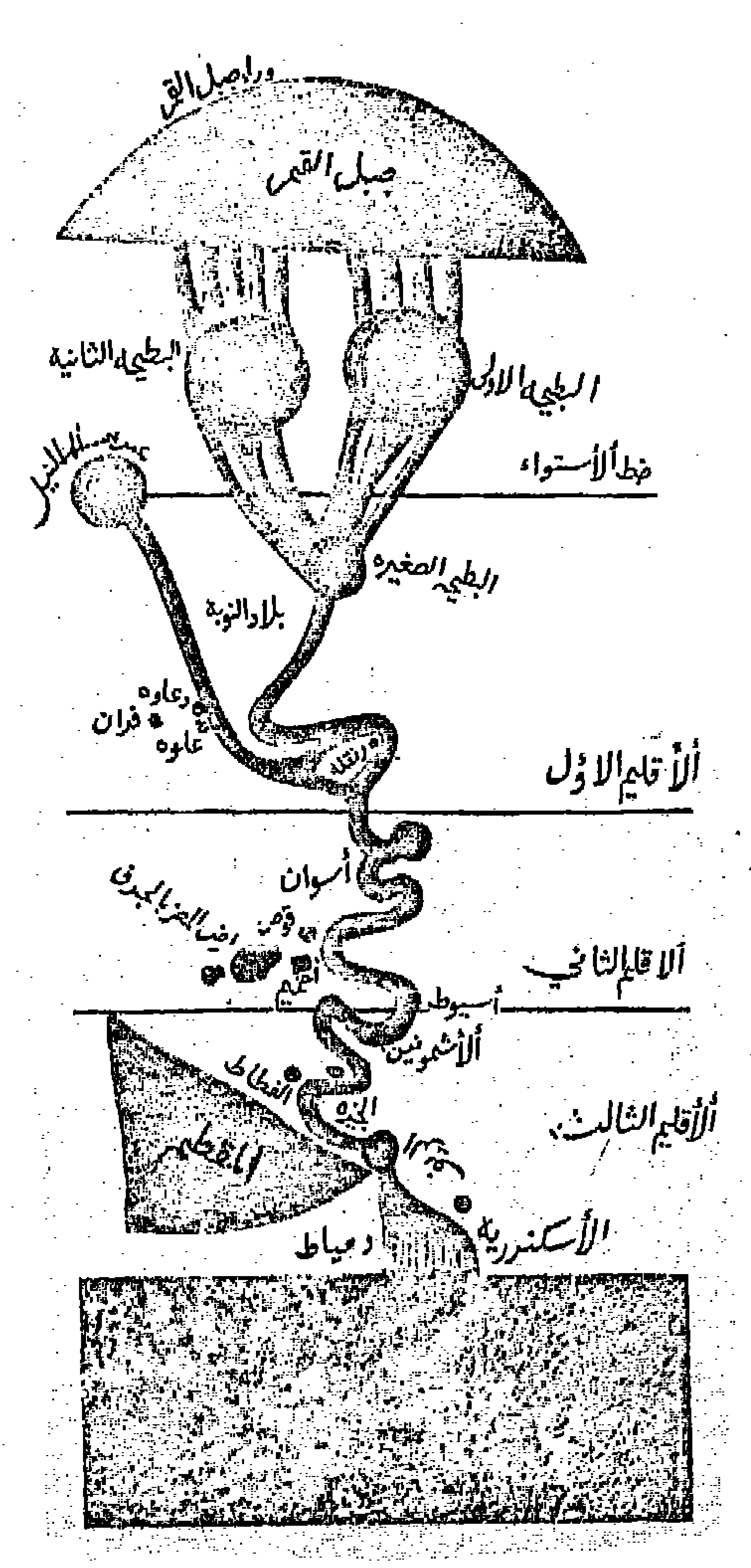
القوات المصرية سنة ١٤٢٦ وأسر الملك جان لوزنيان الذى ظل فى القاهرة أسيراً إلى سنة ١٤٣٢ حين أعيد إلى عرشه بشرط دفع جزية سنوية لمصر قدرها ٥٠٠٠ دوكا ذهبية وظلت جزيرة قبرص تدفع هذه الجزية السنوية لمصر حتى بعد انقراض أسرة لوزنيان واستيلاء البندقية على الجزيرة ، واستمر دفع هذه الجزية إلى مصر حتى الفتح العثمانى سنة ١٥١٧ ، فصارت تدفع بعد ذلك إلى الباب العالى .

نهرُ النّيل
فى تاريخ الفكر الجغرافى

منذ وجد الإنسان على ظهر الأرض ، وكفى همومه العاجلة من غذاء وكساء ، شغل نفسه بعالمه الأرضى ، وكون فى ذهنه صورة عن ذلك العالم ؛ لا شك فى أنها كانت فى البداية غامضة المعالم ، تغلب فيها الظلمة على النور ، ثم تدرجت تلك الصورة فى الوضوح ، وتوالى انقشاع الظلام عن ركن بعد ركن من عالم الإنسان ، بقدر ما كان الإنسان يحرز نصراً بعد نصر فى سعيه للسيطرة على بيئته ، فأصبحت الصورة التى فى ذهنه عن الأرض تزداد وضوحاً ، وتتسع شمولاً على مر العصور .

ودراسة تاريخ الجغرافيا ، لتتبع تطور المعلومات الجغرافية على مدى الأزمان ، تعتبر من أمتع الدراسات وأكثرها طرافة ؛ إذ أنها تلقى الضوء على فكرة البشر عن هذا العالم ، كيف بدأت ؟ وأية صورة اتخذت ؟ وكيف خلصت على الزمن من الأغلاط والأوهام ، إلى أن أصبح علم الجغرافيا فى عصرنا الحديث يعطينا صورة دقيقة لعالمنا الأرضى من مختلف نواحيه .

ومنذ تدفق النيل من منابعه إلى مصبه ، وتفتحت عليه أعين البشر ملأ ذلك النهر الدنيا وشغل الناس ، وكان من أسبق الموضوعات إلى استرعاء انتباه الجغرافيين الأقدمين . ولا غرو فعلى ضفتى النيل قامت حضارة من أقدم

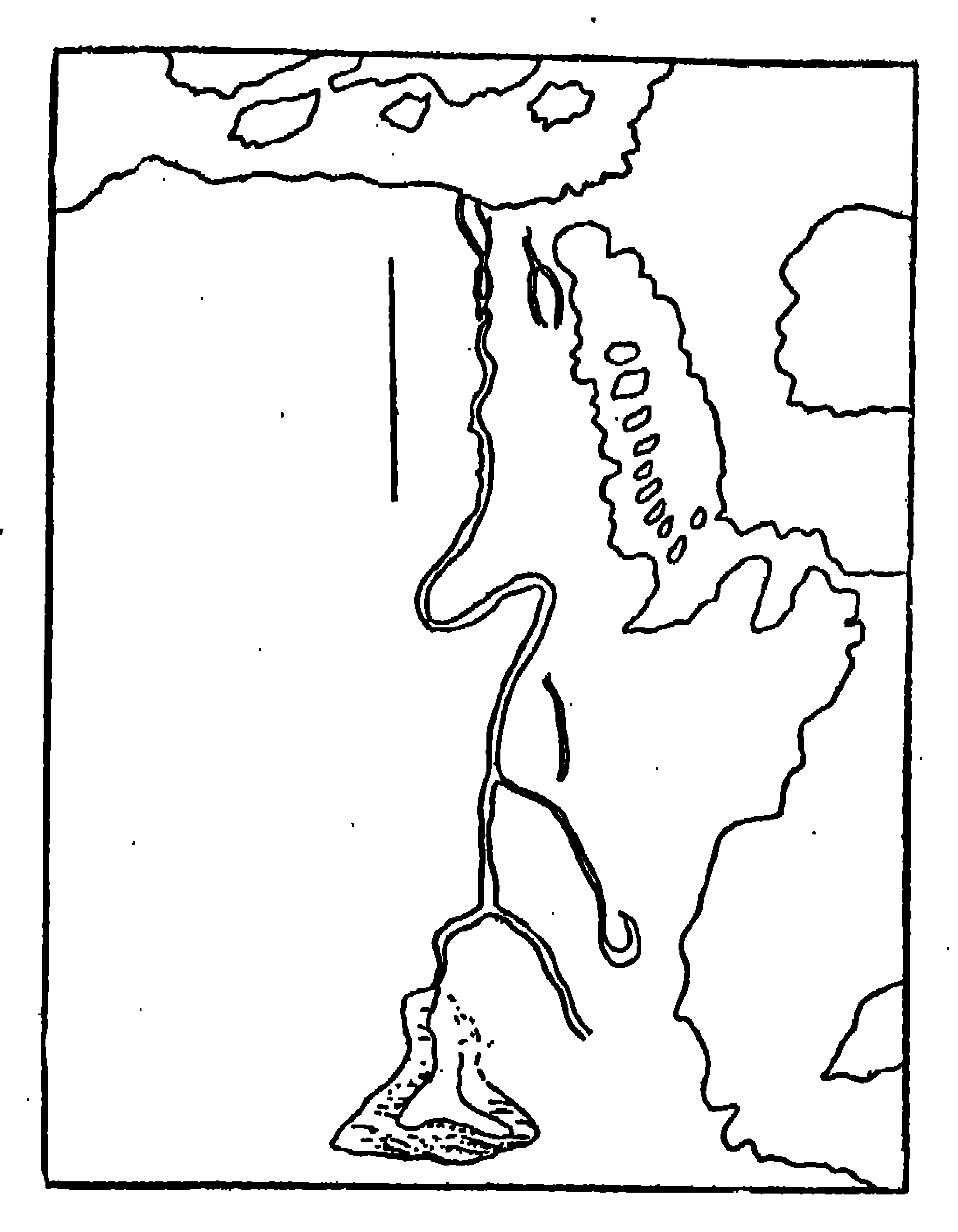


خريطة النيل للخوارزمى المتوفى سنة ٢٠٥ هـ وهذه الخريطة شأنها شأن الخرائط العربية القديمة يجب أن ينظر إليها والصفحة معكوسة لأن اتجاه الشمال لأسفل

الحضارات التى شهدها العالم ، كما أن النهر نفسه بطوله العظيم وفيضانه الرتيب كان جديراً بأن يستلفت الأنظار ، وهكذا تساءل الناس عن نهر النيل – من أين ينبع ؟ وأى اتجاه يتخذ مجراه حتى يصب فى البحر ؟ وما علة فيضانه السنوى المنتظم ؟ إلى غير ذلك من المسائل التى ظل بعضها من مشكلات علم الجغرافيا زمناً طويلاً ، وبخاصة مسألة منابع النيل التى لم ينقطع الجدل حولها إلا فى القرن الماضى فقط عقب الكشوف المعروفة .

والمصريون القدماء كانوا – ولا ريب – أحق الناس بالبحث فى أمر النيل ، ومحاولة الإجابة على ما يثيره النيل من أسئلة ، فكيانهم ذاته كان مرتبطاً بذلك النهر الذى ألّهوه عرفاناً بفضله عليهم ، وينقل إلينا العلامة ماسبيرو فكرة المصريين القدماء عن النيل ، وهى : أنه يتفرع من النهر السماوى الذى كانوا يتصورونه محيطاً بالعالم ليسبح فيه إله الشمس فى رحلته اليومية حول الأرض ، فحيث يلتف هذا النهر السماوى حول العالم من الجنوب كانت مياهه تنحدر فى شلال عظيم هو منبع نهر النيل ، وحلقة الاتصال بين ذلك النهر السماوى وبين النهر الأرضى الذى كان اسمه عند القدماء « حابى » أما اسم « النيل » فقد أطلقه الإغريق على النهر ، إذ كانوا يسمونه « نيلوس » ، وعنهم انتقل هذا الاسم إلى اللغات كافة ، واشتقاق اسم نيلوس فى اللغة الإغريقية غير واضح ، ويرجعه بعض الباحثين إلى كلمة فارسية (نيل) بمعنى أزرق .

على أن « أبا التاريخ » هيرودوت ينقل لنا عن المصريين القدماء صورة أخرى لمنابع النيل ، تباين العقيدة الأولى التى أسلفنا بيانها ، وهيرودوت قد زار مصر سنة ٤٥٧ ق . م وتابع النيل جنوباً حتى قرب موقع



خريطة النيل لبطليموس السكندرى من القرن الثانى الميلاد

أسوان ، ووصف مجرى النيل من مصبه إلى ذلك الموقع ، أما إلى الجنوب من ذلك ، فقد نقل هيرودوت ما سمعه فى مصر من روايات عن مجرى النهر ومنابعه ، التى يقال إنها تقع فى مناطق لم يصل إليها أحد ، لشدة الحرارة فيها ، وإن دونها مناطق حارة كذلك يسكنها قوم من الأقزام .

وقد كان هيرودوت شديد الحرص على معرفة كل ما كان يمكن معرفته فى ذلك الوقت عن منابع النيل ، فسأل الكهنة والكتبة وغيرهم من أهل العلم ، فلم يظفر عند أحد منهم بطائل ، ولم يجد بغيته إلا عند كاتب بمدينة سايس ، ذكر لهيرودوت أن النيل ينبع من عين ماء تغذى بحيرة عميقة الغور تقع بين جبلين لهما قمتان مدببتان ، وأحد الجبلين يسمى « موفى » والآخر يسمى « كروفى » وأضاف الراوى أن الفرعون أبسماتيك حاول أن يسبر غور البحيرة فلم يتمكن من ذلك برغم استعماله أطوالاً كبيرة جداً من الحبال ، أما عن موقع تلك البحيرة بين الجبلين ، فقد قال محدث هيرودوت : إنها تقع إلى الجنوب من أسوان ، وإن مجرى آخر يصدر عن تلك البحيرة متجهاً إلى الجنوب .

ولم تلق هذه الرواية ذات المصدر الواحد اهتماماً كبيراً ، لا من هيرودوت ، ولا ممن جاء بعده من الجغرافيين . على أنه مما يناسب هذا الموضع أن نشير إلى أن جغرافياً معاصراً هو الدكتور نويل همفريس قام فى سنة ١٩٣١ باستكشافات جديدة فى جبال رويتزورى استعان فيها بالطائرات ، وبالتصوير الفوتوغرافى من الجو ووصل — ضمن نتائج استكشافاته — إلى ما اعتقد أنه تأييد لرواية الكاتب المصرى القديم لهيرودوت ، وهو يرى أن تلك الرواية تصور معلومات جغرافية قديمة

وصلت إلى ذلك الراوى ، الذى خلطها ببعض الحواشى كقصة محاولة أبسماتيك سبر غور البحيرة كما وقع فى بعض أغلاط أهمها تحديده موقع البحيرة والجبلين اللذين يحفان بها تحديداً خاطئاً إلى الشمال من موقعهما بكثير .

يقول الدكتور همفريس (١) : إنه إذا استبعدنا مما رواه لنا هيرودوت تلك الحواشى والأغلاط خلصت لنا حقائق طبوغرافية تؤيدها الاكتشافات الحديثة ، وتشير إلى علم قديم بتلك النواحى ، ربما كان قد وصل إلى المصريين القدماء عن طريق العرب السبئيين الذين كانوا منذ القدم يستعمرون ساحل إفريقية الشرقى ، وكانت لهم رحلات إلى الداخل ؛ لا يبعد أن يكونوا قد وصلوا فيها إلى منطقة البحيرات العظمى .

أما التطابق بين ما يخلص من تلك الرواية القديمة وبين ما وصلت إليه الاكتشافات الحديثة فيراه الدكتور همفريس ماثلاً فى البحيرة الصغيرة التى تقع بين قمة جيسى وقمة أمين (٢) ، وهما القمتان الشماليتان لكتلة روينزورى الجبلية ..

---

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية – المجلد ٨٢ (سنة ١٩٣٣) ص ٥١٠ – ٥١١ وانظر الخريطة ص ٥٠٨ .

(٢) تحمل هاتان القمتان اسم اثنين من رجال الحكومة المصرية الأجانب اللذين خدما فى السودان ، وكان لهما شأن فى اكتشافات منابع النيل فى العصر الحديث ، أولهما – رومولوجيسى باشا الإيطالى ، وكان من قواد الجيش المصرى تحت قيادة جوردون . والثانى – أمين باشا الألمانى ، الذى كان يحمل قبل اعتناقه الإسلام اسم « إدوارشنيتزر » وكان الحاكم المصرى على مقاطعة خط الاستواء .

وقد شاهد همفريس تلك البحيرة بين هاتين القمتين المدببتين ، فرأى أمام عينيه صورة مطابقة للوصف الذى نقله إلينا هيرودوت ، ولهذا انتهى إلى أن الجبلين اللذين تسميهما الرواية المصرية القديمة « موفى » و « كروفى » هما جبلا « جيسى » و « أمين » وتقع بينهما بحيرة صغيرة تمد نهر « رواموليى » وهو من روافد نهر « سمليكى » الذى يصب فى بحيرة البرت .

ونعود إلى تتبع أفكار القدامى عن النيل ، فنجد أن « هيكاتيوس » — وهو من الجغرافيين الإغريق الأولين — يرى أن النيل يتصل فى الجنوب بالنهر الذى كانوا يتصورونه محيطاً بالمعمورة كالدائرة ، ويسمونه « أوقيانوس » أما فيضان النهر فقد أرجعه « تاليس » فى القرن السادس قبل الميلاد إلى هبوب الرياح الشمالية على سواحل مصر فى فصل الصيف ، فإنها كانت — فيما يرى — تمنع مياه النهر من أن تصب فى البحر المتوسط ، وبذلك كانت تسبب الفيضان . . .

وفى القرن الثالث قبل الميلاد كانت الإسكندرية ميداناً لنشاط علمى كبير ، وكان من بين علمائها أمين مكتبتها الشهيرة « إراطوسطين » الذى يلقب بأبى الجغرافيا العلمية ، وقد قام هذا العالم الرائد بعمل خريطة حوالى سنة ٢٥٠ ق . م ، رسم فيها مجرى النيل إلى جنوبى موقع الخرطوم الحالى (وهو الحد الذى كانت تقف عنده معظم الخرائط الجغرافية حتى سنة ١٨٣٩) رسماً قريباً من الصحة بوجه عام ، وأوضح فى هذه الخريطة نهرى : عطبرة والنيل الأزرق ، وأشار إشارة عابرة فى بعض كتاباته إلى أن النيل ينبع من بحيرات تقع فى خط الاستواء ،

كما كان « إراطوسطين » أول من أشار إلى أن فيضان النيل يرجع إلى هطول الأمطار فى المناطق الاستوائية ، وهى الفكرة التى عاد إليها من بعده عالم سكندرى آخر هو « أجاثاركيدس » (١٧٠ — ١٠٠ ق . م تقريباً) فحددها وزادها وصوحا ، بأن قرر أن سبب فيضان النيل هو الأمطار الغزيرة التى تسقط صيفاً على جبال إثيوبيا ، وهو ما قرر من بعد الجغرافى الشهير « إسطرابون » (٦٣ق.م — ٢٤ م تقريباً) أنه ثبت قطعاً بالمشاهدة والعيان للبعثات التى كان البطالسة يرسلونها إلى الحبشة لصيد الفيلة .

والذى لا شك فيه أن « إراطوسطين » كانت لديه فكرة عن مجرى النيل ومنحنياته أصح بكثير مما كان عند سلفه من الجغرافيين ، ولهذا العالم السكندرى سبق علمى عظيم سيظل مقروناً باسمه مدى الدهر ، إذ كان أول من قدر محيط الكرة الأرضية بطريقة علمية سليمة ، وكان تقديره قريبا جداً من الصحة ، وقد كانت مصر ميداناً لهذا السبق العظيم الذى جرى ما بين الإسكندرية وأسوان على وجـه لا نستطرد هنا إلى بيانه ، فهو يخرج عن موضوع بحثنا .

ولم يخل أمر الجدل حول منابع النيل فى تلك العصور القديمة من منادين بآراء هى أقرب إلى الأساطير ، ومن ذلك ما يروى عن بعض المصاحبين لحملة الإسكندر الأكبر عند فتح الهند حوالى سنة ٣٢٦ ق . م ، من أنهم حين شاهدوا التماسيح فى نهر السند سبق إلى أذهانهم أن ذلك النهر لابد وأن يكون المجرى الأعلى للنيل ، لأن التماسيح فى ظنهم ما كانت توجد إلا فى النيل ، وهكذا توهموا أنهم أزاحوا الستار عن منابع النيل الغامضة ، وذهبوا تبعاً لذلك إلى أن قارتى آسيا وإفريقية تلتقيان فى مكان

ما من الجنوب ، وهكذا لا يكون المحيط الهندى إلا بحراً داخليًّا تحيط به اليابسة من الجهات كافة .

ويقال إن الإسكندر أمر ببناء أسطول ضخم بقصد استعمال « النيل » كطريق للعودة إلى مصر فاليونان ، ثم عدل عن ذلك العزم حين سمع من بعض الأهلين الذين وصلوا إلى مصب النهر الهندى أن ذلك النهر لا يستمر فى جريانه غرباً ، وإنما يصب فى المحيط .

ويبدو أن الاتصال الموهوم بين النيل والسند ، والاعتقاد بأن النيل ينبع من الهند ، وأن نهر السند هو مجراه الأعلى كان له أصل عند الفرس من قبل زمن حروب الإسكندر ، إذ يروى عن أردشير الثالث (٣٥٩ – ٣٣٧ ق . م) أنه حين تململت مصر تحت النير الفارسى ، وتتالت فيها الثورات فكر فى تحويل مجرى نهر السند ، ليمنع مياهه من أن تصل إلى مصر فيؤدب بذلك المصريين العصاة بحرمانهم من ماء النيل سرّ حياتهم (١) ، ولعل الأصل الفارسى لهذه الفكرة يفسر وجودها من بعد عند كاتب عربى مثل الجاحظ – كما سنرى – إذ يكون قد تلقاها ضمن ما انتقل إلى العرب من تراث الفرس ومعارفهم .

ومن الأحاديث التى كانت شائعة عن النيل ، وليست فى التحقيق بشىء ما كان القدماء يظنونه من وجود فرع جوفى لنهر النيل يتفرع عن مجراه الرئيسى جنوبى أسوان ، ويسير فى جوف الأرض تحت الصحراء الغربية فى خط يصل بين الواحات المتفرقة فيها ، وأن مياه الواحات هى من ذلك النهر الجوفى الذى يصب فى البحر تحت الأرض أيضاً .

---

(١) هرمان ص ١١٦ .

ويبدو أن الأساطير الشعبية لم تخل من أثر لهذا الفرع الجوفى للنيل ، إذ يحدثنا الدكتور هيرست فى كتابه « النيل » أن نوتياً من أهل النوبة حدثه عن تاجر كان مسافراً فى النيل ، فغرقت سفينته قرب أسوان ، وفقد أمتعته ، ومن بينها إناء من خشب كان يستعمله فى متناول طعامه ، وفى السنة التالية كان ذلك التاجر يحمل بضاعته إلى واحات الصحراء الغربية ، وبينما كان يملأ دلوه من بئر فى إحدى الواحات إذا به يرى إناءه بعينه طافياً على سطح ماء البئر ، وقد حمله إلى هناك تيار الماء فى فرع النيل الجوفى الذى يتفرع عن المجرى الرئيسى ، قريباً من المكان الذى غرقت فيه سفينة صاحبنا التاجر ، ويسير فى جوف الأرض تحت الصحراء خـلال واحاتها المختلفة .. وقد كان هذا الفرع الجوفى الموهوم يظهر فى الخرائط الجغرافية القديمة ، وظل يصور فى بعضها إلى سنة ١٨٦٠ .

والواقع أن خرائط إفريقية حتى ذلك الوقت لم تكن تختلف كثيرا عن مثيلاتها قبل قرابة قرنين سابقين ، حين قال الشاعر الساخر جوناتان سويفت فى جغرافيي عصره أبياته المعروفة :

يمـــلأ الجغـــرافيـــون
يصور الحيوانات المفترســة
فجوات خرائط إفريقيـــة
وعلى السفـــوح الموحشـــة
يضعـــــون الفيـــلة
إذ تعوزهـــم المـــدن . .

ولعل أقرب معلومات القدماء عن النيل إلى الصحة ما كتبه بطليموس السكندرى فى القرن الثانى الميلادى ، فقد نقل بطليموس من كتابات جغرافى يسمى « مارينوس الصورى » من مدينة صور – اندثرت كتبه ، ولم يبق لنا منها إلا ما نقله بطليموس – نقل أن تاجراً يونانياً يدعى « ديوجين » كان يرتاد الساحل الإفريقى الشرقى ، وزنجبار حدثه أنه بالسير إلى الداخل غرباً لمدة خمسة وعشرين يوماً يصل الإنسان إلى بحيرتين عظيمتين وجبال تكللها الثلوج ، وأن هذه المنطقة هى منبع النيل ، ويستطرد بطليموس فيقول : إن مياه النيل مصدرها ذوبان ثلوج تلك الجبال التى يسميها « جبال القمر » ، ويحدد موقعها بجنوب خط الاستواء باثنتى عشرة درجة ونصف الدرجة ، ويصف مجرى النيل من منبعه إلى مصبه وصفاً يقرب من الصحة بوجه ملحوظ .

وقد أثبتت الأيام أن معلومات بطليموس صحيحة فى مجموعها ، فيما عدا تحديده موقع البحيرتين العظيمتين إلى الجنوب من موقعهما الصحيح ، أما البحيرتان ذاتهما فيرى كثير من العلماء المحدثين أنهما بحيرتا فكتوريا وألبرت ، وأما جبال القمر فيرون أن المقصود بها كتلة رونزورى الجبلية تكللها الثلوج ، وتقع إلى الجنوب من بحيرة ألبرت .

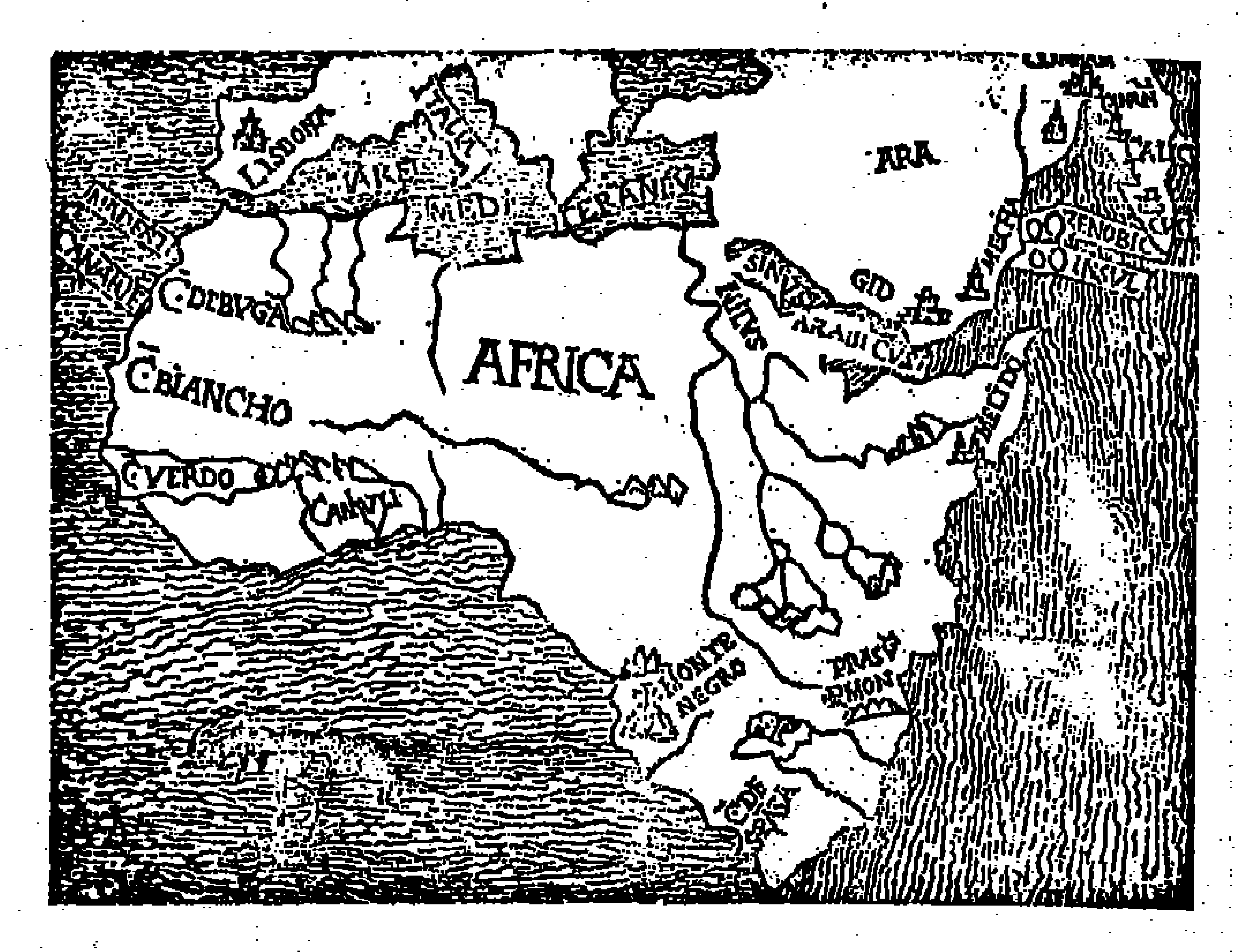
وقد سادت نظريات بطليموس طوال أربعة عشر قرناً بعد عصره ، وأثرت فى الفكر الجغرافى فى العصور الوسطى تأثيراً بالغاً ، سواء عند العرب الذين كانوا يعتبرون « صاحب المَجِسْطى » أستاذاً وإماماً ، أو عند الأوربيين الذين نقل إليهم العرب أفكار بطليموس ، ولئن كانت كتابات جغرافيي العصور الوسطى من العرب وغيرهم لا تخلو

من فائدة وطرافة ، فإن تراث بطليموس كان قطب الرحى الذى تدور حوله تلك الكتابات ، ولا يعدو الصواب من يقول : إن صورة نهر النيل لم يكد يطرأ عليها تغيير جوهرى منذ عصر بطليموس إلى زمن الاكتشافات الحديثة .

انتقلت إلى العرب معلومات القدماء عن نهر النيل ، بما فيها من علم صحيح بلغ أوجه عند بطليموس ، وبما فيها كذلك من أساطير وأغلاط وأحاديث قصاص ، فإذ نجد وصف النيل عند الجغرافيين العرب الكبار كالخوارزمى (المتوفى سنة ٢٠٥ هـ) والمسعودى (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ) وياقوت (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) وغيرهم مطابقاً لما جاء به بطليموس نجد كاتباً كالجاحظ يردد الوهم الذى كان يربط بين النيل والسند ، ويعتبر نهر السند من فروع النيل أو المجرى الأعلى للنيل ، وذلك فى كتاب « الأمصار وعجائب البلدان » [١] غير أن المسعودى ينبرى لتفنيد هذا الوهم تفنيداً لم يرفق فيه بالجاحظ ، فيقول :

« قد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذى هو نهر السند من نيل مصر ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، فلست أدرى كيف وقع له هذا الدليل . . ! لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا تقرى الممالك والأمصار ، وإنما كان حاطب ليل ، ينقل من كتب الوراقين . أو لم يعلم أن نهر مهران

(١) مخطوط لا تعرف منه إلا نسخة واحدة بالمتحف البريطانى ، تحت رقم ١١٢٩ – ويحدثنا المستشرق شارل بيللا أنه بصدد نشر هذا الكتاب – انظر مجلة « أرابيكا » المجلد الثالث (١٩٥٦) ص ١٥٤ .



أول خريطة منفصلة لأفريقية وقد طبعت فى البندقية سنة ١٥٠٧ ويلاحظ اتجاه أفرع النيل ناحية الجنوب والشرق

السند يخرج من أعين مشهورة من أعالى بلاد السند من أرض القنوج من مملكة بؤروة وأرض كشمير والقندمار والطاقن ، حتى ينتهى إلى بلاد المولتان . . . . ثم ينتهى نهر مهران إلى بلاد المنصورة ، ويصب نحو بلاد الديبل فى بحر الهند » (١) . . .

ومن الأغلاط التى نجد صداها عند بعض العلماء العرب الأولين

(١) انظر مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٩٩ .

تعليل الفيضان السنوى للنيل بأثر الرياح الشمالية ، إذ ينقل ياقوت عن محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى صاحب كتاب « خطط مصر » قوله :

« من عجائب مصر النيل جعله الله سقيا يزرع عليه ، ويستغنى به عن مياه الأمطار فى أيام القيظ ، إذا نضبت المياه من سائر الأنهار ، فيبعث الله فى أيام المد الريح الشمال ، فيغلب عليه البحر الملح فيصير كالسكر (أى السد) له ، حتى يربو ويعم الربى والعوالى ، ويجرى فى الخلج والمساق ، فإذا بلغ الحد الذى هو تمام الرى بعث الله الريح الجنوب ، فكبسته وأخرجته إلى البحر الملح ، وانتفع الناس بالزراعة مما يروى من الأرض » .

على أن ياقوتاً لا يسلم بهذا التعليل للفيضان ، فهو يدرك أنه يرجع إلى هطول الأمطار ، حيث ينبع النهر فيقول :

« أما سبب زيادته فى الصيف فإن المطر يكثر بأرض الزنجبار وتلك البلاد فى هذه الأوقات بحيث ينزل الغيث عندهم كأفواه القرب ، وتنصب السدود إلى هذا النهر من سائر الجهات ، فإلى أن يصل إلى مصر ، ويقطع تلك المفاوز يكون القيظ ، ووجه الحاجة إليه ، كما دبره الخالق عز وجل » .

وياقوت فى روحه العلمية ومنزعه العقلى ، يروى بعض أحاديث القصاص عن النيل ؛ لا مصدقاً لها ، ولا معتقداً صحتها ، وإنما يحكيها استيفاءً للموضوع ، ويعقب عليها بمثل قوله :

« هذا خبر شبيه بالخرافة وهو مستفيض ، ووجوده فى كتب

الناس كثير ، والله أعلم بصحته وإنما كتبت ما وجدته » .

أو مثل قوله فى موضع آخر :

« وفى أخبار قصاص المسلمين أشياء عجيبة تضيق بها صدور العقلاء ، إنما أحكى بعضها غير معتقد بصحتها » .

و « معجم البلدان » حافل بهذه النظرات النقدية النفاذة التى تشهد لياقوت بأنه كان عالماً عقلياً من الطراز الأول .

هذا وقد أشار المسعودى فى « مروج الذهب » (ج ١ ص ٣٤٠ — ٣٤١) باختصار شديد إلى اختلاف الأقوال فى تعليل فيضان النيل ، وأردف قائلاً :

« وقد ذكرنا التنازع فى النيل وزيادته ممن سلف وخلف على الشرح والإيضاح . . فى كتاب أخبار الزمان فى الفن الثانى ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الكتاب » .

ومما يؤسف له أن أيدى الحدثان لم تبق على كتاب « أخبار الزمان » ، فلم يصل إلينا ذلك المؤلف الضخم الذى كثيراً ما يشير إليه المسعودى فى « مروج الذهب » مكتفياً بالإحالة إليه ، عن النقل منه ، ولو وصل إلينا ذلك الكتاب المطول الذى يقع فى ثلاثين مجلداً ، فربما وجدنا فيه من أخبار النيل ما ليس فيما دون حجمه من كتب علمائنا الأوائل .

وردّد السيوطى فى « حسن المحاضرة » الأقوال المختلفة فى تعليل الفيضان ، فقال :

« قال قوم إن زيادته من ثلوج يذيبها الصيف ، وعلى حسب مدّها تكون كثرته وقلته ، وذهب آخرون إلى أن زيادته بسبب أمطار كثيرة تكون

ببلاد الحبشة ، وذهب آخرون إلى أن زيادته عن اختلاف الريح » .

ويبدو أن السيوطى يختار من هذه التعليلات المختلفة . التعليل الصحيح إذ يقول فى موضع آخر :

« قال آخرون ، وهو الظاهر ، إن سببه كثرة المطر والسيول ببلاد الحبش والنوبة ، وإنما يتأخر وصوله إلى الصيف لبعد المسافة » .

أما وصف مجرى النيل ومنابعه عند الجغرافيين العرب فهو كما قدمنا يتمشى وما أورده بطليموس – فالمسعودى مثلا يقول :

« رأيت فى الجغرافيا (يعنى كتاب بطليموس) النيل مصوراً ظاهراً من تحت جبال القمر ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنتى عشرة عيناً ، فتصب تلك المياه إلى بحيرتين هناك كالبطائح ، ثم يجتمع الماء جارياً ، فيمر برمال هناك وجبال ، ويخترق أرض السودان مما يلى بلاذ الزنج ، فيتشعب منه خليج ينصب إلى بحر الزنج . . . ويجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ ، وقيل ألف فرسخ ، حتى يأتى أسوان من صعيد مصر وإلى هذا الموضع تصعد المراكب من فسطاط مصر ، وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار يجرى النيل فى وسطها ، ولا سبيل إلى جريان السفن فيه هناك ، وهذه الجبال والمواضع فارقة بين مواضع سفن الحبشة فى النيل ، وبين سفن المسلمين ، ويعرف هذا الموضع من النيل بالجنادل والصخور ، ثم يأتى النيل الفسطاط ، وقد قطع الصعيد . . ثم يمضى جارياً فينقسم خلجانات إلى بلاد تنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية كل يصب فى البحر الرومى » .

أما ياقوت فيقول :

إن نيل مصر ينبوعه من وراء خط الاستواء من جبل هناك ، يقال له جبل القمر » .

ثم يضيف أنه :

« يأتى من بلاد الزنج فيمر بأرض الحبشة مسامتاً لبحر اليمن من جهة أرض الحبشة ، حتى ينتهى إلى بلاد النوبة من جانبها الغربى والبجة من جانبها الشرقى ، فلا يزال جارياً بين جبلين بينهما قرى وبلدان والراكب فيه يرى الجبلين عن يمينه وشماله ، وهو بينهما بإزاء الصعيد حتى يصب فى البحر » .

وأنت ترى أن البحيرتين أو البطيحتين هما اللتان عند بطليموس ، وموقعهما من وراء خط الاستواء هو وجبال القمر التى يذكرها بطليموش نجدهما كذلك عند جغرافيينا العرب ، وعلى الجملة فأثر بطليموس فيما كتب العرب عن النيل جد واضح ، ويكفى أن نقارن خريطة بطليموس بخريطة الخوارزمى مثلاً ، لكى ندرك أن الخطوط الرئيسية للخريطتين واحدة .

وقد أكثر الأقدمون من الكلام فى جبال القمر ، ولم سميت بذلك الاسم ؟ وأغلب تعليلاتهم تدور حول القمر الذى فى السماء ، أو حول معنى البياض ، ولم أجد منهم من أشار إلى أن من معانى لفظة القمر تحير البصر من الثلج [١] .

---

(١) انظر اللسان وغيره ، وقد أشار السيوطى فى (حسن المحاضرة حـ٢ ص ١٨٤) نقلا عن التيفاشى إلى أن جبل القمر « سمى بذلك ، لأن العين تقمر منه إذا نظرت إليه لشدة بياضه . قال ولذلك أيضاً سمى القمر قمراً » .

وهكذا عاد إلى الربط بين تسمية جبل القمر وبين معنى البياض ، ولم يستطرد إلى ما تحمله لفظة القمر (بمعنى تحير البصر من الثلج » من دلالات .

والمعروف أن الجبال المسماة بجبال القمر تكللها الثلوج الدائمة على مدار السنة ، ولاشك أن الارتباط ظاهر بين « القمر » بمعنى تحير البصر من الثلج وبين تلك الجبال التى تكللها الثلوج ، والتى أطلق عليها هذا الاسم . فإذا صح أن علة التسمية هى هذه ، وإذا ذكرنا من جهة أخرى أن كلمة القمر بذلك المعنى ليست شائعة الآن ، ولم تكن شائعة فى العصر الإسلامى الذى كتب فيه مشاهير الجغرافيين العرب ، وهى برغم ذلك موجودة فى المعاجم ، أمكن أن نفترض أنها كانت شائعة فى لغة العرب الأزمان الموغلة فى القدم ، أو أنها كانت فى الأصل من ألفاظ العربية الجنوبية التى كان يتكلمها السبئيون ، وإذا وصلنا إلى هذا أمكن أن نجد فى هذه التسمية دليلاً على ما ذهب إليه بعض الباحثين الغربيين [١] من أن فضل ارتياد منابع النيل فى القديم يرجع إلى العرب السبئيين الذين كانوا يستعمرون ساحل إفريقية الشرقى ويتوغلون فى داخلها للتجارة ولاستخراج الذهب من مناجمه ، وأن معلومات مارينوس الصورى وبطليموس السكندرى ترجع فى أصلها إلى ما عرفه العرب القدماء فى رحلاتهم تلك عن البحيرات العظمى وعن الجبال التى تحير فيها بصرهم من بياض الثلج ، فسموها « جبال القمر » . . .

وقد طرأ على قصة النيل فى القرون الوسطى لبس غريب ، إذ أصبح بعض الجغرافيين والرحالة العرب يعتقدون أن نهر النيجر فرع من نهر النيل ، أو أنهما ينبعان من منبع واحد ويسمون النيجر « نيل الزنج » أو نيل

---

(١) جونستون « البحث عن النيل » ص ١٧ و١٨ و٣٩ و٤٤ وهمفريس المرجع السابق الموضع المذكور .

السودان بالمقابلة لنيل مصر ، ولا شك فى أن هذا اللبس لم يكن شائعاً قبل القرن السابع الهجرى ، إذ لا نجد عن ذلك شيئاً عند ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، على تقصيه وتتبعه أطراف موضوعاته ، واستعانته بكتب من سبقه من الجغرافيين ، وإنما نجد هذا الخلط عند الإدريسى فى وصفه للإقليم الأول [1] ، كما نجده عند كاتب متأخر كابن الوردى صاحب « خريدة العجائب » المتوفى سنة ٨٥٠ هـ الذى يقول :

« ويخرج النيل (من البطيحة) نهراً واحداً ويفترق فى أرض النوبة ففرقة إلى أقصى المغرب ، وعلى هذه الفرقة غالب بلاد السودان. (أى الزنوج ، ولا يعنى القطر السودانى الحديث) والفرقة التى تنصب إلى مصر منحدرة من أرض أسوان تنقسم فى مجرة البلاد على أربع فرق كل فرقة إلى ناحية ، ثم يصب فى بحر الإسكندرية » .

وهو فى هذا ينقل فيما يبدو عن الإدريسى .

ويستحكم هذا اللبس عند ابن بطوطة الذى رحل إلى إفريقية الغربية سنة ٧٥٣ هـ وارتاد ما يسمى الآن نيجريا ، وركب نهر النيجر الذى لا يدعوه إلا بالنيل ، فيقول :

---

(١) لم يكن الإدريسى من مراجع ياقوت بالرغم من تقدمه عنه قليلاً فى الزمان (توفى الإدريسى سنة ٥٤٨ هـ وياقوت سنة ٦٢٦ هـ) ولذا جاء معجم البلدان خلواً من الخلط بين النيل والنيجر . وقد يبدو غريباً أن ياقوت لم يطلع على الإدريسى ، ولكن الغرابة قد تزول إذا ذكرنا أن ياقوتاً مشرقى ، عاش وكتب ومات فى الشرق ، وأن الإدريسى مغربى ، ولد فى المغرب الأقصى وتعلم بالأندلس ، وكتب بجزيرة صقلية فى ظل ملكها النورمندى « روجر» ولذا يطلق أحياناً على « نزهة المشتاق » اسم « الكتاب الرجارى »

« ثم سرنا من زاغرى فوصلنا إلى النهر الأعظم ، وهو النيل ، وينحدر النيل منها إلى كابرة ثم إلى زاغة . . ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تنبكتو ثم إلى كوكو إلى بلدة مولى وهى آخر عمالة مالى ، ثم إلى يوفى وهى أكبر بلاد السودان . . ثم ينحدر منها إلى بلاد النوبة . . ثم إلى دنقلة . . ثم ينحدر إلى جنادل هى آخر عمالة السودان وأول عمالة أسوان » .

ويقول فى موضع آخر :

« ومن تنبكتو ركبت النيل فى مركب صغير منحوت من خشبة واحدة ، وكنا ننزل كل ليلة بالقرى فنشترى ما نحتاج إليه من الطعام . . إلخ » .

ويقول :

« ثم سرت إلى مدينة كوكو ، وهى مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها »

وقد استقر فى الأذهان فى العصور الوسطى المتأخرة هذا الخلط بين النيل والنيجر ، سواء عند العرب أو عند الأوربيين ، حتى إن البرتغاليين الذين وصلوا إلى إفريقية الغربية فى القرن الخامس عشر الميلادى ، واكتشفوا مصب النيجر اعتقدوا أنهم عثروا على مصب الفرع الغربى للنيل ، بل إن بعض الرحالة الأوربيين الذين كتبوا فى مطلع القرن التاسع عشر كانوا يظنون أن النيجر هو النيل ، ولم يتبدد هذا اللبس تماماً إلا حين تقدم القرن التاسع عشر نحو نهايته ، وتم استكشاف نهر النيجر من منبعه إلى مصبه ، وثبت أنه نهر مستقل لا علاقة له بالنيل . ولا يجوز أن نتهم الإدريسى أو غيره من جغرافيى العرب أو رحالتهم بأنهم خلقوا هذا اللبس وابتدعوه إذ نجد له أصلاً فيما نقله الجغرافى

الرومانى القديم « بلنيوس » عن الملك العالم « يوبا » الثانى ملك موريتانيا المتوفى حوالى سنة ٢٠ للميلاد من إشارة إلى أن النيل ينبع من غرب مراكش غير بعيد من المحيط ، ويسير شرقاً ، ثم يمضى فى مجراه المعروف فى النوبة ومصر ، فلعل الإدريسى ومن تابعه تلقوا هذه الرواية وزادوا عليها أو حوروا فيها ، ولعل الرحالة العرب كابن بطوطة حين شاهدوا النيجر وحيوانه المماثل لحيوان النيل كتمساح وفرس النهر (ويصفهـا ابن بطوطة فى رحلته وصفاً طريفاً) وقع فى نفوسهم أن هذا لابد وأن يكون الفرع الغربى للنيل .

وقد استمر اهتمام الجغرافيين العرب بالنيل خلال القرون ،غير أن متأخريهم لم يضيفوا شيئاً يذكر إلى ما جاء به متقدموهم ، بل كان بعضهم ينقل عن بعض ، مع تفاوت فى الإضافة والاختصار ، وقام بعضهم بتصنيف مؤلفات خاصة بالنيل كما فعل أحمد بن يوسف التيفاشى صاحب « سجع الهديل فى أخبار النيل » وكما فعل أحمد ابن محمد بن عبد السلام المنوفى ، الذى ألف فى مطلع القرن التاسع الهجرى كتاباً بعنوان « الفيض الجديد فى أخبار النيل السعيد » وهو مخطوط بدار الكتب المصرية جمع فيه مؤلفه أقوال المتقدمين وبعض مشاهداته ، غير أنه لم يأت بجديد يضاف إلى معلوماتنا فى شأن النيل .

وجملة القول إن العلم بالنيل فى العصور الوسطى لم يكد يزيد عما قرره بطليموس فى القرن الثانى الميلادى ، ولعل أهم تقدّم حققته العصور الوسطى فى هذا الصدد كان يتعلق بالنيل الأزرق ومنبعه فى بحيرة تانا ، فقد أمكن للرهبان والرحالة البرتغاليين بحكم رحلاتهم

إلى الحبشة أن يعرفوا الكثير عن النيل الأزرق وعن بحيرة تانا ، وأن يشاهدوا عن كثب ظاهرة فيضان النيل ، وظهر أثر تلك المعلومات الجديدة فى الخرائط الجغرافية التى نشرت فى ذلك العهد كخريطة الإيطالى « فيليبوبيجافيتا » المنشورة سنة ١٥٨٠ .

وعندما قدمت حملة نابليون إلى مصر كان يصحبها — كما هو معروف — فريق من رجال العلم قضوا سنوات الاحتلال الفرنسى الثلاث بين ختام القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، فى دراسات متعددة الجوانب خلفت لنا ثماراً علمية طيبة ، وكان لابد لعلماء الحملة الفرنسية من الاهتمام بأمر النيل ، بل إنه قد شكلت منهم لجنة اختصت بشئون النهر وفيضانه ، وقامت بدراسات مختلفة ، جغرافية وهيدرولوجية وكيماوية وغيرها ، وكانت هذه اللجنة تضم العلماء لـــوبير Le Père ودولوميو Dolomieu وكوستاز Costaz ودوتيرتر Dutertre وتاليان Tallien ونـــورى Norry . وتعطينا بحوث هؤلاء العلماء وتقاريرهم المجموعة فى كتاب « وصف مصر » صورة كاملة لما كان يعرفه العالم عن النيل قبيل الاكتشافات الحديثة ، وهو — من الناحية الجغرافية — لا يكاد يجاوز ما تلقيناه عن بطليموس ، إذ يحدثنا لوبير عن منابع النيل فيردّد كان يتناقله الناس من أنها تقع على السفح الشمالى لجبال تسمى « جبال القمر » وينتهى من بحثه إلى القول بأن المثل الذى كان قد ضربه الشاعر الرومانى «كلوديان » لكل مسعى خائب أو مطلب عقيم وهـــو « البحث عن منبع النيـــل » Quaererecaput Nili لا يـــزال محتفظاً بكل دلالته ! . أما عن مجرى النهر إلى الجنوب من مدار

السرطان فيقر لوبير بأن علماء الحملة الفرنسية لم يتسن لهم أن يصعدوا فيه ، ولا أن يمدوا ميدان دراساتهم إلى بلاد النوبة ، ولهذا السبب أيضاً تقف الخرائط التى رسمها رجال الحملة التي يضمها الأطلس الملحق بكتاب وصف مصر عند ذلك الموضع دون أن تتجاوزه إلى الجنوب ، وعن سبب فيضان النهر السنوى المنتظم نجد عند علماء الحملة الفرنسية الخبر اليقين ، إذ يطرحون اختلاف الأوائل فى سبب الفيضان جانباً ويقررون أنه يرجع إلى هطول الأمطار الغريزة على بلاد الحبشة[1] وهو ما كان معروفاً من قبل ، وإذن فلم تضف جهود علماء حملة نابليون جديداً إلى العلم فى هذا الصدد .

وهكذا كان النيل الأزرق أسبق إلى كشف أسراره ورفع النقاب عن وجهه من النيل الأبيض الذى لم يبذل للناس ذات نفسه ، ولم يطلعهم على حقيقة صورته ، ويكشف لهم سر منابعه إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، عقب الاكتشافات الكبرى المعروفة التى تعتبر قصتها موضوعاً برأسه ، لم نقصد هنا إلى تناوله ، وهو قريب المنال لمن يبحث عنه فى مظانه المبذولة لكل قارئ .

(١) وصف مصرج ١٨ ص ٥٧٦ وج ٢٠ ص ٣٢٦ (الطبعة الثانية) .

أهم المراجع

ابن بطوطة – تحفة النظار ، فى غرائب الأمصار .
ابن الوردى – خريدة العجائب ، وفريدة الغرائب .
الإدريسى – نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق .
السيـوطى – حسن المحاضرة ، فى أخبار مصر والقاهرة .
المسعـودى – مروج الذهب ، ومعادن الجوهر .
يـاقوت – معجم البلدان .

Ball, John : Egypt in the Classical Geographers, Cairo 1942.

Crawford, O.G. : Some Medieval Theories about the Nile, in The Geogr. Jour. Vol. 114, (1949) pp. 6—29.

Herrmann, Paul : Conquest by Man, New York 1954.

Humphreys, N. : Ruwenzori, Flights and Further Explorations, in The Geogr. Journ. Vol. 82 (1933) pp. 481—514.

Hurst, H.E. : The Nile, London 1952.

Johnston, H. : The Nile Quest, London 1903.

Le Père : Mémoire sur la Vallée du Nil, dans la Description de L'Egypte, t. 18, pp. 534—645.

Toussoun, Omar : Mémoire sur l'Histoire du Nil, 3 tomes; Le Caire 1925.

من شهداء العقيدة : ميشيل سرفيه ١٥١١ – ١٤٤٣

(١)

فى القرن السادس عشر الميلادى كانت أوربا تمر بأكبر ثورة دينية عرفتها منذ قيام المسيحية ، وأبعدها أثراً ، ثورة قسمت الكنيسة الغربية قسمين ، وفرقت أتباع خليفة القديس بطرس ما بين بروتستنتى وكاثوليكى ، وكان رافعوا أعلام هذه الثورة لوثر Luther ، فى ألمانيا ، وزوينجلى Zwingli ، فى سويسرا وكالفن Calvin ، فى فرنسا ثم فى سويسرا ، وغير هؤلاء ممن لم تحفظ ذاكرة الأجيال أسماءهم ، كما حفظت أسماء هؤلاء الثلاثة الكبار .

وقد قامت تلك الثورة باسم حرية العقيدة ، ورفعت شعار التحرر من ربقة بابا روما زعماً بأنه يملى على المؤمنين إملاء فى أمور الدين ، ونادى أصحاب هذه الثورة بأن فهم الكتب السماوية حق لكل مؤمن يستقل به ولا يطيع أحداً فيه .

ومع ذلك فقد وقعت خلال تلك الثورة المتحررة – وبأمر من أحد قادتها العظام الأحرار – مأساة ميشيل سرفيه الذى طورد واضطهد ، ثم قتل حرقاً ، لأن له فى طبيعة الذات الإلهية رأيا حرًّا يخالف رأى الكنيسة الجديدة المتحررة الثائرة .

وهذه الظاهرة – ظاهرة انقلاب المنادين بالحرية ، إلى منكرين

للحرية على من خالفهم – كثيرة الحدوث فى تاريخ البشرية ولعل تفسيرها أن هؤلاء لفرط إيمانهم بما ينادون به يتوهمون أنه وحده هو الحق ، وأنهم دون غيرهم حملة هذا الحق ، وأن من خالفهم فيه ضال ، إذا تعذرت هدايته فقد وجب – لوجه الحق – القضاء عليه .

(٢)

ولـــد ميشيل سرفيه Michel Servet (أو سرفيتوس Servetus كما هى الصيغة اللاتينية لاسمه) .

ولد فى التاسع والعشرين من سبتمبر سنة ١٥١١ فى فيلانوفا من إقليم أراجون بإسبانيا لأب إسبانى ، وأم من أصل فرنسى ، وكان أبوه موثقاً للعقود ، قضى الجانب الأكبر من حياته فى بلدة فيلانوفا بآراجون ، حيث نشأ الصبى ميشيل .

وكان مقرَّراً له أن يدرس القانون كأبيه ، ولكن القدر رسم له طريقاً آخر .

وإذا كان فى كل إسبانى شيء من دون كيشوط – كما يقولون – فإن بطلنا كانت فيه من البطل الخيالى مشابه كثيرة ، بدنية ونفسية ، كنحافة بنيته ، وشحوبه ، ولحيته المدببة ، وكحماسه واندفاعه فى نصرة ما يعتقد أنه حق ، وإن كان الناس كلهم على خلافه .

طلب ميشيل سرفيه العلم فى سرقسطة ، وفيها عرفه الأب خوان دى كوينتان واعظ الإمبراطور شارلكان ، فألحقه بخدمته سكرتيراً خاصاً

واصطحبه إلى تولوز ، وفيها تجلى ولع الشاب المتفتح الذهن بالإلهيات ، وصار يتجادل فيها مع علمائها الكاثوليك والبروتستنت ، ورحل مع مخدومه إلى أوجسبورج فى ألمانيا لحضور مجمعها الشهير الذى صيغت فيه البنود الثمانية والثلاثون التى هى عماد عقيدة الكنيسة اللوثرية .

كان ذلك فى سنة ١٥٣٠ ، وفى ذلك الجو العاصف الذى كان الجميع فيه مهتمين بتقويم العقيدة ، وإصلاح الكنيسة ، كان لسرفيه فى ذلك كله رأى يخالف آراء معاصريه الذين كان يرى أنهم لم يسيروا فى تقويم العقيدة إلى الغاية ، فقد كان سرفيه – وهو بعد فى العشرين من عمره – مقتنعاً بأن مجمع نيقية الذى أقر عقيدة التثليث فى القرن الرابع ، وجعل منها أساس المسيحية قد أخطأ جانب الصواب ، وأن التوحيد هو وحده العقيدة السليمة ، ولم يكتف سرفيه بهذا اليقين الذى وصل إليه ، بل حاول جاهداً أن يقنع الآخرين به ، فاتصل بكبار علماء الإلهيات فى كثير من بلاد أوربا ، محاولاً إقناعهم بصحة رأيه ، وبضرورة بناء العقيدة الجديدة على أساس التوحيد ، فلم يستمع إليه منهم أحد ، بل ثارت عليه ثائرتهم ، واتهموه بالكفر ونبزوه بأنه يهودى أو مسلم .

ولقد كان لغير سرفيه من تلك الحملة التى واجهته ما يكفى لإقناعه بأن السلامة فى السكوت ، ولكن أنىّ لصاحبنا أن يسكت وبين جنبيه يعتمل شعور غلاب يدفعه إلى إظهار الناس على الحقيقة التى وصل إليها ، وهكذا نشر فى سنة ١٥٣١ كتابه الأول وعنوانه « غلطة التثليث » ، وأعقبه برسالة أخرى عنوانها « محاورات فى التثليث » .

(٣)

بنشر هذا الكتاب والرسالة هبت زوبعة أثارها رجال الدين البروتستنت والكاثوليك على السواء ، وتنادوا جميعاً بتكفير صاحبها ، وبضرورة معاقبته بالعقاب الذى لم تكن الكنيسة تعرف غيره لمخالفيها فى ذلك الحين ، ألا وهو الموت ، وهكذا أصبح سرفيه مطارداً فعمد إلى تغيير اسمه إلى « ميشيل دى فيلنوف » نسبة إلى بلدته فى أسبانيا ، ورحل إلى باريس لدراسة الطب ، واشتغل فى الوقت نفسه بأعمال أخرى منها تصحيح تجارب الطبع لدى بعض الناشرين ، وكتب بهذه المناسبة مقدمة قيمة لجغرافية بطليموس فى نشرة كان يجرى إعدادها فى ذلك الحين ، كما ألف كتاباً طبياً هاماً عن الأشربة ، حوى حملة قوية على الطب المعاصر ، نشأت ضده بسببها عداوات جديدة ، وألف فى سنة ١٥٣٨ كتاباً فى الفلك ، أدى إلى اتهامه أمام برلمان باريس بالزندقة ، ولكنه ظفر بالبراءة من تلك التهمة .

وتكشف هذه الجهود المتنوعة عن سعة الآفاق العقلية لدى « سرفيه » ، فقد كان لاهوتياً لغوياً طبيباً فلكياً جغرافياً ، ضرب فى كل علم من هذه العلوم بسهم وافر ، فى عصر كان طابعه ضيق الأفق ، وضحالة الثقافة ، وليس أدل على ضيق أفق معاصريه من أن الفصل الخامس عشر من كتابه « غلطة التثليث » يحوى شرحاً دقيقاً للدورة الدموية الصغرى ، ومع ذلك لم يفطن إلى أهمية هذا الاكتشاف أحد ممن تصدوا لنقد ذلك الكتاب وتفنيده ، غير أن تاريخ العلم قد سجل اسم سرفيه فى صفحاته

بوصفه مكتشف الدورة الصغرى وأول من كتب عنها فى علمهم .

قضى سرفيه سنوات عديدة فى حياته الهادئة طبيباً بين باريس وليون وفيين فى فرنسا ، دون أن يفطن أحد إلى أن هذا الطبيب الأسبانى دى فيلنوف هو بعينه « الملحد » سرفيه الذى تطالب الكنيسة برأسه .

وفى خلال تلك السنوات لم ينس سرفيه دعوته إلى التوحيد ، ولكن الظروف منعته ، أن يدعو إليها فى العلن ، وصور له حماسه لما اعتقد أنه الحق أن فى مراسلة كبار رجال الدين ما قد يؤدى إلى اقتناعهم بما يؤمن هو به ، وكان من سوء طالعه أن اختار من بين هؤلاء الذين راسلهم « كالفن » أحد مؤسسى البروتستنتية الذى كان قد غدا الحاكم بأمره فى مدينة جنيف ، بعد أن كان هو قد لجأ إليها هرباً من اضطهاد الكاثوليك فى فرنسا .

لم تقع رسائل سرفيه موقع الرضا من كالفن ، فحاول فى أول الأمر أن يقنعه بخطأ رأيه ، ثم نفض يده من أمر سرفيه ، وأحجم عن الرد عليه ، وصار يندد به فى أحاديثه ، ويتهمه صراحة بالزندقة والإلحاد ، ويتوعده — إن وقع فى يده — بصارم العقاب ، حتى إنه قال مرة : لو دخل سرفيه جنيف فإنه لن يغادرها حياً .

(٤)

فى هذه الفترة ألف سرفيه كتابه الكبير « المسيحية الجديدة » وتحت تأثير حسن الظن الذى هو بعض شيمة من يعتقدون أنهم على الحق أرسل إلى « كالفن » نسخة من مسودة ذلك الكتاب قبل نشره ،

مستطلعاً رأيه فيه ، فلم يرد عليه كالفن ، واحتفظ بالنسخة تحت يده دليلاً كتابياً على الزندقة والإلحاد . أوجس سرفيه خيفة من موقف كالفن ، وبلغته ولا شك تهديداته وتوعداته ، فكتب إليه يقول « مادمت تعتقد أننى شيطان مريد فلنضع حداً لكل هذا ، ولتغد إلىَّ مسودة كتابى » ولكن « كالفن » لم يعدها إليه .

مرت على ذلك سنوات قبل أن ينشر سرفيه كتابه هذا الذى كان يعتقد أنه يضع به أسس إصلاح دينى يفوق إصلاحات « كالفن » و « لوثر » « وزوينجلى » ، وغنى عن القول أنه نشر ذلك الكتاب الكبير – البالغ سبعمائة صفحة – سراً ، فلم يظهر فى طبعته التى نشرت سنة ١٥٥٣ ما يدل على اسم الناشر ، ولا مكان الطبع ، كما أنه لم يحو من اسم المؤلف إلا الحروف الثلاثة M.S.V. رمزاً إلى ميشيل سرفيه دى فيلنوف ، ولم تبق من تلك الطبعة الأولى فى يومنا هذا إلا ثلاث نسخ ، واحدة بمكتبة فينا عاصمة النمسا ، والثانية بباريس ، والثالثة بإدنبرة .

وما إن نشر هذا الكتاب حتى ثارت ثائرة كالفن الذى اعتبره رداً مباشراً على كتابه الذى عنوانه « نظم الدين المسيحى » ، والذى كان قد أصبح إنجيل المذهب البروتستنتى الكالفنى ، فعمد إلى استكتاب أحد أتباعه رسالة إلى أسقف فيين (حيث كان سرفيه يقيم فى فرنسا) يشى فيها بسرفيه . ويعلن فيها أنه مؤلف ذلك الكتاب ، ولاشك فى أنه ليس مما يحمد من كالفن أن يستعدى على من يخالفه فى العقيدة سلطات التفتيش الكاثوليكية التى كان هو من أوائل الثائرين عليها والهاربين من اضطهادها .

وحين وصلت تلك الوشاية إلى فيين قبض على سرفيه ولكنه تمكن من

الهرب (ولعل صديقه أسقف فيين سهل له طريقه) فكان أن اكتفت السلطات الدينية فى تلك المدينة بمحاكمة غيابية أحرق بعدها تمثال من القش يرمز إلى سرفيه ، مع بضع نسخ من كتابه ، وكان ذلك فى السابع عشر من يونيو سنة ١٥٥٣ .

(٥)

ظل سرفيه بعد ذلك طريداً تتلقفه القرى والبلدان ، ولا نعلم عن تنقلاته فى فترة هربه الشيء الكثير ، غير أنه فيما يبدو أراد أن يصل إلى إيطاليا فاختار لسبب غير مفهوم الطريق الذى يمر بجنيف وهى غلطة كبرى ، سرعان ما دفع ثمنها غالياً .

وصل سرفيه إلى جنيف فى الثالث عشر من أغسطس ، ونزل بفندق «الزهرة» ، وفى اليوم التالى — وكان يوم أحد — حضر الصلاة فى كاتدرائية جنيف ، وهذا ما كان حرياً بأن يتجنبه ، إذ يعلم أن أى غريب فى ذلك الجمع سيكون ملحوظاً ، كما يعلم أن خصمه اللدود كالفن هو الذى سيتلو الموعظة فى ذلك اليوم كعادته ، وهو لابد متعرف عليه ، إذ كانا زميلين فى طلب العلم فى باريس ، ومع ذلك كله فقد أقدم سرفيه على تلك الخطوة ولم تتخلف عنها نتيجتها المحتومة ، إذ سرعان ما قبض عليه وهو خارج من الصلاة .

وهكذا وقع خصم كالفن فى يده الباطشة ، فكان ذلك نذيراً بهلاكه ، ولو كان غير كالفن هو الآمر الناهى فى جنيف لكان قصارى ما يصيب سرفيه هو الإبعاد عن المدينة ، ولم يكن هو يريد غير ذلك ، ولكن كالفن

المتعصب لرأيه ، الحاكم بأمره ، كان يرى أن قيام سرفيه بدعوة غير تلك التى يدعو إليها جريمة كبرى يكفِّر عنها مرتكبها بحياته .

وقد كان القبض على سرفيه فى جنيف – وهو الأجنبي الذى لم يكن إلا عابر سبيل ، ولم يرتكب فى المدينة ما يؤاخذ عليه – مخالفة صارخة لكل القوانين السائدة ، ولكن ماذا تفعل هذه القوانين إزاء الحصول على ما يبغيه رئيس المدينة الروحى وحاكمها المطلق كالفن ، وهو رأس « الزنديق » سرفيه ؟

لقـــد عبر فولتير Voltaire ، ذلك المـدافع العظيم عن حرية العقيدة ، والمكافح الكبير ضد التعصب الذميم خير تعبير عما كان من الإجحـاف فى هـذا الإجراء التعسفى إذ قال : « إن القبض على سرفيه فى جنيف حيث لم ينشر كتبه ، ولم يدع إلى عقيدته ، ولم يكن من ثم خاضعاً لقضائها ، هذا القبض يعتبر عملاً همجياً وخرقاً للشرائع الدولية » . .

(٦)

غير أن ما جرى بعد ذلك كان أفظع بكثير من مجرد القبض على عابر سبيل ، فقد أحيل سرفيه إلى المحاكمة أمام مجلس المدينة ، منعقداً بهيئة محكمة جنائية ، وعبثاً نادى المتهم بأن تلك المحكمة الزمنية ليست بالجهة المختصة بنظر خلاف عقائدى ، وعبثاً حاول الحصول من قضاته على أمر يقضى بمعاملته فى السجن معاملة إنسانية ، غير تلك المعاملة القاسية التى كان يلقاها ، إذ كان مقيد اليدين والرجلين بالسلاسل

فى جب مظلم رطب ، محروماً من أقل الضرورات الصحية ، ولكن أنى لصوته أن يكون له صدى ، وخصمه والقائم بالاتهام ضده هو كالفن العظيم ؟

ومع ذلك فقد وقع دفاع سرفيه البارع موقعاً طيباً من قضاته . وأصبح الجميع يتوقعون تبرئته ، أو الحكم عليه بجزاء مخفف كالإبعاد من المدينة ، وهنا أصبح لا بد لكالفن من أن يتدخل فى المحاكمة بكل نفوذه حتى لا يصدر مثل ذلك الحكم ، ولم يكن دافعه إلى ذلك اللّدد فى الخصومة والتعصب الأعمى فقط ، بل كان له دافع آخر سياسى ، إذ كان مجلس المدينة قد حكم فى الماضى القريب ببراءة خصم آخر من خصوم كالفن هو الراهب بولسيك الذى اختلف معه فى قضية القضاء والقدر ، فقد كان بولسيك من القائلين بحرية الاختيار وكان كالفن جبرياً متعصباً ، وكان لبراءة بولسيك تأثير أى تأثير فى نفوذ كالفن الدينى ، وفى مركزه السياسى ولم يكن الموقف يتحمل براءة جديدة ينصر بها المجلس خصماً جديداً من خصوم كالفن ، على سيد المدينة ومعلمها العتيد .

طلب كالفن من المجلس الإذن بحضور المحاكمة ، فأذن له بطبيعة الحال ، وخلال جلسات المحاكمة التى طالت شهرين وثمانية أيام أمطر كالفن خصمه بالاتهامات ، ودخل معه فى متاهات المناقشات الدينية التى كانت آراء سرفيه فيها حرية بأن تصدم شعور قضاته الأتقياء ، وهكذا تمكن كالفن من تغيير مهب الريح ولم يعد الحصول على الحكم المطلوب — وهو إعدام سرفيه — بالأمر المشكوك فيه .

وفعلا صدر حكم المجلس فى السادس والعشرين من أكتوبر سنة

١٥٥٣ قاضياً بإعدام سرفيه حرقاً ، وحدد للتنفيذ اليوم التالى على ربوة « شامبل » بجنيف ، ولم يكتف كالفن بهذا « النصر » بل حاول أن يحصل على نصر أكبر بأن ينتزع من سرفيه فى ساعة يأس وقنوط اعترافاً بأنه كان على باطل ، وبأن كالفن هو صاحب العقيدة السليمة ، ولكن سرفيه أبى أن يصدر عنه مثل ذلك الاعتراف ، مفضلا أن يلقى ربه بقلب سليم ، ومنكراً على خصمه الذى انتصر قسراً على المادة فيه ، أن ينتصر كذلك على الروح وهو وحده النصر الصحيح .

فشلت إذن محاولات حمل سرفيه على إنكار عقيدته التى كرس لها حياته ، ولم يجد التلويح له بتخفيف الحكم ، أو بتغيير طريقة تنفيذه إلى ما هو أقل من عذاب النار ، وفى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم السابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٥٥٣ — خرج سرفيه من سجنه مرفوع الرأس ، وسار بين حراسه إلى ساحة مجلس المدينة ، حيث تلى الحكم على الجماهير المحتشدة ومن ثم سار فى موكب حزين إلى ربوة شامبل ، حيث نصب له الزبانية أداة الإعدام ، فربطوه فى سلاسله إلى عمود من الخشب وجمعوا من حوله الأحطاب ، ووضعوا عليها مسودة كتابه — تلك التى كان قد أرسلها إلى كالفن منذ سنوات — ونسخة مطبوعة منه ، ثم أوقدوا النار التى ظلت تساور جسد ذلك الشهيد طوال نصف ساعة ، قبل أن يلفظ الروح بعد عذاب لا يحيط به الوصف .

(٧)

وهكذا أسدل الستار على مأساة ميشيل سرفيه التى هى فى الواقع نقطة سوداء فى تاريخ كالفن ، لا تكفى لمحوها كل محاسن ذلك المصلح الدينى الكبير ، وبذلك انتهت حياة سرفيه الدنيوية ، ولكن ذكراه ظلت خالدة فى سجل أحرار العقيدة ، كما أن البذرة التى وضعها فى الحقل الدينى أثمرت بعد قرون ثمرتها فيما يعرف اليوم باسم « الكنيسة الموحدة » وهى فرقة مسيحية لها أتباع عديدون ، وبخاصة فى إنجلترا والولايات المتحدة ، وهم ينظرون إلى سرفيه نظرتهم إلى رائد عظيم ، ويعتبرونه من مؤسسى كنيستهم ومنشئ مذهبهم .

ولقد كان لنهاية سرفيه المروعة أثر بعيد فى ضمائر الناس ، فى جيله وبعد جيله ، وبخاصة أهالى جنيف الذين شعروا ولا شك بمسئوليتهم الأدبية فى سكوتهم على الظلم ، وفى تسليمهم رجلاً إلى جلاديه أن يقول ربى الله ، فأضحت مدينتهم « قرية ظالمة » – كما كانت القدس على زمن المسيح – وقد ندم عقلاؤهم على ذلك كل الندم ، وتمثل ذلك الشعور الجماعى بعد قرون من الحادث المؤلم فى النصب التذكارى الذى أقيم سنة ١٩٠٣ فى شامبل حيث أحرق سرفيه . وهذا النصب هو الذى نقرأ على أحد وجهيه هذه العبارة :

« نحن – أبناء كالفن – الموقرون لمصلحنا العظيم ، والمقرون بفضله ، والمنكرون فى الوقت نفسه لغلطة كانت غلطة عصره ، والمتمسكون كل التمسك بحرية العقيدة وفقاً لمبادئ الإصلاح والإنجيل القويمة – قد أقمنا

هذا النصب التكفيرى فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٠٣ » .

وعلى الوجه الآخر من النصب نجد اسم سرفيه وتاريخ مولده ووفاته ، وقد توجهت إلى هذا النصب ذات مرة – وبجواره شارع صغير يحمل الآن اسم سرفيه – فوجدت عنده جمعاً من الموحدين الأمريكيين ، حجوا إليه عبر المحيط ، ودارت بينى وبينهم محاورة عابرة حول عقيدة التوحيد فى ظل ذلك النصب المتواضع المقام تخليداً لذكرى شهيد التوحيد .

وليس نصب جنيف بالتعبير الوحيد عن تقدير العالم لسرفيه ، واستنكار أحرار الرأى والعقيدة لما جرى عليه ، ففى بلدة أنماس بفرنسا تمثال أقيم فى سنة ١٩٠٨ جمعت له الأموال فى اكتتاب دولى وفى « مون روج » قرب باريس نصب ثالث ، ثم هناك نصب رابع فى « فيين » التى قضى فيها « سيرفيه » جانباً من حياته وقد أقيم فى سنة ١٩١١ .

وبعد فلئن كانت التضحية الكبرى التى فرضها على سرفيه التعصب الدينى ، قد فتحت عيون الكثير من الناس على قيمة حرية العقيدة وعلى ضرورة إحلال التسامح محل التعصب ، فكفى بذلك جزاء ترضاه روح ذلك الشهيد فى عليائها بين أرواح شهداء الحق وأبطال الحرية فى كل زمان ومكان .

استکشاف

مِن أسرَار الصّحراء

الصحراء فى بسطتها واتساعها تبعث فى نفس الإنسان شتى المشاعر والانفعالات ، وهى فى انقطاعها ووحشتها ترتبط بمعنى الغموض والخفاء ، كما تثير قسوة أحوالها الإحساس بالرهبة والخوف من المجهول ؛ فلا عجب إذن أن نجد الفيافى والقفار – منذ كانت – فى نظر روادها مواطن أسرار لا تصل إلى كنهها عقولهم ، ومظنة هلاك لا ينجو منه إلا من سلم الله ، ولا عجب أن اعتبر العرب – أبناء الصحراء من قديم – صحراواتهم مواطن جان ومسارح غيلان ؛ إذ رأوا فى ظواهرها الطبيعية ما استغلق على أفهامهم ، وتمرسوا من أحوالها بما ذهبت معه أفكارهم كل مذهب ؛ حتى لم يجدوا بداً من تخيل الجن مشاركة لهم فى سكنى فيافيهم ، وتصور الغيلان والسعالى متأبدة فى قفارهم ، ومتعرضة لسالكى سبلها منهم !

وليست هذه الأوهام التى نسجتها أخيلة العرب حول الصحراء فريدة فى أساطير الشعوب على اختلاف مساكنها من المعمورة ؛ فنحن نعرف أن سكان الجبال من الشعوب الأوربية كانوا يؤمنون بوجود ما أسموه « رجل الجبل » ، وتدور حوله أقاصيصهم وحكاياتهم ، كما نعرف أن أقاصيص سكان مناطق الغابات تدور حول « أقزام » يقطنون الأحراج ، منهم الطيب ومنهم الخبيث ، وليست الشقة ببعيدة بين غيلان العرب وسعاليهم ورجل الجبل أو أقزام الغاب . فإن ذلك كله نتاج

تأثير البيئة الخلوية – صحراوية كانت أم جبلية أم غيرها – على مخيلة الإنسان ثم انتقال تلك الانطباعات والأوهام من جيل إلى جيل ، وتوارثها زماناً بعد زمان .

ولم يفت علماء السلف مثل هذا التفسير الذى نشير إليه ، إذ نجد منهم من يقول :

« إن ما تذكره العرب وتنبئ به من ذلك إنما يعرض لها من قبل التوحد فى القفار ، والتفرد فى الأودية ، والسلوك فى المهامه الموحشة ؛ لأن الإنسان إذا صار فى مثل هذه الأماكن وتوحد تفكر ، وإذا هو تفكر وجل وجبن ، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية والسوداوية الفاسدة ، فصورت له الأصوات ، ومثلت له الأشخاص وأوهمته المحال بنحو ما يعرض لذوى الوسواس . . لأن المتفرد فى القفار والمتوحد فى المروت مستشعر للمخاوف ، متوهم للمتالف ، متوقع للحتوف ؛ لقوة الظنون الفاسدة على فكره وانغراسها فى نفسه ؛ فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به واعتراض الجان له » [1] .

ومن قبله قال الجاحظ[2] :

« كان أبو إسحاق (يعنى أستاذه النظام وكان يكثر من النقل عنه) يقول فى الذى تذكره الأعراب من عزيف الجان وتغول الغيلان : أصل هذا الأمر وابتداؤه أن القوم لما نزلوا ببلاد الوحش عملت فيهم الوحشة ، ومن انفرد وطال مقامه فى البلاد والخلاء والبعد من الأنس

---

(١) المسعودى – مروج الذهب جـ٢ ص ١٦٠ .

(٢) الحيوان جـ٦ ص ٧٧ – ٧٨ .

استوحش ، ولا سيما مع قلة الاشتغال والمذاكرين ، والوحدة لا تقطع أيامهم إلا بالمنى أو بالتفكير ، والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة . . وإذا استوحش الإنسان مثل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت أخلاطه ، فيرى ما لا يرى ، ويسمع ما لا يسمع ، ويتوهم على الشيء الصغير الحقير أنه عظيم جليل . ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً تناشدوه ، وأحاديث توارثوها ، فازدادوا بذلك إيماناً ، ونشأ عليه الناشئ ، وربى به الطفل ، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الحنادس فعند أول وحشة أو فزعة ، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور ، وربما كان في الجنس وأصل الطبيعة نفّاجاً كذاباً ، وصاحب تشنيع وتهويل ، فيقول في ذلك الشعر على حسب هذه الصفة ، فعند ذلك يقول رأيت الغيلان وكلمت السعلاة ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول رافقتها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها . . ومما زادهم في هذا الباب وأغراهم به ومد لهم فيه أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابياً مثلهم ، وإلا غبياً لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التكذيب والتصديق أو الشك ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الأجناس قط ، وإما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر ، فالراوية منهم كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أظرف عندهم ، وصارت روايته أغلب ومضاحيك حديثه أكثر . . . »

هذا ومن أسرار الصحراء التي استرعت أنظار روادها من قديم

الزمان ولم يدروا عن حقيقتها شيئاً — ظواهر كشَفَ العلم الحديث عن كنهها ، وفسرت جهود الرحالة والعلماء كيفية حدوثها ، بحيث انجاب عنها الغموض والخفاء الذى دفع رواد الصحارى الأقدمين وسكانها الحاليين إلى تصور ما تصوروه كتفسير لتلك الظاهرات .

وسنعرض فى هـذا الفصل لظاهرة انبعاث أصوات عالية من رمال الصحراء فى حالات معينة ، وقد أطلق الرحالون فى العصر الحديث على هذه الظاهرة اسم « الرمال الموسيقية » أو « الرمال الهدارة » ، ولا نشك فى أن أهل الصحارى قد عرفوا من قديم هذه الظاهرة واسترعت — بلا ريب — أنظارهم ، كما هى جديرة أن تفعل . ونحن نجد فى أشعار الجاهليين إشارات إليها يتفاوت نصيبها من الوضوح والغموض ، فالأعشى مثلا يقول :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة للجن بالليل فى حافاتها زجلُ

ثم هو يقول :

ويهمـــاء تعزف جِنّانهـــا مناهلهـــا آجنـــات سُدُمْ

ويقول بشر بن أبى خازم وهو جاهلى آخر :

وخَرْقٍ تعزف الجنـان فيه فيافيه تحنّ بهـا السهـام

فشعراؤنا هؤلاء سمعوا فى الصحراء تلك الأصوات العالية ، ولم يدركوا ما هى ، ولم يعرفوا من أين تصدر ، فانطبع فى مخيلاتهم أنها لا بد أن تكون من أصوات الجن إذ يعزفون ويطرّبون !

وذو الرمة — شاعر الصحراء بحق — كان أكثر من غيره من شعرائنا الأقدمين لصوقاً بالبيئة الصحراوية ودراية بأحوالها ؛ ولذا نجد

إشارته إلى « الرمال الموسيقية » أكثر وضوحاً . ونجده أكثر دقة فى وصف هذه الظاهرة ممن سبقوه ؛ فهو ينسبها صراحة إلى الرمل بخاصة ، لا إلى الصحراء بعامة فيقول :

ورمل عزيف الجن فى عقداتـه   هدُوّا كتضراب المغنين بالطبل

وهو أيضاً القائل :

بلاد يبيت البوم يدعو بناتـه   بها ومن الأصداء والجن سامر

وقال :

للجن بالليل فى أرجائها زجل   كما تناوح بين الريح عيسوم
دويـة ودجى ليـل كأنهمـا   يمّ تراطن فى حافاتـه الروم

وقال كذلك :

وكم عرست بعد النوى من معرس   بها من صداء الجن أصوات سامر

ولا غرابة فى اعتقاد شعرائنا فى ذلك الزمن القديم أن ذلك الصوت من فعل الجن — تلك القوى الخفية التى يجهل عنها البشر أكثر مما يعلمون — فذلك كان قصارى حظهم من العلم ، وهم كانوا ولا شك فى أولى المراحل الثلاث التى يشير إليها « أوجست كونت » فى قانونه الشهير الخاص بموقف العقل البشرى من ظواهر الكون ، وهى مرحلة تفسير الظواهر بنسبتها إلى قوى فوق الطبيعة .

وقد بلغ من إلمام القدامى بوجود هذه الظاهرة الطبيعية وثبوت نسبتها إلى الجن فى أذهانهم أن الهمدانى صاحب « كتاب صفة جزيرة العرب » (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ) يسمى الأماكن التى تشاهد فيها ظاهرة الرمال الموسيقية « معازف الجن » ويعدد أسماءها فيقول (ص ١٥٤) :

« معازف الجن من هذه الأرض رمل حوضى ورمل المغسل والسميرية .
ويقال بالكلبين المشرفين على الخرج ، وضلع الحزيجة من معازف الجن المعروفة وجن البديّ والبدى من أمواه الضباب والبقار وعبقر وأكثر أرض وبار وذى سمار ، يضرب بجن ذى سمار المثل وبغول الربضات » .

أما العلم الوضعى – وهو خاتمة المطاف طبقاً لقانون المراحل الثلاث – فلم يعرف ظاهرة الرمال الموسيقية إلا فى عصرنا الحديث ؛ إذ كان الرحالة الذين جابوا صحارى العالم منذ أواخر القرن الماضى هم الذين عرضوا لوصف تلك الظاهرة وصفاً دقيقاً ، ومحاولة تفسيرها بمساعدة العلم الحديث .

وقد أشار ابن بطوطة إلى ظاهرة الرمال الموسيقية فى وصفه لمسيره من المدينة إلى مكة فى رحلة الحج سنة ٧٢٦ هجرية ، إذ قال : « ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً . . . . وهى قرية فيها حدائق نخل متصلة . . . . وموضع القليب الذى سُحب به أعداء الله المشركون ، هو اليوم بستان وموضع الشهداء رضى الله عنهم خلفه ، وجبل الرحمة الذى نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصفراء ، وبإزائه جبل الطبول ، وهو شبه كثيب الرمل ممتد ، ويزعم أهل تلك البلاد أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول فى كل ليلة جمعة » .

ولعل أول من أشار إلى صوت الرمال فى العصر الحديث الرحالة الإنجليزى شارلز داوتى الذى ظهرت الطبعة الأولى من كتابه الكبير المعروف « رحلات فى بلاد العرب الصحراوية » فى سنة ١٨٨٨ ، وهو كتاب نال حظًّا من النجاح قلَّ أن تصادفه الكتب التى من قبيله ،

فأعيد طبعه حتى الآن خمس عشرة مرة ، وأصبح يعد من النماذج الرائعة لأدب الرحلات فى اللغة الإنجليزية . وحسبك أن لورانس صاحب كتاب « أعمدة الحكمة السبع » الذى طبقت شهرته الآفاق يعتبر « داوتى » إماماً يحتذيه ، ويعد كتابه مثالا ينسج على منواله .

يقول « داوتى »(١) : إنه صادف فى منطقة النفود شمالى شبه الجزيرة العربية تلالاً من الرمال ذات هدير ، إذا مشى على سطحها المسافر وانهالت تحت قدميه الطبقة العليا من الرمل صدر عن التل صوت متزايد الارتفاع يشبهه داوتى بالرنين الذى يعقب قرع ناقوس ضخم . وهو فى كتابه يسمى لنا تلك التلال التى بالقرب من بلدة « الحيزة » — بالروسة والدفافيات وأرزوم ، ويضيف المؤلف أنه عاين الظاهرة نفسها فى رحلته مرة أخرى ، وذلك بالقرب من مدائن صالح عند تل يسمى الحوارية .

ولئن كان « داوتى » لم يصف لنا موقف رفقائه من البدو من تلك الظاهرة ولم يذكر تفسيرهم لها فإن ذلك لم يفت رحالة آخر ، كان ثانى اثنين سبقا إلى اختراق الربع الخالى على ظهور الجمال فى الثلاثينات الأولى من هذا القرن ، وهو سانت جون فلبى الشهير باسم « الحاج عبد الله فلبى » ، فهو يقول فى كتابه « الربع الخالى(٢) » :

إنه سمع هدير الرمال أول مرة عن بعد فى يوليو سنة ١٩٢٨ فى تلال بدر بين المدينة المنورة وينبع ، ثم عاين تلك الظاهرة عن كثب خلال رحلته عبر الربع الخالى سنة ١٩٣٢ بالقرب من بئر « نايفة »

---

(١) حـ ١ ص ٣٥٢ طبعة ١٩٣٦ .

(٢) ص ٢٠٤ — ٢٠٩ .

حيث وضعت جماعته الرحال للاستراحة . وصعد أحد أتباعه إلى قمة تل رملى مجاور ارتفاعه نحو ٢٠٠ قدم ، وإذا بصوت عميق غليظ يصدر عن التل يشبهه « فلبي » بصوت أزيز الطائرة أو بصوت أرغن كبير ، واستمر نحو أربع دقائق ، وإذا بالبدو المرافقين له يرفعون عقائرهم بأصوات يجيبون بها « الجن » الذين صدر عنهم هذا الصوت الغامض ؛ ذلك أن البدو المعاصرين كأجدادهم من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ينسبون هدير الرمال إلى الجن ، وقد شرحوا لفلبي أن الجن المقيمين بذلك المكان يظهرون للقافلة ترحيبهم بمقدمها رافعين أصواتهم بتلك التحية الجنية العجيبة !

وقد تمكن فلبي عدة مرات من أن يجعل الرمال تصوت وتهدر ، وذلك بمشيه فوق التل وتحريكه طبقة الرمل العليا إلى أسفل ، وكان الصوت ينقطع فى كل مرة بانتهاء حركة الرمل ؛ مما جعله يقطع بأن الصوت يصدر عن احتكاك حبيبات الرمال فى انهيالها إلى أسفل وكثيراً ما سمع فلبي بعد ذلك هدير الرمال أو موسيقاها بغير افتعال نتيجة لريح تهب أو أى سبب آخر يجعل طبقة الرمل العليا تنحدر من أعلى تل مرتفع إلى أدناه .

وإذا كان فلبي قد شبه هدير الرمال تارة بأزيز الطائرة وتارة أخرى بصوت الأرغن فإن « برترام توماس » شريكه فى فخر ارتياد الربع الخالى – على انفراد وقبله بسنة – يشبه تلك الظاهرة التى عاينها فى أثناء رحلته فى تلال « جديلة » بصوت صفارة باخرة . وأنت ترى أن تلك التشبيهات – على اختلافها باختلاف الانطباعات الشخصية لكل مؤلف – تتفق كلها فى وصف ذلك الصوت بالعمق والغلظ مع رنة موسيقية

لا شك فيها ، وهذه الرنة الموسيقية هى التى دعتهم إلى إطلاق اسم « الرمال الموسيقية » على هذه الظاهرة كما دعت شعراءنا القدامى من قبل إلى الكلام عن « عزف الجن » وعن « تضراب المغنين بالطبل » .

ولم يزل الربع الخالى منذ كشف توماس وفلبى عن وجهه النقاب يجتذب الرحالة والمستكشفين ولا سيما من بنى جلدتهما ، وآخرهم « ولفريد تيزيجر » الذى جاب الربع الخالى فى سنة ١٩٤٦ وما بعدها سالكاً طرقاً أخرى غير التى اختطها توماس وفلبى ، ولم يفته أن يسجل ظاهرة الرمال الموسيقية ؛ فهو يصف لنا [١] كيف فزعت جمال قافلته فى أثناء هبوطها تلا رملياً شديد الانحدار ؛ إذ صدر عنه صوت عال تزايد ارتفاعه ، وظل مستمراً لبضع ثوان بعد وصول آخر الجمال إلى سفح التل . ويقول تزيجر : إنه كان قد سمع « زئير الرمال » مرة قبل ذلك فى إحدى الأمسيات بجهة «عروق شيبان» ، واستمر الصوت فى تلك المرة نحو دقيقة .

ولجنوب الجزيرة العربية كذلك حظه من الرمال الموسيقية ، فالرحالة الدنمركى يورجن بيش يشير إليها فى وصفه لرحلته فى حضرموت من ميناء المكلا إلى بلدة شيبام ، غير أن إشارته ليست واضحة الدلالة فى كونه شهد الظاهرة وسمع هدير الرمال ، فعبارته تحتمل أن تكون نقلاً لما سمعه عنها من مرافقيه ، كما تحتمل أن تكون وصفاً لما سمعه هو نفسه [٢] .

---

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية – المجلد ١١١ (سنة ١٩٤٨) ص ٩ . وانظر كتابه « الرمال العربية » نيويورك ١٩٥٩ ، ص ١٥٠ – ١٥١ .

(٢) « وراء قناع بلاد العرب » ، الترجمة الإنجليزية ، نيويورك ١٩٦٢ ، ص ٤٦

ولا يظن القارئ أن ظاهرة هدير الرمال أو « موسيقاها » خاصة بالربع الخالى أو بجزيرة العرب فى الجملة ؛ فإنها مشاهدة فى كل صحارى العالم حيثما اجتمعت العوامل الطبيعية التى تولدها : ففى شبه جزيرة سيناء بالقرب من مدينة الطور إلى الشمال منها تل يسمى « جبل الناقوس » يصدر عنه هدير كلما انهالت رماله من أعلى إلى أسفل ، وكانت العوامل الأخرى كالرطوبة والجفاف واتجاه الريح . . إلخ مواتية لحدوث الظاهرة ، ويزعم بدو سيناء أن جبل الناقوس لا يهدر إلا فى يومى الجمعة والأحد من كل أسبوع .

وفى صحراء جوبى فى جوف القارة الآسيوية لوحظت كذلك ظاهرة الرمال الموسيقية . وتصف لنا الراهبة الإنجليزية ميلدريد كيبل [1] التى جابت صحراء جوبى كيف أنها كانت فى طريقها لزيارة دير بوذى قرب « تونهوانج » فوجدته محوطاً بكثبان رملية ، ولم تستطع هى ورفيقتها فى السفر مقاومة إغراء الترحلق عليها ، وفى أثناء هبوطها الكثبان فوجئتا بسماع هدير عال ، وشعرتا باهتزازات الرمل من تحتهما . وعند وصولهما إلى الدير علمتا من رئيسه أن ذلك الصوت معهود لدى الرهبان ، ولكنه لا يصدر عن كل التلال الرملية ، وإنما عن مواضع معينة فى بعضها . وقد سمعت المؤلفة ذلك الهدير فى مدة إقامتها بالدير فى أثناء هبوب رياح شديدة ، وهى تشبهه بصوت الطبول (قارن بيت ذى الرمة وما رواه ابن بطوطة . عن ساكنى بدر .) وهى — مع تسليمها بأن احتكاك حبيبات الرمال هو أحد أسباب الظاهرة — ترى أن ثمّ عوامل أخرى غير محددة ،

---

(١) صحراء جوبى — لندن سنة ١٩٤٢ ص ٦٤ — ٦٥ .

ولابد من اجتماعها لحدوث الهدير وإلا وجب أن تهدر كل كثبان الرمل متى انهالت طبقة الرمال التى على سطحها .

وكذلك عاين ظاهرة الرمال الهدارة فى الصحراء الليبية أكثر من فرد ، ولدينا شهادة من رحالة تنقل فى الصحراء الليبية من أقصاها إلى أقصاها هو « ر . أ . باجنولد » المختص بدراسة الرمال وخصائصها وحركاتها ، وهو يروى (١) أنه لم يسمع صوت الرمال التلقائى وإن كان قد قابل من سمعوه ؛ أما هو فقد أحدث بفعله ذلك الصوت فى كثبان الرمال بالصحراء الغربية أكثر من مرة بأن كان يمشى فوق الكثيب أو يحرك الرمل بيديه ، فيصدر عنه ذلك الصوت العريض العميق . ويضيف باجنولد قائلاً : إن الصوت لا يصدر إلا عن الرمال ذات الحبيبات الكبيرة نوعاً التى تكون متماثلة حجماً وتامة الاستدارة ، وليس بينها تراب رفيع أو حبيبات أصغر منها فى الحجم . وهو يصدر فى هذا القول عن دراسات تجريبية ، واختبارات معملية .

* * *

هذا وقد تمكن العلماء من إحداث ظاهرة هدير الرمال فى معاملهم المرة بعد المرة بأن أرسلوا الرمل على سطح مائل من الزجاج أو فى أنابيب زجاجية مائلة بزاوية معينة مع توافر شروط أخرى من حيث درجة الحرارة والرطوبة . . إلخ ، وكتبوا عن ذلك التقارير المفصلة . ويجد القارئ تقريراً منها بقلم العالم الإنجليزى الدكتور فون كورنيش منشوراً فى ذيل كتاب فلبى الذى سلفت الإشارة إليه .

---

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية – المجلد ٨٥ سنة ١٩٣٥ ص ٢٦٦ .

ويقول كاتب ذلك التقرير : إن تلك الظاهرة تنشأ عن ترجيع صوت احتكاك حبيبات الرمال على سطح مستو منحدر gliding plane في داخل التل أو الكثيب الرملي ، وتفصيل ذلك أن الرمال التي على سطح تل شديد الانحدار محجوب عن الريح متى كانت جافة وغير متماسكة ، تنهال من القمة إلى السفح عند أي اضطراب يقع بفعل المشي عليها أو بفعل هبوب رياح شديدة من خلف التل أو لأي سبب آخر ، وبانهيال تلك الطبقة السطحية من الرمل تتسلسل حركات انهيال في الطبقات التي تليها سفلاً ، وبذلك يتعالى الصوت الذي تحدثه حبيبات الرمال في احتكاك بعضها ببعض ، ولكنه يكون صوتاً مختلط المعالم غير واضح النبرة إلى أن تصل حركة الانهيال إلى طبقة في داخل الكثيب تكون رمالها متماسكة وثابتة بطول ضغط الطبقات العليا عليها ، وبذلك يقف تسلسل حركات الانهيال من السطح إلى الداخل ويصبح لدينا مسطح منحدر ثابت تنهال فوقه وتحتك به طبقة فوق طبقة من الرمال السطحية ، وهنا يصل الصوت إلى أقصاه وتتضح معالمه فيغدو هديراً عميقاً بعد أن كان مجرد أصوات احتكاك مختلطة .

وظاهر من هذا الشرح الموجز أن عوامل عدة تشترك في إحداث ظاهرة الرمال الهدارة أهمها :

١ – مقدار ارتفاع التل أو الكثيب الرملي وزاوية انحدار سطحه .

٢ – اتجاه هبوب الريح .

٣ – درجة الرطوبة ؛ إذ لو كانت الطبقة السطحية من الرمل غير جافة ومن ثم ملتصقة بعض حبيباتها ببعض لا يحدث الانهيال بالشكل المطلوب .

٤ – حجم حبيبات الرمل ومقدار استدارتها ثم مبلغ تماثلها حجماً ، فكلما كانت الحبيبات كبيرة شيئاً ما وتامة الاستدارة ومتماثلة الحجم كان ذلك أدعى إلى صدور أصوات اختكاك عنها يؤدى ترديدها وترجيعها إلى حدوث الهدير .

٥ – وجود « سطح منحدر » داخل التل أو الكثيب فليس كل التلال الرملية فيها طبقة سفلية متماسكة ملتحمة بفعل ضغط الطبقات العليا تكوّن مسطحاً مستوياً يقف عنده تسلسل انهيال الرمال وتحتك به الطبقات العليا فى انهيالها ، فتتحول بذلك أصوات الاحتكاك غير الواضحة إلى ذلك الهدير العالى الواضح الجرس

ومثل هذا التفسير « الوضعى » لهذه الظاهرة الطبيعية خطر كذلك لبعض علمائنا فى العصر الذهبي للثقافة العربية ، إذ ينقل الجاحظ عن أستاذه أبى إسحاق النظام قوله :

« يكون فى النهار ساعات ترى الشخص الصغير فى تلك المهامه عظيماً ، ويوجد الصوت الخافض رفيعاً ، وتسمع الصوت الذى ليس بالرفيع رفيعاً من انبساط الشمس غدوة من المكان البعيد ، ويوجد لأوساط الفيافى والقفار والرمال والحرار فى أنصاف النهار مثل الدوى من طبع ذلك الوقت ودلك المكان عندما يعرض له . . قالوا : وبالدوى سميت دَوِيَّةً وداوية وبه سمى الدُّودُواً . . » (الحيوان حـ ٦ ص ٧٧) .

وهكذا محا العلم الحديث عن ظاهرة هدير الرمال ما كان يحيط بها من غموض وسحر وشاعرية ؛ فانقضت إذن أعراس الجن فى الصَحراء ، وانفض سامرهم ، فلم يعودوا يغنون ويطربون . . . وكذا العلم : كلما

فتح عين الإنسان على حقيقة من حقائق الكون هاض جناحاً كان يحلق به فى أجواء الخيال .

* * *

ومن الألغاز التى تنطوى عليها رمال الصحارى وتخفى سرها الأودية والقفار لغز لعله أكبرها نصيباً من اهتمام الناس على تباين بواعثهم ، وأكثرها استراقاً للأفئدة وأشدها لصوقاً بأذهان من يستهويهم **الغموض** ويصيخون إلى نداء المجهول ، ذلك هو لغز المدن المطمورة والواحات المفقودة التى تحفل بها أحاديث سكان الصحراء وتدور حولها قصص الرحالة وأصحاب الأخبار

ولعل من الطبيعى أن تنشأ فى البيئة الصحراوية أحاديث عن مدن طمرتها الرمال ، أو واحات انقطعت دونها السبل ؛ ذلك أن مناطق العالم الصحراوية إنما طرأ عليها الجفاف التدريجى بعد عصور طويلة كانت فيها تلك المناطق أكثر أمطاراً وأغزر نباتاً ، ومن ثم فإن سكان الصحراء كثيراً ما يشاهدون حولهم معالم عمران قديم لا يعرفون عنه شيئاً فتثير خيالهم تلك المشاهد . كما أن لحركات الرمال فى كثير من مناطق الصحراء مداً وجزراً وجيئة وذهاباً ، فلا يستبعد أن يرى ساكنو الصحراء اليوم ما تغير عليه الرمال غداً فتبتلعه وتجعله كأمس الدابر أثراً بعد عين ، ثم إن غموض سبل الصحراء وسهولة الضلال فيها من شأنهما أن يبهما على السالكين أحياناً سبيلا كانت قد أدت بهم من قبل إلى واحة أو إلى ماء ، وفى مثل تلك الظروف مجتمعة كان لا عجب أن يشيع بين الناس حديث عن مدن قديمة ضاع أثرها وعفت عليها الرمال ،

وواحات يانعة عزت على الطلب فلا يصل إليها إنسان

ومن هذا النوع من الأحاديث ما حققته الأيام من بعد فاتضح أنه كان يعكس وقائع تقادم عهد الناس بها فانقلبت على ألسنتهم حديثاً وأساطير ، ومنها ما لايزال إلى اليوم حديثاً وأسطورة لم ينقشع من حولها الضباب ولم تثبت حقيقتها الأيام ، كما لم تنفها بوجه قاطع ، فظل أمرها متردداً بين النفي والإثبات ؛ ومن هنا كان سحر هذا السر من أسرار الصحراء ، وكانت جاذبيته لكثيرين ممن تتعلق آمالهم بالكشف عن الغوامض ويستهوى نفوسهم ما وراء المجهول .

وربما كان أشهر حديث من أحاديث المدن المطمورة والواحات المفقودة حديث « وبار » الذى يتردد فى أقاصيص العرب منذ أبعد العصور ، ويتناقله كتابهم واحداً بعد واحد ، ويجعله شعراؤهم مضرب المثل فى الخفاء والغموض ، وأصل ذلك الحديث أساطير الأعراب وبخاصة سكان الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية حيث موقع « وبار » التقليدى فى مجاهل الربع الخالى وبين رماله المترامية .

ويلخص لنا الجاحظ ما كانت تتناقله الأعراب عن «وبار» فيقول[1] :

« وتزعم الأعراب أن الله تعالى لما أهلك الأمة التى كانت تسمى « وبار » — كما أهلك طسما وجديسا وعملاقا وثمود وعادا — سكنت الجن فى منازلهم وحمتها من كل من أرادها ، وأنها أخصب بلاد الله وأكثرها شجراً وأطيبها ثمراً وأكثرها حباً وعنباً وأكثرها نخلا وموزاً ، فإن دنا

(١) كتاب الحيوان حـ ٦ ص ٦٦ (القاهرة سنة ١٩٠٧) .

اليوم إنسان من تلك البلاد متعمداً أو غالطاً حثوا فى وجهه التراب ، فإن أبى الرجوع خبلوه وربما قتلوه » .

وينقل ياقوت فى « معجم البلدان » عن ابن الكلبى قوله :

(قرية « وبار » كانت لبنى وبار ، وهم من الأمم الأولى ، منقطعة بين رمال بنى سعد وبين الشحر ومهرة ، ويزعم من أتوها أنهم يهجمون على أرض ذات قصور مشيدة ونخل ومياه ومطر وليس بها أحد ، ويقال إن سكانها الجن ولا يدخلها إنسى إلا خبل) .

على أن علماء السلف المحققين لم يرتضوا التسليم بوجود هذه المدينة المجهولة ؛ إذ لم يقم لديهم الدليل المقنع على حقيقة وجودها ؛ ولذا نجد أن ياقوتاً يختم ما أورده تحت عنوان « وبار » بقوله :

« ولهذه الأخبار أشباه ونظائر فى أخبارهم ، والله أعلم بحق ذلك من باطله » .

أما الجاحظ فلا يكتفى بالتوقف فى أمر « وبار » ، بل هو يقطع بأن ما يقال عن هذه المدينة المفقودة غير صحيح وذلك فى قوله :

« والموضع نفسه باطل ، فإن قيل لهم دلونا على جهته ، وقفونا على حده . . زعموا أن من أراده ألقى على قلبه الصرفة ، حتى كأنهم أصحاب موسى فى التيه . . »

ومهما يكن من أمر حقيقة وجود « وبار » فى العالم المادى فإنها فى عالم العرب المثالى كانت حقيقة تدور حولها أحاديثهم ، ويضرب بها المثل على مر العصور شعراؤهم ، فيقول الأعشى قبل الإسلام :

ومر دهر على وبار فأهلكت جهرة وبار

ويقول الفرزدق فى العصر الأموى :

ولقد ضللت أباك تطلب دارماً ‏ ‏ كضلال ملتمس طريق وبار

ويقول غيره من الشعراء :

وداع دعا والليل مرخ سدوله ‏ ‏ رجاء القرى يا مسلم بن حمار

دعا جُعَلا لا يهتدى لمقيلـه ‏ ‏ من اللؤم حتى يهتدى لوبار

ويقول المتنبي فى المائة الرابعة :

الراجع الخيـل محفاة مقودة ‏ ‏ من كل مثل وبار أهلها إرمُ

يمدح سيف الدولة بأنه يعود من غزواته منتصراً وقد أهلك أعاديه كما هلكت إرم ، وخرب ديارهم كما خربت وبار .

فأنت ترى أن الشعراء قد جعلوا « وبار » مثلا فى الضلال وعلماً على الخراب ، وأصبح اسمها يدور على الألسنة فى معرض التجهيل والتعمية كما يقال : « ذهب إلى بلد إصمت ، وتركته بملاحس البقر ، وأظنه بمطارح البزاة ، أو بهور ذابر ، أو بعين وبار » وهذه كلها أماكن لا يهتدى إليها ، بل لا يدرى أين هى ؟

على أن اسم وبار يرد كذلك فى الشعر القديم ، فى صور أخرى يفاد منها أن الشاعر يشير إلى أرض معروفة ومكان مطروق وذلك كقول النابغة :

فتحملوا رحـلا كأن حمولهـم ‏ ‏ دُوم ببيشة أو نخيل وبار

ويقول الفرزدق فى مدح يزيد بن المهلب :

وطئت جياد يزيد كل مدينـة ‏ ‏ بين الردوم وبين نخل وبار

وهذا يدل على أنها بلاد مسكونة ذات نخيل .

فلعل « وبار » – الإقليم – حقيقة جغرافية ؛ أما « وبار » – المدينة المطمورة – فهذه نصيب الواقع منها دون نصيب الخيال ، وحقيقتها على فرض وجودها قد ضاعت فى ثنايا الأساطير .

على أن من جوّابى الجزيرة العربية فى عصرنا الحديث من استهوته قصة « وبار » ، وظن فى بعض ترحاله فى الربع الخالى أنه قد اهتدى إلى موقع المدينة المدفونة ، إلى أن خيب السعى إلى ذلك الموقع ظنه ، وهو الرحالة الإنجليزى سنت جون (عبد الله) فلبى [1] .

سمع « فلبى » من البدو المرافقين له فى رحلته سنة ١٩٣٢ عن « وبار » المدينة المهجورة التى تخفى أطلالها رمال الربع الخالى ، وأعرب له بعضهم عن استعداده لأن يرشده إلى مكانها قائلاً : إنه رأى أطلال المدينة رأى العين عدة مرات ، فشاهد بقايا حصون وقصور سودت النار حيطانها ، وإن بعض تلك الأطلال يختفى حيناً تحت الرمال ، ثم يعود فيظهر تبعاً لحركات كثبان الرمال فى تلك المناطق . ومن وصف الموقع قدر فلبى أن تقع تلك الأطلال على مقربة من وادى الدواسر ، وإذ كان ذلك الوادى مجرى نهر قديم كان ولا شك يجرى بانتظام فى العصور الخالية قبل أن يطغى الجفاف على الجزيرة العربية ؛ فقد قوى أمل فلبى فى أن يجد على ضفاف ذلك النهر القديم آثار تلك المدينة الغابرة التى تصور عظمتها وفخامتها أحاديث الأعراب وأصحاب الأخبار . .

وبعد سير طويل اقتربت القافلة من الموقع المنشود ، فإذا على البعد

---

(١) « الربع الخالى » لندن سنة ١٩٣٣ ص ١٥٧ – ١٨٠ وانظر مجلة الجمعية الجغرافية الملكية (لندن) المجلد ٨١ ص ١٢ – ١٤ .

ا يشبه بقايا الحيطان المسودة يبدو واضحاً بين الرمال الصفراء ، ولكن سرعان ما خابت الآمال ؛ إذ تبين أن ما هنالك لا يعدو حافة بركان القرب منها أخرى مثلها ، وقد اعتقد فى ذلك الوقت أنه أمام حرة بركانية من الحرار التى توجد فى الصحراء أحياناً . على أن تحليل النماذج التى حملها معه من ذلك المكان أثبت أن هاتين الحافتين ليستا بركانيتين ، وإنما هما من أثر سقوط نيزكين كبيرين فى ذلك المكان ، تخلف عن كل منهما انخفاض فى الأرض يحيط به ما ظن دليله الأعرابى أنه بقايا أسوار « وبار » ، وقد يكون الدليل معذوراً فى ذلك ؛ إذ يقول فلبى : إن مشهد الحافتين عن بعد قد يلقى فى روع المشاهد أنه أمام بقايا قلاع أو أبراج .

وهكذا سرعان ما انقضى حلم العثور على « وبار » ؛ ويقول « فلبى » : إنه انتهى من بحثه إلى انتفاء أى احتمال لوجود آثار مدينة قديمة فى أنحاء الربع الخالى ، لأن الجفاف الشديد كان فى رأيه « قد سود هذه المنطقة قبل أن يبزغ فجر الحضارة البشرية » . أما أسطورة « وبار » — على فرض أن لها أصلا تاريخيًّا — فينبغى فى نظره البحث عن حقيقتها فى بعض نواحى اليمن أو حضر موت .

والأساطير كلما تطاولت عليها الأزمنة اختلط أمرها على متناقليها ودخلتها أوهام على أوهام وأغاليط فوق أغاليط ؛ فمرافقو « فلبى » من البدو كانوا يتحدثون عن « وبار » بوصفها مدينة عاد التى بناها الملك شداد بن عاد ، وهذا خلط منهم بين خبر « وبار » وخبر آخر من نوعه ، موضوعه مدينة « إرم ذات العماد » التى وردت الإشارة إليها

فى القرآن الكريم . وقد يماً نبه العكبرى فى شرحه لبيت المتنبي الذى أوردناه إلى عدم الخلط بينهما قائلاً : إن البيت ليس معناه أن أهل وبار هم من قبيلة إرم وإنما يعنى الشاعر أن ممدوحه يعود منتصراً من كل مدينة أضحى أهلها مثل إرم فى الهلاك ، وغدت بلدهم مثل وبار فى الخراب . أما مدينة إرم فهى التى بنيت حيطانها من الذهب ، ونحتت عمدها من الزبرجد والياقوت ، ورصفت شوارعها بالفضة ، وفصصت بأصناف الجواهر ، ثم غضب الله على أهلها لعصيانهم وتكذيبهم نبيهم هودا ، فساخت مدينتهم فى الأرض ، ولم يدخلها بعد ذلك إنسان . وخبر إرم يطول إيراده (١) وقد تفنن فيه القصّاص وأصحاب الأخبار حتى اضطر صاحب « معجم البلدان » إلى أن يقول فى ختام ما أورده عنها :

« قلت : هذه القصة مما قدمنا البراءة من صحته ، وظننا أنها من أخبار القصاص المنمقة وأوضاعها المزوقة » .

* * *

وصحراؤنا الغربية فى مصر كانت مسرحاً لأكثر من قصة من قصص البحث عن الواحات المفقودة والمدن المدفونة ؛ منها ما تكلل بالنجاح ، ومنها ما باء بالفشل ، وليس العهد بعيداً بواحة الكفرة التى لم تكن إلا حديثاً يروى إلى أن وصل إليها لأول مرة الرحالة الألمانى جيرارد رولفس فى سنة ١٨٧٩ ، ثم انقطعت السبيل إليها .. حتى زارها الرحالة المصرى أحمد محمد حسنين بعد ذلك باثنين وأربعين عاما ، ومنذ ذلك الوقت استمر اتصالها بالعمران بعد أن عبرت الجسر بين

(١) انظر « معجم البلدان » مادة « إرم » .

دنيا الأساطير وعالم الحقائق .

وغير بعيد من الكفرة – فى ذلك الركن الجنوبى الغربى من إقليم مصر – اكتشف حسنين فى العشرينات الأولى من هذا القرن واحتى أركنو والعوينات .

ولم يكن معروفاً عنهما قبل ذلك الاكتشاف شيء مقطوع به ، وإنما كان ثمة حديث يدور على ألسنة سكان الصحراء الليبية عن واحة أو واحتين فى ذلك الركن الذى تلتقى فيه حدود مصر وحدود ليبيا والسودان ، ولم يكن لدى مكتشف العوينات من أسباب الأمل فى العثور عليها أكثر مما كان لدى فلبى حينما انطلق باحثاً عن وبار ؛ ذلك أن حسنين قد بنى مشروع رحلته على أساس المتسامع بين البدو من وجود هاتين الواحتين ، وعلى ما سجله الإنجليزى هاردنج كنج فى بحث له نشر سنة ١٩١٣ بعنوان « الصحراء الليبية من معلومات أهلها » جاءت فيه إشارة إلى واحة تسمى « عوانة » أو « عوانات » فى منتصف الطريق بين الكفرة والمرجة (فى السودان) ، ثم على خريطة نشرت فى ألمانيا سنة ١٨٩٢ ثبت فيها موقع واحتين مجهولتى الاسم بين خط العرض ٢١ وخط الطول ٢٣ ، وليس فى هذه العناصر كلها ما كان يكفل النجاح أو يبشر به ؛ إذ أن جميع الواحات الأسطورية يدور حديثها على ألسنة البدو ، ويتناقله الكتاب القدامى والمحدثون ؛ أما إثبات الموقع على الخرائط فلا يعنى شيئاً كثيراً ؛ إذ أن « وبار » نفسها لم تعدم بعض الخرائط التى أثبتت موقعها وأوردت اسمها ، ومن ذلك الخريطة المرسومة سنة ١٩٢١ والمنشورة مع كتاب « هوجارث » عن

بلاد العرب[١] ، إذ أوضحت تلك الخريطة موقع « وبار » عند التقاء خط العرض ٢١ وخط الطول ٤٨ .

ومهما يكن من أمر فقد وصل حسنين فعلا إلى العوينات وإلى أركنو ، وكشف النقاب عن واحتين مفقودتين حقيقيتين ، وكان لنجاحه أثر كبير فى إلهاب خيال الباحثين عن المجهول ، وشحذ همم الرحالة والمستكشفين ، فانبرى فريق منهم يجوب الصحراء الليبية فى محاولات فردية أو مشتركة كان معظمها يدور حول واحة أو مدينة مفقودة تسمى « زرزورة » ولا شك فى أن أمل هؤلاء فى العثور على زرزورة أو على غيرها من الواحات المجهولة كان له ما يبرره إذا ذكرنا أن جانباً غير صغير من صحرائنا الغربية لا يزال غير معروف ، بل كان الجانب الأكبر منها غير معروف فى سنة ١٩٢٥ ؛ فنى تلك السنة كانت نسبة ما تم مسحه وعملت الخرائط الدقيقة له فى مساحة الإقليم المصرى هى ٢٠ ٪ ، وما كان معروفاً معرفة لا بأس بها يبلغ ٢٤ ٪ ، أما باقى مساحة مصر ويبلغ ٥٦ ٪ من مجموعها فقد كان مجهولاً تماماً ، وكان معظم هذا المجهول فى الصحراء الغربية ، أما فى سنة ١٩٥٢ فقد كان أما الباقى من مساحة مصر وهو ٣٣ ٪ فقد كان لا يزال مجهولاً ، وهذا القدر كله فى الأجزاء القصية من الصحراء الغربية[٢] .

أما قصة زرزورة فليس لها ما لقصة « وبار » من الماضى الطويل ، بل هى تعتبر حديثة العهد نسبياً ، وقد بدأت فيما يظهر على يد الباحثين

---

(١) D.G. Hogarth : Arabia, Oxford, 1922

(٢) مجلة معهد الصحراء — المجلد ٢ — العدد الثانى ص ١٣١ — ١٣٣ .

عن الكنوز والدفائن ؛ إذ وردت الإشارة إليها فى كتاب لمؤلف مجهول يرجعه البعض إلى القرن التاسع الهجرى وعنوانه « كتاب الدر المكنوز والسر المعزوز فى الدلائل والخبايا والدفائن والكنوز » وهو من المخطوطات التى تحتفظ بها مكتبة المتحف المصرى ، وقد نشرته مصلحة الآثار مطبوعاً مع ترجمته إلى الفرنسية فى سنة ١٩٠٧.

وهذا الفن مما اهتم له كثير من المصريين من قديم ، وألفوا فيه الكتب المطولة وإن كان معظم ما فيها خرافات وأقاصيص لا طائل تحتها ؛ ولا عجب فى اهتمام المصريين بأمر الدفائن والكنوز ، فهم يسكنون بلاداً تحفل بآثار الأوائل وقبور الغابرين التى لا يخلو الكثير منها من الذهب والفضة ، وإلى هذا يشير المسعودى بقوله فى « مروج الذهب »[١] :

« ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان وما فى الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض ، وغيرها من الأمم ممن سكن تلك الأرض وتدعى بالمطالب إلى هذه الغاية » .

ويستطرد فيقول :

« وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، وممن قد أغرى بحفر الحفائر ، وطلب الكنوز ، وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر ، وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام المقدم ذكرها بأن فيه مطلباً عجيباً ، فأخبروا الإخشيد محمد بن طغج بذلك فأذن لهم فى حفره . . فحفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى أزج وأقباء

---

(١) جـ ١ ص ٣٦٦ وما بعدها .

وحجارة مجوفة فى صخر منقور ، وفيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب ، قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى . . منها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد ، ومنها ما وجوهها ذهب وفضة ، فكسروا بعض تلك التماثيل فوجدوا فى أجوافها رمماً بالية وأجساماً فانية ، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبرانى وغيرها من الآلات من المرمر والرخام . . وعليها أنواع من الكتابات لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملل ، وزعم قوم من ذوى الدراية منهم أن لذلك القلم من حين فقد من الأرض – أعنى أرض مصر – أربعة آلاف سنة . . وكان ذلك فى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة » .

وأنت تجد فى هذه الفقرات من « مروج الذهب » إشارة إلى عملية من أقدم عمليات التنقيب عن الآثار فى التاريخ وإن اختلفت البواعث وتباينت الغايات .

ونعود إلى أصحاب « المطالب » ومؤلفى كتب الكنوز فنقول : إن أحدهم وهو صاحب « كتاب الدر المكنوز » الذى سلف ذكره أشار فى الفقرة ٣٦٩ من كتابه إلى مدينة زرزورة فى عبارة ضعيفة ركيكة ننقلها على علاتها قال :

« اسلك الوادى وادخل فيه مصعداً إلى أن تلقى واديا آخر مغرب مفتوحاً بين جبلين وتجد فيه طريقاً اسلكها توصلك إلى مدينة زرزورة تجد بابها مقفلا ، وهى مدينةبيضاء مثل الحمامة ، وتلقى على بابها طيراً مصوراً مد يدك إلى فمه ، وخذ المفتاح وافتح وادخل إلى المدينة تلقى مالاً كثيراً

والملك والملكة فى القصر نائمين فلا تقربهما وخذ من المال والسلام » .

هذا وقد ورد اسم زرزورة فى الكتب العربية مرة أولى قبل كتاب « الدر المكنوز » بحوالى قرنين من الزمان ، وذلك فى كتاب « تاريخ الفيوم وبلاده » لأبى عثمان النابلسى [١] الذى أشار إلى « زَرْزُرَة » (بهذا الضبط أى بفتح الزاى الأولى وسكون الراء وضم الزاى الثانية ثم راء مفتوحة بغير واو) ضمن بلدان الفيوم التى « دثرت بحيث ما فيها ساكن ولا بها قاطن » وذلك بسبب إهمال أعمال الرى القديمة ، مما أدى إلى جفاف بعض الترع وخراب ما كان عليها من البلدان العامرة ، فإذا كانت زرزورة » النابلسى هى نفسها « زرزورة » صاحب كتاب الكنوز فإن الأصل التاريخى لأسطورة المدينة المفقودة يكون ماثلاً لدينا فى البلدة الفيومية التى خربت بعد عمران ، ونكون بذلك قد بعدنا عن الواحة أو المدينة التى تكمن فى طرف قصى مجهول من أطراف الصحراء الغربية .

أما أول إشارة إلى زرزورة عند المؤلفين الأوربيين فقد وردت فى كتاب للرحالة الإنجليزى سير جاردينر ولكينسون طبع فى سنة ١٨٣٥ يقول مؤلفه : إنه سمع من بعض سكان الواحات الداخلة عن وجود واحة تسمى زرزورة إلى الغرب من الواحات المعروفة فى الصحراء الغربية كما أشار المؤلف نفسه إلى أسماء واحات أخرى سمع عن وجودها ، ولم تكن إذ ذاك معروفة ، ثم اكتشفت بالفعل بعد ذلك فى مجموعة

---

(١) صنف هذا الكتاب فى سنة ٦٤١ هـ وطبع فى القاهرة سنة ١٨٩٨ (من منشورات دار الكتب) والنابلسى من موظفى ديوان الدولة الأيوبية انظر ختام ص ١٧ .

واحات الكفرة .

ولعل ما أورده ولكينسون فى كتابه هو السند الذى جعل واضع الخريطة التى رسمت للجمعية الجغرافية المصرية فى سنة ١٨٧٧ يورد فيها اسم « وادى زرزورة — واحة الزنوج » فى المنطقة المحصورة بين خطى الطول ٢٤ — ٢٦ وخطى العرض ٢٦ — ٢٨ .

على أن هذه الإشارات العابرة مضافاً إليها أحاديث البدو واكتشاف بعض الواحات التى كانت حتى ذلك الحين مجهولة كانت كافية لإشعال حماس بعض المستكشفين فانطلقوا يبحثون عن زرزورة — سواء أكانت مدينة ذات كنوز « وبيضاء مثل الحمامة » أم كانت واحة كغيرها من واحات الصحراء — واختار كل منهم منطقة من الصحراء الغربية لبحثه ، وأهم هؤلاء الباحثين اثنان قاما بمحاولتهما فى فترتين متقاربتين .

فى سنة ١٩٣٣ قام الإنجليزى أورد ونجيت برحلة عبر خلالها منطقة الكثبان الرملية المعروفة باسم « بحر الرمال » التى إلى الغرب من الواحات المعروفة ، على أن رحلته لم تسفر عن اكتشاف أية واحة أو أى أثر لنبات أو ماء فى تلك المنطقة القاحلة ، وإن لم تخل تلك الرحلة من بعض الفوائد العلمية التى لا تتصل بموضوع هذا الحديث[١]

وخلال المدة من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٣٦ قام الكونت المجرى لاديسلاس دى ألماشى (الذى توفى سنة ١٩٥١) برحلات متعددة

(١) انظر مقال ونجيت عن رحلته فى مجلة الجمعية الجغرافية الملكية (لندن) المجلد ٨٣ ص ٢٨١ — ٣٠٨ .

إلى المنطقة الجنوبية الغربية من الصحراء الليبية حيث الهضبة الصخرية المتسعة المعروفة باسم « الجلف الكبير » والتى لم تكتشف إلا فى سنة ١٩٢٣ ، وقد قدر ألماشى أن واحة زرزورة لابد أن تكمن فى مكان ما من تلك الهضبة التى تشمل مساحتها مئات الأميال المربعة ، وقد وجد فعلا فى ثلاثة من الأودية الكثيرة التى تخترق هضبة الجلف الكبير القاحلة أشجاراً خضراء وأعشاباً تصلح للمرعى ، ويبدو أن تلك الأودية تعشب بعد المطر ، وقد تعود إلى القحط إذا طالت بها سنوات الجفاف . ثم علم ألماشى من سكان واحة الكفرة من قبيلة تيبو الزنجية أنهم كانوا يعرفون سر هذه الأودية ، وكانوا يخفونه عن العرب الذين لم يحتلوا الواحة إلا فى القرن الماضى فقط ، كما علم أن أكبر تلك الأودية الخضر يسمى وادى عبد الملك ويسمى الواديان الآخران وادى الحمراء ، ووادى الطلح .

ولكن أين « زرزورة » من وادى عبد الملك ؟ هنا يستشهد ألماشى بعبد الملك نفسه فيقول : إنه علم أن مكتشف ذلك الوادى هو من سكان الكفرة العرب الذين هجروها إلى مصر بعد الاحتلال الإيطالى لليبيا ، ويسمى عبد الملك إبراهيم الزواوى ، ويشتغل بالرعى فى أطراف الفيوم ، وبعد بحث طويل عن هذا الشيخ المسن عثر ألماشى عليه ، واستوضحه أمر الوادى الذى يطلق عليه اسمه ، فأفاده عبد الملك أن الإمام السنوسى كان قد أوفده من الكفرة إلى منطقة الجلف الكبير للبحث عن الواحات التى تردد أن التيبو يعرفون سرها ولا يريدون الإرشاد عنها ، فوفق عبد الملك فى العثور على تلك الأودية ، ويقول ألماشى : إنه وصفها وصفاً دقيقاً ،

وأفاد أن فى أكبرها عين ماء ثرة . ولم يعثر عليها ألماشى فى زيارته وإن كان ذلك لا ينفى وجودها فى مكان ما من الوادى ، وأضاف عبد الملك أن اسمه أطلق على أكبر الأودية الثلاثة ، ولكن الاسم الحقيقى له هو « زرزورة » بسبب كثرة الطيور الصغيرة (الزرازير) فيه . ويؤكد لنا ألماشى أنه كان حريصاً من أول الأمر على أن يتحاشى أية إشارة إلى اسم زرزورة ، ويقول : « إن عبد الملك ذكر الاسم من تلقاء نفسه » . وينتهى ألماشى من ذلك إلى أن وادى عبد الملك والواديين الآخرين فى جوف هضبة الجلف الكبير هى واحة زرزورة التى تتحدث عنها الأسطورة القديمة ، وإذن فتكون المدينة البيضاء ذات الباب الموصد مجرد واحات خضر فى القفر الموحش ، ولئن لم تحو كنزاً ما فإن ماءها وعشبها أغلى فى الصحراء من كل الكنوز ! . وقد أورد ألماشى تفاصيل رحلاته ونتائجها مع نص شهادة عبد الملك فى كتاب نشرته الجمعية الجغرافية المصرية سنة ١٩٣٦ [١] .

على أن نظرية ألماشى فى أن وادى عبد الملك هو واحة زرزورة ليست متماسكة كل التماسك ، وأدلته ليست فوق مستوى الشك .

ولكن طالما ظل فى الصحراء مرمى حجر غير مطروق فستبقى هنالك « زرزورة » وستبقى هناك « وبار » وسيوجد من الناس من يستهويه الوصول إلى المجهول الذى تطويه عنا رمال الصحراء .

---

(١) L. de Almasy : Récentes Explorations dans le désert libyque. le Caire, 1936.

أتلانتيس

للكثير من الأقوام البشرية – على اختلاف حضاراتها وتباعد مناطق سكناها – روايات يتناقلونها عن مراكز عمران قديمة ازدهرت زمناً ثم اختفت من الوجود وتلاشت آثارها ، وأصبح يستحيل الوصول إليها بل يتعذر تحديد موضعها على وجه الدقة . وهذه المأثورات الشعبية لا يُدرى أتنتمى إلى مجال الحقائق أم إلى مجال الأساطير ، وفى معظمها دلائل على أنها قد تكون من قبيل تجسيد معتقدات الناس من عصور ذهبية غابرة ، كانت فيها حياة الإنسان على الأرض أكثر رخاءً ، وأوفر سعادة مما هو عليه فى حاضره الذى لا يرتاح إليه ويتطلع فيه إلى غايات يعلم فى قرارة نفسه أنها لن تكون . وأشهر هذه المأثورات وألصقها بأذهان الناس وأكثرها حظاً من اهتمامهم على مر القرون قصة « أتلانتيس » القارة المفقودة .

وقد وردت الإشارة إلى أتلانتيس أول ما وردت فى كتابات أفلاطون إذ جاء فى بعض محاوراته [1] خبر مؤداه أن صولون – حكيم أثينا ومشرّعها – سمع بعض كهان المصريين عن وجود جزيرة كبيرة إلى الغرب من المضيق المسمى بأعمدة هرقل (جبل طارق) تفوق فى حجمها آسيا وإفريقيا معاً ، وهى آية فى خصوبة أرضها وغناها ، وكانت مقراً

---

(١) « تيماوس » و « كريتياس » .

لدولة كبرى سيطرت على جميع ما فى بحر الظلمات من جزائر ، ثم أجمعت أمرها على غزو البلاد التى إلى الشرق من أعمدة هرقل ، فتصدى لها الأثينيون ، وألحقوا بجيش أتلانتيس هزيمة نكراء ، وتصادف فى تلك الأثناء أن زلزلت أرض أتلانتيس زلزالها ، وطغت على الجزيرة أمواج المحيط فأغرقتها عن آخرها فى يوم نحس واحد ، وليلة نحس واحدة ، فلم يبق لها من أثر إلا مكان ضحل من المحيط ، يجعل الملاحة فى تلك المنطقة متعذرة ، وقد حدث ذلك قبل زمن صولون بتسعة آلاف سنة .

ويستطرد أفلاطون فى موضع آخر فيشيد بحكومة أتلانتيس وملوكها الذين بلغوا الغاية فى بعد النظر وحسن تدبير الأمور ، ويسرد أسماء هؤلاء الملوك وشيئاً من تاريخ القارة كما رواه .

من هذه النواة الأولى نمت وترعرعت على مر القرون شجرة ضخمة من الكتابات والبحوث ، حتى لقد أحصى ثلاثة من العلماء الألمان فى ثبت أصدروه أسماء نحو من خمسة وعشرين ألف كتاب وبحث ومقال ، كلها تدور حول أتلانتيس !

ولم ير جانب من الكتاب فى قصة أتلانتيس غير رواية فلسفية عن البلاد السعيدة والحكومة الصالحة ، مثلها مثل « أوتوبيا » وغيرها من خيالات الفلاسفة الباحثين عن مؤهلات الحاكم الصالح ، ومقومات المدينة الفاضلة . ومن هذا الرأى الفرنسى مارتان فى تذييله لمحاورات أفلاطون ، كما ذهب هذا المذهب أبو الجغرافيا الحديثة ألكسندر فون همبولت أيضاً .

على أن من الباحثين من أبى إلا أن يجد وراء القصة حقيقة واقعية ، فتشعبت الآراء فى ذلك أيما تشعب ، وكان منها ما صبغته الإغراق فى

الخيال ، ومنها ما يتسم بطابع الاعتدال وإن أعوزته البراهين القاطعة فى صحته أو المرجحة لها .

فكان من الآراء الخيالية التى أبديت بشأن هذه « القارة المفقودة » رأى يربط بينها وبين القمر بأكثر من وجه واحد ، الأول ما قال به البعض من أن القمر إذا انفصل عن أمه الأرض إنما انفصل من منطقة المحيط الأطلسى ، وإنه ليس إلا قارة أتلانتيس ، وقد انتقلت من أرض البشر إلى سماء الملائكة ! والوجه الثانى لرأى من أبوا إلا أن يصلوا ما بين القمر وأتلانتيس – هو أن ذلك التابع الأمين للأرض بالغ فى الاقتراب منها فى بعض العصور القديمة ، فاضطربت بفعل جاذبيته مياه المحيط ، وابتلعت قارة أتلانتيس !

غير أن التطورات العنيفة فى سطح الأرض من يابسة وماء قد انقضى عهدها منذ العصور الجيولوجية السابقة لظهور الإنسان ، مما لا يتصور معه وجود دولة عظمى فى تلك القارة التى اختفت فى يوم وليلة على وجه غير معهود فى الظواهر الطبيعية ، منذ كان البشر على سطح الأرض .

وليست قصة أتلانتيس بالوحيدة من نوعها فى أساطير الشعوب الأوربيـة ، إذ نجد عند مختلف تلك الشعوب قديماً أفكاراً عن جزائر موجودة إلى الغرب ، أى فى المحيط الأطلسى ، وهى دائماً مضرب المثل فى الخصب والثراء وكأنها فى أوهام تلك الشعوب الجنة على ظهر الأرض ، فمن ذلك ما كان يعتقده الإغريق عن « جزائر السعداء » وأهل ويلس القدماء عن جزيرة « أفالون » والبرتغاليون عن جزيرة أنتيليا . . إلخ . وقد كانت المصورات الجغرافية إلى القرن الخامس عشر تشير إلى مواقع هذه

الجزر الموهومة فى رقعة المحيط الأطلسى إلى أن ثبت فى العصور الحديثة بالدليل القاطع أنه ليس لها وجود . ونظير هذه الأوهام ما نجده عند بعض قدماء الجغرافيين العرب من إشارة إلى جزيرة التنين المفترض وجودها فى بحر الظلمات ، وبعد اكتشاف العالم الجديد أراد البعض أن يستشف فى قصة أتلانتيس أثراً لمعلومات قديمة كان الناس يعلمونها عن أمريكا ، ثم طواها النسيان ، غير أن هذا الرأى ينقضه أن أمريكا لو كانت هى أتلانتيس لوجب ألا يكون لها اليوم وجود ؛ لأن أتلانتيس قد طواها اللج فى يوم وليلة كما يقولون !

ولم يقنع باحث فرنسى هو « بريليو » Berilioux بكل هذا الخليط من الآراء التى إن تفرقت فإنها تجتمع عند وجود جزيرة طواها الماء ، فذهب هذا الباحث مذهباً فريداً مؤداه أن أتلانتيس إنما كانت دولة ازدهرت فى منطقة جبال الأطلس الحالية ، وكان أهلها شعباً آريا هاجر إلى ذلك الجزء من شمال إفريقيا قادماً من أوربا ، وأنشأوا هنالك دولة اتسع سلطانها من السنغال جنوباً إلى الجزر البريطانية شمالاً ، ومن إسبانيا غرباً إلى شمال إيطاليا شرقاً ، وأن هؤلاء القوم هم بعينهم « الليبيون » الذين كانوا يشنون الغارة على حدود مصر الغربية والذين سيطروا فى وقت ما على دلتا النيل إلى أن طردهم المصريون بقيادة رمسيس الثانى .

ويشير بريليو إلى أن الآثار المصرية تصور هؤلاء الليبيين بيض الوجوه ، صفر الشعور ، زرق العيون ، مما يؤيد رأيه فى أصلهم الآرى ، ويذهب صاحب هذا الرأى إلى أن الأبحاث الأثرية التى يصح أن تجرى فى المستقبل فى المغرب ستكشف عن آثار تلك الدولة العظيمة التى لا تزال

مخبوءة تحت الركام ! ولما كان لا موضع فى هذه النظرية للجزيرة التى أغرقها المحيط فإن صاحبها يضيف أن من المرجح أن جزيرة ساحلية تابعة لدولة أتلانتيس قد اختفت تحت سطح الماء لأسباب طبيعية اجتمعت عليها ، وأن غرق تلك الجزيرة الصغيرة يجعل الأسطورة أقرب إلى التصديق ، لأنه أقوى احتمالاً من غرق قارة برمتها .

وبعد فترة من الزمن بدا فيها وكأن الناس قد انصرفوا عن موضوع أتلانتيس — ولعلهم شغلوا عنه وعن غيره بأحداث الحرب العالمية الثانية وما تلاها — لم تلبث الكتب والبحوث المتعلقة بالقارة المفقودة أن عادت إلى الظهور بمثل كثرتها الأولى ، وأهم النظريات الجديدة فى هذا الشأن اثنتان .

النظرية الجديدة الأولى قال بها عالم ألمانى ، هو القس يورجن سبانوت الذى يزعم أنه عثر على بقايا عاصمة أتلانتيس فى قاع بحر الشمال ، وهو موقع جديد ، إذ لم يسبق فيما نعلم أن أحداً من الباحثين ذهب إلى أن أتلانتيس كانت فى بحر الشمال ، وقد نشر سبانوت كتابه المعنون « العثور على أتلانتيس » سنة ١٩٥٣ .

وأساس نظرية هذا العالم الألمانى تصحيح ما يقول إنه خطأ فى الفهم ، أو فى الترجمة ، تسرب إلى ما رواه أفلاطون ، فقد نسب إلى أفلاطون أن اختفاء أتلانتيس يرجع إلى ما قبل زمن صولون بتسعة آلاف سنة ، وهذا التوقيت الموغل فى القدم يتناقض مع وقائع معينة جاءت فى رواية أفلاطون ، منها : وجود المدن الإغريقية ، ومن بينها أثينا ووجود الدولة المصرية ، واستعمال البرونز ، وبدء استعمال الحديد ، فكل هذه الظواهر لم تكن

موجودة فى ذلك الماضى السحيق ، وإذن لابد أن فى الأمر خطأ يرجع إلى استبدال كلمة سنة بكلمة شهر فى النقل ، أو فى الترجمة من المصرية إلى الإغريقية ، ويؤيد سبانوت هذا النظر بأن التوقيت بالشهور كان شائعاً لدى قدماء المصريين ، وهم الذين سمع منهم صولون تلك القصة ، وعنه نقلها أفلاطون ، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نضع اختفاء أتلانتيس فى وضعه الزمنى الصحيح ، فنرجعه إلى حوالى سنة ١٢٠٠ ق . م .

ويعتمد المؤلف إلى نقطة أخرى فى رواية أفلاطون أثارت الشكوك حول صحة قصة أتلانتيس ، هى قوله : إن أتلانتيس كانت أكبر من آسيا وإفريقيا معاً ، ويقول سبانوت فى تفسير هذه النقطة إن الكلمة الإغريقية التى ترجمها المترجمون بمعنى الأكبر حجماً تحتمل معنى آخر ، هو أن أتلانتيس كانت أعظم قوة وأعلى شأناً من دول آسيا وإفريقيا معاً ، وهو يرجح هذه الترجمة ، وينفى بذلك عن رواية أفلاطون صفات المبالغة والخيال .

ثم يستعرض المؤلف حوادث التاريخ الثابتة فى ذلك العصر ، أى حوالى سنة ١٢٠٠ ق . م ، فيوضح أن الموطن الأصلى للشعوب الشمالية (وهو يشمل الساحل الشمالى لألمانيا والدانمرك وجنوب إسكندناوة) قد تعرض فى تلك الفترة لكوارث طبيعية هائلة من زلازل وزوابع وفيضانات ، كما أن مستوى سطح بحر الشمال نفسه قد ارتفع فى تلك الفترة ارتفاعاً محسوساً نتيجة زيادة ذوبان الثلوج الشمالية بسبب ارتفاع متوسط درجة الحرارة ، فكان من نتيجة ذلك كله أن اختفت تحت الماء جزر برمتها ، كما طغى البحر على مساحات كبيرة من اليابسة ، ودمرت بلاد كثيرة

بفعل الزلازل ، فكان أن هجرت الشعوب الشمالية (النوردية) موطنها ، وهذا يعرف فى التاريخ باسم الهجرة الكبرى ، وتدفقت جحافلهم على أوربا ، فاليونان ، فآسيا الصغرى ، فسوريا ، ومنهم من استوطنوا بعض البلاد التى مروا بها ، كما أن قواتهم أخضعت جميع مدن اليونان – عدا أثينا – ولم تقف إلا على حدود مصر ، كما تدل على ذلك أوراق البردى والنقوش المصرية .

وبعد دراسة مستفيضة للبرديات المصرية والنقوش ، وخاصة ما يوجد منها على جدران المعبد المعروف باسم مدينة هابو بالأقصر ، ينتهى سبانوت إلى أن أهل أتلانتيس هم بعينهم الغزاة الذين صدهم رمسيس الثالث على سواحل مصر الشمالية ، وهم المعروفون فى التاريخ المصرى باسم « شعوب البحر » وتمثل نقوش مدينة هابو المعارك البحرية التى دارت بين الأسطول المصرى وأسطول الغزاة الذين تصورهم النقوش فى أشكال قريبة من مميزات الجنس النوردى ، كما تصور لباسهم وأسلحتهم تصويراً يطابق ما عثر عليه المنقبون فى الأقطار النوردية من آثار ذلك العصر .

وهكذا ينتهى المؤلف إلى أن قصة أتلانتيس إنما ترمز إلى المملكة النوردية القوية التى كانت قائمة فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد وما قبله فى شمال ألمانيا وجنوب إسكندناوة ، والتى هاجر أهلها فى جماعات كبيرة إلى الجنوب الشرقى نحو داخل أوربـا فآسيا ، عقب الكوارث التى اجتاحت وطنهم ، ودمرت مدنهم .

أما عاصمة تلك المملكة المتسعة الأرجاء ، فقد كانت فى جزيرة من جزر بحر الشمال يذكرها أفلاطون باسم « بازيليا » ، وينتهى المؤلف

بعد بحث دقيق للأوصاف والإشارات التى تضمنتها رواية أفلاطون ، إلى تحديد موقع تلك الجزيرة المختفية إلى الشرق من جزيرة هليجولاند الصغيرة ، أى بينها وبين ساحل الدانمرك ، وقد تأيد عنده هذا الظن حينما لاحظ أن بحر الشمال فى هذه المنطقة ضحل جداً ، وأن عمقه فى بعض الأمكنة لا يزيد على تسعة أمتار ، فقوى فيه الأمل فى العثور على آثار عاصمة المملكة الأتلانتية فى تلك البقعة .

وفى يوليو سنة ١٩٥٢ توجه سبانوت إلى هناك فى سفينة تحمل بعض الغواصين ، وبها كل ما يلزم من الأجهزة العلمية ، ويصف لنا المؤلف كيف أن بعثته وجدت بقايا أسوار وأتربة ضخمة ، وأطلال مبانٍ تطابق ما جاء فى محاورات أفلاطون من وصف لعاصمة أتلانتيس .

هذه خلاصة مركزة لهذا الجهد البالغ الذى ينطق به كتاب يورجن سبانوت ، وأن القارئ ليعجب حقًّا بتلك الدقة الباهرة فى تتبع أصغر التفاصيل ، وتلك المهارة الظاهرة فى ربط بعض الخيوط إلى بعض ، حتى يستوى منها نسيج ملتئم ، ولا شك أن سيكون للمختصين من المؤرخين ورجال الآثار قولهم فى نظرية العالم الألمانى ، على أنها إن صحت فلن تكون المثال الأول لكشف تاريخى عظيم أدى إليه تتبع النصوص الأدبية القديمة ، فما زال دارسو التاريخ يذكرون كيف اكتشف هنرى شليمان آثار طروادة عند قرية حصارليك التركية سنة ١٨٧٢ مسترشداً فى تحديد ذلك الموقع بأشعار هوميروس فى الإلياذة والأوديسة .

أما النظرية الجديدة الثانية فقد دارت بها قصة أتلانتيس دورة كاملة فى المكان عبر ألفين وثلثمائة من السنين ، فقد رأينا أن القصة بدأت فى

بلاد اليونان على يد أفلاطون فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم نحن نرى هذه النظرية الجديدة تجيئنا من اليونان كذلك على يد إنجيلوس جالانو بولوس وهو من علماء طبيعة الأرض المتخصصين فى الزلازل والبراكين ، وقد نشر كتابه المعنون « أتلانتيس : الحقيقة وراء الأسطورة » سنة ١٩٦٩ ، واشترك معه فى تأليفه الكاتب الأثرى الإنجليزى إدوارد بيكون .

تقوم نظرية جالانوبولوس على أساس نتائج الحفريات والأبحاث التى أجراها الأثرى اليونانى سبيريدون ماريناتوس فى الثلاثينات من هذا القرن وما بعدها فى جزيرة صغيرة فى بحر إيجه إلى الشمال من كريت هى جزيرة تيرا (وتسمى سانتورين أيضاً) ، فقد أثبتت تلك الحفريات أن الجزء الأوسط من تلك الجزيرة قد نسفه انفجار بركانى مروع ، وقع حوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد طغت على أثره مياه البحر على ذلك الجزء من الجزيرة ، بحيث أصبحت على ما هى عليه الآن ، أى على شكل هلال تتوسطه بعض الجزر الصغيرة المتناثرة التى هى كل ما تبقى من الجزء الذى ابتلعه البحر . كذلك دلت الحفريات على أن تيرا كانت قبل تلك الكارثة العظمى أحد مواطن الحضارة المينوية التى كان مقرها جزيرة كريت القريبة ، وقد كانت الدولة المينوية تضم كريت وعدداً من الجزر الأخرى إلى شمالها فى بحر إيجه ، وتستطرد النظرية قائلة : إن أثر ذلك الانفجار البركانى امتد إلى كريت نفسها ، بسبب الموجات الزلزالية الضخمة التى تعقب أمثال تلك الهزة الأرضية العنيفة ، والتى تدفع بمقادير هائلة من مياه البحر مسافات بعيدة ، لا تعتبر السبعون ميلاً التى تفصل تيرا عن كريت بالنسبة إليها شيئاً مذكوراً ، وقد تصل

سرعة تلك الموجات الهائلة إلى ٢٠٠ ميل فى الساعة فتكون إذن قد وصلت من تيرا إلى سواحل كريت فى أقل من نصف ساعة ، كما قد يبلغ ارتفاع تلك الموجات ٣٠٠ قدم مما يجعل لها قوة تدمير مروعة ليس من السهل تصورها . وهكذا طغت تلك الموجات على مراكز الحضارة المينوية فى كريت فقضت عليها فجأة « فى يوم واحد وليلة واحدة » ، وهذا التفسير لزوال الحضارة المينوية بغتة هو الذى يقبله الآن معظم العلماء المتخصصين بعد أن كان الرأى السائد أن ذلك الانقضاء المفاجئ لحضارة كريت كان نتيجة غزو الآخيين ، القادمين من البر اليونانى الكبير ، للدولة المينوية .

تلقف جالانوبولوس نتائج الحفريات والأبحاث الأثرية المشار إليها وبنى على أساسها نظريته عن أتلانتيس ، وقد بدأ بتفنيد النظريات السابقة التى تجعل موقع أتلانتيس فى أجزاء أخرى من العالم ، وبخاصة المحيط الأطلسى الذى يثبت المؤلف بأدلة مستمدة من علم طبيعة الأرض أنه من المستحيل أن تكون قد وجدت فيه فى الأزمنة التاريخية مساحة كبيرة من اليابسة هبطت من بعد إلى قاع المحيط . ثم يحلل المؤلف النصوص الأفلاطونية الخاصة بأتلانتيس ، وينتهى من دراسته لها إلى أنَّ ما يسميه أفلاطون « العاصمة القديمة » لدولة أتلانتيس وما يسميه « المدينة الملكية » كانتا فى مكانين مختلفين ، ثم يورد الأدلة التى تثبت فى نظره أن العاصمة القديمة كانت فى وسط جزيرة تيرا ، وأن المدينة الملكية والسهول الزراعية المحيطة بها والتى وصفها أفلاطون كانت فى جزيرة كريت .

أما الصعوبة الناشئة عن كون اختفاء أتلانتيس فى أعماق البحر

يرجع فى رواية أفلاطون إلى تسعة آلاف سنة سابقة على زيارة صولون لمصر التى سمع فيها من كهان سايس (صان الحجر) قصة أتلانتيس ، فتعالجها هذه النظرية عن طريق افتراض حدوث خطأ فى ذلك الرقم بزيادة صفر فيه ، فالمقصود هو ٩٠٠ سنة لا ، ٩٠٠٠ سنة ، ولما كان صولون قد زار مصر فى سنة ٦٠٠ قبل الميلاد فإن ذلك يرجع بتاريخ الكارثة التى أودت بأتلانتيس إلى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ، وهو تاريخ يتفق وزمن انفجار بركان تيرا ، ودمار مراكز الحضارة المينوية فى كريت بفعل الموجات الزلزالية التى أعقبته .

تبقى الصعوبة الأخرى الناشئة عن الإشارة لدى أفلاطون إلى كون أتلانتيس كانت تقع إلى الغرب من أعمدة هرقل التى يعتبرها الجمهور هى ومضيق جبل طارق شيئاً واحداً ، ويشكك جالانوبولوس فى كون أعمدة هرقل التى كان يذكرها الإغريق القدماء هى نفسها مضيق جبل طارق ويرجح – بالرجوع إلى أسطورة هرقل فى الميثولوجيا الإغريقية وأدلة أخرى – أن تكون أعمدة هرقل تلك اسماً كان يطلق على ممر ملاحى بين صخور واقعة فى مكان من بحر إيجه طوى ذكره الزمان .

وهكذا نجد أن قصة أتلانتيس طبقاً لهذه النظرية رمز لزوال الدولة المينوية من كريت ، والجزر التابعة لها فى تلك الكارثة الضخمة من كوارث الطبيعة التى وقعت حوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد . والجهد الذى بذله جالانوبولوس ومن قبله مارييناتوس جهد قيم ولا شك ، وبراعة أولهما فى نسج خيوط نظريته لا يمكن إنكارها . على أن اليقين لا يزال فيما أعتقد بعيداً عن قصة أتلانتيس ، فالحجج والأدلة التى تساق تأييداً لهذه النظرية

هى مثل أسانيد معظم النظريات الأخرى مؤدية إلى مجرد الاحتمال ، أو على أحسن الفروض إلى الترجيح دون القطع واليقين ، ثم تبقى فى النفس أشياء من بعض نواحى هذه النظرية ، أهمها أن نسبة القصة عند أفلاطون إلى كهان المصريين القدماء أمر غير مفهوم إذا صح أن أتلانتيس كانت هى فعلاً تيرا وكريت ، فقد كان جديراً إذن أن تعى ذاكرة الشعوب الإغريقية نفسها ذلك الحدث الهائل الذى حلَّ بأحدها على تلك المسافة القريبة من بر اليونان الكبير ، لا أن يكون حديثاً مجلوباً إلى اليونان من مصر ، مصدره الأول الوحيد كهان مدينة سايس المصريون .

وبعد فمما لا شك فيه أن الكلمة الأخيرة فى قصة أتلانتيس لم تقل بعد ، وأن الناس ظلّوا مفتونين بهذه القصة زمناً طويلاً ، كما أولعوا بها وشغلوا أنفسهم بتفسيراتها ، وبأدلة ثبوتها طوال القرون الماضية منذ أن بدأت القصة على يد أفلاطون ، ولعل الغموض والإبهام المحيطين بأتلانتيس هما سبب اجتذاب أفئدة الناس إليها ، ولعل النظريات المختلفة بشأن أتلانتيس قد أضافت إلى أسرارها أسراراً جديدة بدلاً من أن تكشف عن حقيقتها النقاب ، ومن يدرى لعل الناس أميل إلى إطلاق عنان أخيلتهم فى اختراق حجب الغموض والإبهام منهم إلى تقييد تلك الأخيلة بقيود الوضوح واليقين ، وقديماً قال بعض متصوفينا : سعيك فى إدراك الشىء أكبر حظًّا فى اللّذة من إدراكه .

آخر أسرار « القارة المظلمة »

أطلال زمْبابْوى

كانت إفريقيا تنعت فى اللغات الأوربية بالقارة المظلمة ، وهو نعت يصور بندرة ما كان يعرفه العالم عن هذه القارة إلى وقت غير بعيد ، ويعكس معنى الغموض والأسرار التى كانت تغلف إفريقيا وكل ما يتصل بها فى أذهان الناس .

ولئن كانت الاكتشافات الكبرى التى تتابعت فى القرن الماضى قد أزاحت الستار عن معظم ما كان مجهولاً من أمور هذه القارة إلا أنها ظلت تخفى بعض الأسرار التى كانت تحير الباحثين وتستعصى على الحل إلى وقت قريب .

ولعل أطلال زمبابوى هى أهم هذه البقية الباقية من أسرار القارة المظلمة ، وهى تقع فى جنوب شرق إفريقيا فى الإقليم الذى يسميه الوطنيون الأفارقة المكافحون لتحريره بالاسم نفسه « زمبابوى » ، وتسميه حكومة الأقلية البيضاء « روديسيا » .

وتقع هذه الأطلال على خط العرض ٢٠ جنوباً بالقرب من نهر سابى .

ولفظ « زمبابوى » مزيج من كلمتين معناهما « بيوت الحجارة » بلغة البانتو التى تتكلمها قبائل هذه المنطقة ، وهو اسم على مسمى ، إذ أن

هذه الأطلال عبارة عن بقايا مبـــان حجرية ضخمة تقـع فى منطقة مساحتها ستون فداناً تقريباً ، يحيط بها جميعاً سور هائل من الحجارة الكبيرة يبلغ أقصى ارتفاعه ثلاثين قدماً ، ويتراوح سمكه بين عشر أقدام عند قاعدته ، وسبع أقدام فى أعلاه . وفى داخل هذا السور البيضاوى الضخم أطلال مبان عديدة ، أهمها برج مرتفع يبدو أنه كان مخصصاً للمراقبة والدفاع ، وجميع هذه المبانى مقامة من أحجار كبيرة متراصة لا يدخل فى بنائها شىء من الملاط .

وقد لفتت هذه الأبنية الفريدة الأنظار منذ أن سمع بها المستعمرون البرتغاليون فى القرن الخامس عشر لكونها – لبنائها من الحجر ، ولضخامتها ولتصميمها الخاص – غريبة عن كل ما هنالك من منشآت فى إفريقيا السوداء كلها ، وأصبحت زمبابوى محطًّا لرحال العلماء من رجال الآثار والمستكشفين منذ النصف الثانى من القرن الماضى ، وبرغم كثرة ما كتبه الباحثون وأدلى به العلماء لم يصل العلم إلى رأى حاسم بشأن هذه الأطلال إلا بالأمس القريب . وهكذا كانت زمبابوى من المشكلات المعدودة التى وقف إزاءها علم الآثار الحديث عاجزاً عن الوصول إلى حقيقتها أمداً طويلاً .

وتفرقت الآراء التى أبديت بشأن زمبابوى ثلاث فرق :

ففريق من الباحثين يرى أن هذه الأطلال موغلة فى القدم ، وأنها ليست من آثار سكان إفريقيا الأصليين ، ولذا فهم يرجعونها فى الزمان إلى حوالى ألف سنة قبل ميلاد المسيح ، وينسبونها إلى الدولة السبئية ، وهى من دول العرب البائدة التى كانت لها حضارة مزدهرة فى ربوع اليمن

منذ القرن العاشر قبل الميلاد حتى قبيل الإسلام ، ويقول أنصار هذا الرأى :
إن عرب الجنوب القدماء كانت لهم صلات بهذا الجزء من القارة الإفريقية ،
يعبرون إليها المحيط بسفنهم الشراعية مستعينين بالرياح الموسمية لكى يستغلوا
مناجم الذهب التى كانت تزخر بها هذه المنطقة ، ولكى يستجلبوا منها
الأخشاب العطرية والبهارات التى كانوا يحتكرون تجارتها فى العصور
القديمة ، ولحماية مستعمراتهم فى منقطة التعدين ورعاية مصالحهم
التجارية . أقام السبئيون هذه التحصينات القوية التى ما زالت بقاياها حتى
اليوم تتحدى الزمن ولا تعبأ بالمناخ ولا بالأحراش ، وهما فى هذا الجزء من
إفريقيا لا يبقيان على شىء .

وأول من نادى بهذا الرأى البحاثة الإنجليزى (بنت) الذى ظهر كتابه
« مدن ماشونالاند المخربة » فى سنة ١٨٩٢ ، ولم يعدم هذا الرأى سنداً
فى أعمال العالمين الألمانيين رايتنز ، وفون فيسمان اللذين قاما بالتنقيب
عن آثار الدولة السبئية فى اليمن قبل الحرب العالمية الثانية ، فقد أثبت
هذان الأثريان ما لاحظاه من أوجه الشبه بين الآثار السبئية وبين أطلال
زمبابوى من حيث الأوضاع المعمارية (وخصوصاً السور البيضاوى أو الدائرى
لا المربع أو المستطيل) .

والفريق الثانى من العلماء وعلى رأسه الإنجليزى (هول) يوافق الفريق
الأول فى أن هذه الأطلال عريقة فى القدم وفى أنها من صنع قوم طارئين على
إفريقية ، غير أن أصحاب هذا الرأى الثانى يرجعون هذه الآثار إلى
الفينيقيين – ذلك الشعب السباق إلى جوب البحار فى العصور القديمة –
ويرون أن الفينيقيين هم الذين كانوا يستغلون مناجم الذهب الإفريقية

فى هذه المنطقة ، وأنهم هم الذين أقاموا هذه الاستحكامات والمبانى لأغراض الإقامة والحراسة والدفاع ، ومن أصحاب هذا الرأى من يرى أن لقدماء المصريين صلة بأطلال زمبابوى ، لأن الفراعنة كانوا يستعينون فى رحلاتهم البحرية الطويلة بملاحين وربابنة من الفينيقيين ، ويستشف هذا الفريق من العلماء فى مبانى زمبابوى تأثيرات فينيقية وفرعونية معاً ، ويذهبون فى استنتاجهم إلى أبعد من ذلك ، فيقررون أن هذه البقعة من جنوب شرق إفريقيا هى نفسها بلاد « بونت » الشهيرة لدى قدماء المصريين ، وهى البلاد التى سجلوا على آثارهم رحلاتهم البحرية إليها ، وكانوا يستجلبون منها الأخشاب العطرية التى تستعمل بخوراً فى معابد آلهتهم ، كما كانوا يستجلبون منها الذهب . وقد كانت بلاد « بونت » هذه — برغم حقيقة وجودها — أن تصبح أسطورة لكثرة ما تضاربت آراء المؤرخين ورجال الآثار فى موقعها ، فمنهم من يرى أنها هى نفسها اليمن وما جاورها من جنوب بلاد العرب ، وأخيراً يرى غيرهم أنه لا يبعد أن تقع بلاد بونت فى جنوب شرق إفريقيا حيث أطلال زمبابوى ، خاصة وقد ثبت أن قدماء المصريين — ربما بمساعدة الملاحين الفينيقيين — قد أتموا الرحلة بحراً حول إفريقيا فى عهد الفرعون نخو الثانى (سنة ٦٠٩ — ٥٩٤ قبل الميلاد) وقد أشار إلى هذا العمل الجليل المؤرخ هيرودوت ، وإذن فلا يستبعد أن يكون قدماء المصريين قد وصلوا إلى ما عرف من بعد بروديسيا الجنوبية وأن تكون تلك البلاد نفسها هى « بونت » .

والفريق الثالث من العلماء الذين تناولوا بالبحث أطلال زمبابوى ينكرون أن تكون هذه الآثار موغلة فى القدم ، كما لا يسلمون بأنها من

صنع شعب غير إفريقى ، فعندهم أن هذه الأطلال لا يرجع عهدها إلى أبعد من القرون الوسطى ، أوعلى الأكثر إلى القرن الثامن الميلادى ، كما أنهم يرون أنها من آثار دولة زنجية قوية قامت فى هذه البقاع فى الفترة المشار إليها ، وليست من صنع أقوام من خارج إفريقيا جاءوها مستعمرين لاستغلال مناجمها وخيراتها . وقد نادى بهذا الرأى فى أوائل هذا القرن الإنجليزى راندال ماك إيفر ، وأيدته الرحالة مس كاتون – طومسون التى رأست فى سنة ١٩٢٩ بعثة إنجليزية إلى زمبابوى ، وأوردت فى كتابها « حضارة زمبابوى » الذى صدر سنة ١٩٣١ الأدلة على هذا الرأى وأهمها :

وجود قطع من الخزف الصينى وعقود الخرز المستوردة من إندونيسيا أمكن حصر تواريخ صنعها واستيرادها فيما بين القرن الثانى عشر والقرن السادس عشر الميلاديين . كذلك عثر فى الحفريات التى جرت فى الخمسينات من هذا القرن على قطع خشبية فى الطبقة الأرضية التى تقع بها أساسات السور البيضاوى الضخم ، وأمكن باستعمال طريقة الكربون المشع إرجاع تاريخ تلك الأخشاب إلى الفترة نفسها ، وبذلك ثبت يقيناً أن زمبابوى بنيت فى العصر الوسيط ، وأن بناءها لا يرجع إلى ما قبل ميلاد المسيح فى عصر السبئيين أو الفينيقيين ، وثبت بذلك – أيضاً – أن بناة زمبابوى كانوا من أهل البلاد الأصليين ولم يكونوا من القادمين إليها للغزو أو للتجارة فى العصور القديمة .

أما الحجة المستمدة من طراز الأبنية المعمارية فقد دحضها العلماء بالإشارة إلى أن زمبابوى ليست إلا صورة مكبرة لحظيرة رئيس القبيلة الإفريقى التى يضمها سور بيضاوى ، وتحوى مسكنه وأكواخ زوجاته وسائر

مرافق معيشته ، وإن كانت قد بنيت لا من الطين والقش ولكن من حجارة الجرانيت التى يكثر وجودها فى ذلك المكان ، وإذن فليس فى تصميم زمبابوى شىء ليس معهوداً فى الحضارة المحلية يتعين – كما فعلت النظريتان السابقتان – افتراض أنه دخيل عليها جلبه من الخارج قوم قدموا من بلاد بعيدة .

ويشير أنصار النظرية الإفريقية فيما يتعلق بأصل زمبابوى إلى أن إقامة المبانى من الحجارة لم تكن مجهولة لدى الأفارقة كما كان يذهب إليه أنصار النظرية السبئية أو النظرية الفينيقية ، ففى ذلك الجزء من إفريقيا مبان قديمة أخرى من الحجارة ، وإن كانت أصغر حجماً وأقل إتقاناً من زمبابوى .

والخبراء متفقون الآن على أن أطلال زمبابوى من بناء دولة ، أو اتحاد قبائل إفريقية قام فى تلك البقعة من القارة فيما بين القرن الثانى عشر والقرن الثامن عشر الميلاديين . ويضيفون أن زمبابوى ظلت بعد زوال الدولة التى أقامتها مقرًّا للطقوس الدينية التى كانت تمارسها قبائل الشونـا حتى القرن التاسع عشر .

وقد كان بناة زمبابوى يقومون باستخراج الذهب من مناجمه الكثيرة فى تلك الأصقاع ويتاجرون فيه مع المراكز التجارية العربية ثم البرتغالية على ساحل المحيط الهندى ، فأثروا من ذلك وازدادوا قوة بما مكنهم من إقامة تلك الأبنية الضخمة الفريدة مقرًّا لحاكم تلك الدولة أو ذلك الاتحاد ، ومركزاً لتجارتهم فى الذهب وفى غيره من منتجات القارة التى كانوا يبيعونها فى مراكز التجارة الساحلية ، وبخاصة سفالة التى هى أقرب تلك المراكز

التى أقامها العرب على شاطىء إفريقيا الشرقى ، وتقع إلى الشرق من زمبابوى على بعد ٢٥٠ ميلاً تقريباً .

وهكذا استقرت مشكلة أصل أطلال زمبابوى ، وهوية بناتها ، وعصر إنشائها فى مستقرها التاريخى الصحيح ، وكشفت النقاب بذلك عن سر لعله آخر الأسرار التى تخفيها القارة التى كانت تنعت بالمظلمة ، وإنه لما لا يخلو من عظة أن يثبت أصل زمبابوى الإفريقى ، وأن تقوم تلك الآثار دليلاً على ازدهار حكم وطنى أصيل فى تلك البلاد فى العصور الوسطى فى حين يحتدم فى هذه الآونة الصراع بين أهل البلاد – الذين اتخذوا من اسم تلك الأطلال اسماً لحركتهم التحريرية ، بل للإقليم الذى يريدون أن يحرروه – وبين حكومة الأقلية البيضاء المستعمرة التى تمثل هى وحليفتها حكومة جنوب إفريقيا العنصرية البقية الباقية من الاستعمار الغربى المنحسر عن القارة الإفريقية .

الفهرس

رقم الإيداع	١٩٧٧/٤٦١١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٤٤ – ٦

١/٧٧/٧٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

